الجزء الثاني المجلد السادس والثمانون

مجلّة مجمع اللغة العربية بدمشق

« مجلّة المجمع العلمي العربي سابقًا »

مجلة محكّمة فصلية

ربيع الآخر ١٤٣٢هـ
نيسان ٢٠١١م

مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق

((مجلة المجمع العلمي العربي سابقاً))

أنشئت سنة ١٣٣٩ هـ الموافقة لسنة ١٩٢١م

المدير المسؤول: الأستاذ الدكتور مروان المحاسني، رئيس المجمع

لجنة المجلة

الدكتور محمود السيد «رئيس التحرير»

الدكتور عبد الله واثق شهيد — الدكتور مكي الحسني الجزائري

الدكتورة ليلى الصباغ — الدكتور مازن المبارك

الدكتور ممدوح خسارة — الدكتور عيسى العاكوب

الدكتور محمد محفل — الدكتور عبد الإله نبهان

الدكتور أحمد قدور

أمين المجلة: الدكتور محمود الحسن

أغراض المجلة:

إن أغراض المجلة مستمدة من أغراض المجمع الواردة في قانونه ولائحته الداخلية، وأبرزها: المحافظة على سلامة اللغة العربية، وجعلها وافية بمطالب الآداب والعلوم والفنون، وملائمةً لحاجات الحياة المتطورة، ووضع المصطلحات العلمية والتقنية والأدبية والحضارية، ودراستها وفق منهج محدد، والسعي لتوحيدها في الأقطار العربية كافة.

خطة المجلة وشروط النشر فيها:

- أن يُرفق الكاتب بحثَه بالسيرة الذاتية والعنوان البريدي والإلكتروني، مع تعهد بأن البحث غير مستل من أطروحة جامعية، وغير منشور من قبل، ولم يُرسَل إلى جهة أخرى.
- ألا يقلَّ البحث عن عشر صفحات وألاَّ يزيد على ثلاثين صفحة من صفحات المجلة، وعدد الكلمات في الصفحة الواحدة لا يزيد عن (٢٥٠)كلمة. أما المقالات فيُقبَل منها ما يقلّ عن عشر صفحات.
- أن يخلو البحث من أي إساءة إلى الكتّاب والباحثين أو غيرهم، وأن يحترم المعتقدات الدينية والفكرية للشعوب.
- أن تكون البحوث والمقالات المرسلة إلى المجلة منضدة، وأن تشفع بقرص حاسوبي ليزري مسجلة عليه، أو مرسلة بالبريد الإلكتروني.
- أن يلتزم الباحث المنهجَ العلميَّ في كتابة المراجع وأسماء المؤلِّفين في متن البحث وحواشيه.
- تنشر المجلة البحوث والمقالات التي ترد إليها بعد أن تخضع للتقويم السّرّي.
- ترتَّب البحوث والمقالات وفق اعتبارات فنية.
- البحوث والمقالات التي لا تُنشر لا تردّ إلى أصحابِها.
- تُعطى الحواشي أرقامًا متسلسلة من بداية البحث حتى نهايته. وتذكر حواشي كل صفحة في أسفلها.
- توضع الكلمات العربية (أو المعربة) قبل مقابلها الأجنبي عند ورودها أول مرة، نحو: تِقانة (Technology)، حاسوب (Computer)، نفسية (Psychologic).
- من الضروري أن يُعنى الكاتب بعلامات الترقيم: النقطة، الفاصلة، إلخ....
- ترسل البحوث والمقالات إلى المجلة على العنوان:

العنوان البريدي: دمشق ص.ب ٣٢٧

البريد الإلكتروني: E- mail: mla@net. Sy

تُنشر المجلة في موقع المجمع على الشابكة (الإنترنت): www.arabacademy.gov.sy

فهرس الجزء الثاني

من المجلد السادس والثمانين

البحوث والدراسات

تدريس النحو بين التشدُّد والتسهيل	د. محمود السيد	٣١٣
اللسانيات في التراث اللغوي العربي	د. لبانة مشوح	٣٣٩
أصوات اللغة عند سيبويه: مراجعة وتفسير	د. أحمد محمد قدور	٣٦٣
طريقة أبي الفتح البُستي في الجناس	د. رضوان الداية	٣٨٩
الزَّجر والعيافة والطِّيَرَة في الشعر الجاهلي	د. أحمد حالو	٤١٩
أثر التشبيه البليغ بأسلوب التركيب الإضافي	د. عبد الهادي خضير	٤٣٩
الضرورة الدلالية	د. سمير معلوف	٤٦٩
التراث الحكائي وقصص الأطفال المعاصرة	د. أحمد صوان	٤٩٧
مصطلحات نقدية عند أبي عبيدة	أ. ناصر الجباعي	٥١٥

المقالات والآراء

صفحة لغة: حتى إذا	د. مكي الحسني	٥٣٩
الإبانة في تفصيل ماءات القرآن	د. عبد الإله نبهان	٥٤١
أمجد الطرابلسي في مرأى تلميذ قديم	د. عمر الدقاق	٥٥٣
قصة أول ترجمة للقرآن الكريم	د. نزيه كسيبي	٥٧١
قراءة في كتاب قضايا ومواقف	د. أحمد عبد القادر	٥٨٣

أنباء مجمعية وثقافية

الكتب والمجلات المهداة إلى مكتبة المجمع في الربع الأول من عام ٢٠١١ ٦٠٥

بسم الله الرحمن الرحيم

تدريس النحو بين التشدد والتسهيل

د. محمود السيد (*)

نحاول في هذا البحث الموجز أن نتعرف مشكلة تدريس النحو، وما يراه المتشددون في التمسك بتعليمه، وما يراه الداعون إلى تسهيل المادة النحوية، ونشير إلى عدد من محاولات التسيير، لنرسم أخيرًا بعض الصوى في مجال الارتقاء بواقع تدريسه.

أولًا- مشكلة تدريس النحو

لم يحظ أي فرع من فروع اللغة العربية بما حظيت به القواعد النحوية من اهتمام في العملية التعليمية التعلمية، وطالما عقدت مؤتمرات وندوات، وشُكلت لجان للبحث في تعليم النحو في مراحل التعليم المختلفة، إن في التعليم الجامعي أو في التعليم ما قبل الجامعي.

(*) عضو مجمع اللغة العربية بدمشق.

وإذا كان ثمة من يرى من الباحثين أن اللغة أسبق من قواعدها، وأن أبناء اللغة كانوا يكتسبون اللغة قبل وضع قواعدها، وأن من وسائل ذلك الاكتساب الاستماع إلى اللغة، ومحاكاة قوالبها، وأنماطها، وبناها اللغوية، فإذا وضع المتعلم في جوٍّ، تسود فيه اللغة السليمة، امتص السلامة من ذلك الجو، على النحو الذي كان ينتهجه أجدادنا العرب القدماء عندما كانوا يرسلون أطفالهم إلى نجد وسط الجزيرة العربية، حيث النقاء اللغوي، والبعد عن التلوث.

وهذا ما يؤكده علماء النفس اللغوي في نظرتهم الرامية إلى تغطيس المتعلم في الحمام اللغوي، بحيث لا يتحدث المعلمون إلا بالعربية الفصيحة، ولا يستمع المتعلمون إلا إلى العربية الفصيحة، وإن المتعلم مهما يكن متمكنًا من حفظ القواعد النحوية، فإنه لن يتمكن من استخدام اللغة الفصيحة، ما لم يمارس اللغة السليمة في المواقف الحيوية محادثة واستماعًا وقراءة وكتابة.

ولا يعوّل أصحاب هذا التوجه على القواعد النحوية في تعليم اللغة العربية وتعلمها، وطالب بعضهم بإلغاء الإعراب، وإلغاء قواعد النحو، وتسكين أواخر الكلام، وتمنى الأستاذ أمين الخولي أن يكون الكلام العربي كله من باب المقصور الذي لا تظهر عليه الحركات في الرفع والنصب والجر.[١]

بيد أن نفرًا من الباحثين رأوا أنه لا يمكن الاستغناء عن تدريس النحو في اكتساب اللغة، وأن لجميع اللغات قواعدها وأنظمتها النحوية، وليست العربية في

(١) أمين الخولي- هذا النحو!- مجلة كلية الآداب- نشر كلية الآداب بجامعة القاهرة يوليو ١٩٤٤ ص٢٩-٦٨.

منأى عن تلك اللغات، وأقروا في الوقت نفسه أن تدريس النحو يحتاج إلى التخفيف من المادة النحوية التي يتعلمها الناشئة من جهة، كما يحتاج إلى طرائق تختلف عن طرائق الأقدمين في تدريسه، فإذا تحقق ذلك كان ثمة نجاعة في تعليم اللغة وتعلمها.

ثانيًا– دعاة التمسك بتدريس النحو

لما كان لكل لغة نظامها النحوي كان على أبناء هذه اللغة، ولمن يود تعلمها من غير الناطقين بها، أن يتعرفوا هذا النظام، ويحسنوا تطبيقه وممارسته في أدائهم اللغوي، محادثة واستماعًا وقراءة وكتابة، حتى يتمكنوا من الفهم الصحيح والإبانة الواضحة عن مشاعرهم وعواطفهم وأحاسيسهم وأفكارهم ورؤاهم بلغة سليمة، وما الإعراب إلا دلالة على الإبانة والوضوح، إذ إن الإعراب لغةً مصدر الفعل «أعرب» أي أبان.

وللإعراب الأهمية الكبرى في فهم المعنى، وكان أحمد بن فارس في تراثنا العربي قد أشار إلى ذلك في كتابه «الصاحبي في فقه اللغة» تحت باب «ذكر ما اختصت به العرب» فيقول: «من العلوم الجليلة التي اختصت به العرب الإعراب الذي هو الفارق بين المعاني المتكافئة في اللفظ، وبه يُعرف الخبر الذي هو أصل الكلام، ولولاه ما ميز فاعل من مفعول، ولا مضاف من منعوت، ولا تعجب من استفهام، ولا صدر من مصدر، ولا نعت من توكيد».[٢]

وأشار ابن قتيبة إلى أن «الإعراب جعله الله وشيًا لكلام اللغة العربية، وحلية

(٢) أحمد بن فارس– الصاحبي في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها– تحقيق الدكتور مصطفى الشويمي– مؤسسة أ. بدران– بيروت ١٩٦٤ ص٥٧.

لنظامها، وفارقًا في بعض الأحوال بين الكلامين المتكافئين والمعنيين المختلطين كالفاعل والمفعول، ولا يفرق بينهما إذا تساوت حالاهما في إمكان الفعل أن يكون لكل واحد منهما إلا بالإعراب، ولو أن قائلًا قال: هذا قاتلٌ أخي بالتنوين، وقال آخر: هذا قاتلُ أخي بالإضافة، لدل التنوين على أنه لم يقتله، ودل حذف التنوين على أنه قد قتله».(٣)

وعدَّ ابن خلدون في مقدمته النحو من أهم علوم اللسان قاطبة، إذ يقول: «أركان علوم اللسان أربعة وهي: اللغة والنحو والبيان والأدب، وأن الأهم المقدم منها هو النحو، إذ به يتبين أصول المقاصد بالدلالة، فيعرف الفاعل من المفعول، والمبتدأ من الخبر، ولولاه لجهل أصل الإفادة»، ثم يضيف «إن علم النحو أهم من اللغة، إذ في جهله الإخلال بالتفاهم جملة، وليست كذلك اللغة».(٤)

وإذا كان «أحمد بن فارس» و«ابن قتيبة» و«ابن خلدون» وغيرهم كعبد القاهر الجرجاني في تراثنا القديم قد أكدوا أهمية النحو والإعراب في الفهم والإفهام، فإن ثمة مفكرين معاصرين قد ذهبوا هذا المذهب، ونذكر منهم الأستاذ عباس حسن في كتابه «اللغة والنحو بين القديم والحديث» إذ يقول: «إن منزلة النحو من العلوم اللسانية منزلة الدستور من القوانين الحديثة، وهو دعامة العلوم العربية ودستورها الأعلى، وهو أصلها الذي تستمد عونه،

(٣) ابن قتيبة- تأويل مشكل القرآن- شرح وتحقيق السيد أحمد صقر- دار إحياء الكتب العربية- عيسى البابي الحلبي وشركاه- القاهرة ١٩٥٤ ص١١.

(٤) ابن خلدون- مقدمة ابن خلدون- دار إحياء التراث العربي- بيروت ص٥٤٥.

وتستلهم روحه، وترجع إليه في جليل مسائلها وفروع تشريعها، ولن نجد علمًا من تلك العلوم يستقل بنفسه عن النحو، أو يستغني عن معونته، أو يسترشد بغير نوره وهداه».(٥)

وجميل جدًّا موقف اللغوي عباس حسن عندما يتابع كلامه عن أهمية النحو، وهو في وضع السائل والمجيب في الوقت نفسه، فيقول متسائلًا: «وهذه اللغة التي نتخذها معاشر المستعربين أداة طيعة للتفاهم القولي والكتابي، ونسخرها مركبًا ذلولًا للإبانة عن أغراضنا، والكشف عما في نفوسنا، ما الذي هيأها لنا وأقدرنا على استخدامها قدرة الأولين من عرب الجزيرة عليها، ومكَّن لنا من نظمها ونثرها تمكينهم منها، وأطلق لساننا في العصور المختلفة صحيحًا فصيحًا كما أطلق لسانهم، وأجرى كلامنا في حدود مضبوطة سليمة كالتي يجري فيها كلامهم، وإن كان ذلك منهم طبيعة ومِنَّا تطبعًا؟».(٦)

وتأتي الإجابة من المتسائل نفسه: «إنه النحو وسيلة المستعرب، وذخيرة اللغوي، وعماد البلاغي، وأداة المشرع والمجتهد، والمدخل إلى العلوم العربية والإسلامية جميعًا».(٧)

والواقع أن هذه النظرة في أهمية تعليم النحو، في اكتساب المهارات اللغوية والفهم والإفهام في كلٍّ منها لم تكن مقتصرة على العربية، وإنما هي في اللغتين

(٥) عباس حسن– اللغة والنحو بين القديم والحديث– دار المعارف بالقاهرة ١٩٦٦ ص٦٠.

(٦) المرجع السابق ص٦٠.

(٧) المرجع السابق ص٦١.

الإنجليزية والفرنسية، فها هو ذا اللغوي الأمريكي «تشومسكي» يرى «أن النحو من اللغة بمنزلة القلب من جسم الإنسان، ولا يمكننا أن نتصور حياة لأي إنسان من غير قلب».(٨)

وجاء في مقدمة كتاب «قواعد اللغة الفرنسية» للأستاذين «روبير وشازالية» تعليق على رأي الكاتب الفرنسي «برناردان دوسان بيير»: «إننا لا نتعلم الكلام بواسطة قواعد النحو إلا بمقدار ما نتعلم المشي بطريق قوانين التوازن» يقول المؤلفان: «الواقع أن معرفة القواعد ليست هي الأمر الهام، وإنما الهام هو مراعاتها، فمن يخالف قوانين التوازن يتحرك لكنه يقع، ومن يخالف قواعد النحو يتكلم إلا أنه يسيء الكلام. والنحو لا يخلق قواعد الكلام، ولكنه يكتشفها، ويصوغها، ويشرحها بجهد دؤوب، وهو لا يملك الوسيلة إلى خلق الكاتب الكبير أو الكاتب الجيد، فالموهبة أمر لا يعلم، ولكن دون النحو لا يكون بوسع أي كاتب أن يكون كبيرًا ولا جيدًا، إن من الأمور المتفق عليها أن صحة القول هي الصفة الضرورية الأولى لكل ما يكتب».(٩)

ومن المتفق عليه في تراثنا العربي أن خوف العرب على قراءة القرآن بصورة سليمة، هو الذي دفع إلى وضع قواعد ومعايير بها يضبطون كلامهم، وقد

(٨) الدكتور محمود أحمد السيد- في طرائق تدريس اللغة العربية- مطبوعات جامعة دمشق ٢٠٠٨ ص٩٦.

(٩) محمد سليم بركات- نظرات في تدريس القواعد النحوية- الدورة التدريبية للموجهين التربويين في الابتدائي- دمشق ١٩٧٥ ص١٠.

استنبطوا هذه القواعد من استقراء الشعر القديم والقرآن الكريم، إلا أن اختلاف اللهجات العربية في الجاهلية ظهر فيما جمعوه من ذلك الشعر ومن النصوص النثرية، فلم تنطبق كلها على ما بين أيديهم من قواعد، وحاروا في تغليب طريقة من الإعراب على أخرى، ووقعت الاختلافات، ونشأت المدارس النحوية «مدرسة الكوفة، مدرسة البصرة، مدرسة بغداد...إلخ»، وكثرت التأويلات، وظهرت صيحات تدعو إلى تسهيل تدريس النحو، مادة وطريقة فيحذف من المباحث النحوية ما يمكن الاستغناء عنه، في الوقت الذي بقي فيه دعاة التشدد متمسكين بتدريس جميع المباحث النحوية، ويرون أنه لا يمكن حذف أيٍّ منها بحجة أنها جميعها وظيفية تساعد المتعلم على امتلاك ناصية اللغة. وإن أنسَ فلا يمكنني أن أنسى استهجان بعض أساتذة كلية دار العلوم في القاهرة وبعض أساتذة جامعة الأزهر في نهاية ستينيات القرن الماضي للسؤال: أي المباحث النحوية ترى من وجهة نظرك أنه يمكن الاستغناء عنها لمساعدة المتعلم حتى يتحدث ويكتب بصورة سليمة ويستمع ويقرأ فيفهم المقروء وما يستمع إليه في منأى عن أي صعوبة؟

وكان هؤلاء الأساتذة يرون أن الموضوعات النحوية كافة ضرورية لا يمكن الاستغناء عن أي منها في تعليم النحو، وأن الطريقة التي ينبغي لنا أن نتبعها في التدريس هي طريقة القدماء في تعليمه.

ثالثًا– دعاة التيسير

عارض اللغوي النحوي عباس حسن ذلك الموقف المتشدد من زملائه النحويين، وأشار إلى أن موقفهم يؤدي إلى الضعف، إذ يقول: «إن مثل هؤلاء المتشددين في غير تدبر كمثل الأم إزاء وحيدها، الذي أدركته على يأس وطول

انتظار، يدفعها الحب العارم إلى ملازمته، والإسراف في صيانته، فتحجبه عن الشمس والهواء خشية أذاهما، وتتخمه بصنوف المطاعم والمشارب خوف الضعف والذبول، وترهقه بكثير من الملابس استظهارًا للإعزاز، أو مبالغة في التوقي، فيكون من وراء ذلك ما تخافه وتخشاه الضعف والمرض والهلاك».[١٠]

وأبان الدكتور طه حسين في محاضرته «اللغة الفصحى وتعليم الشعب» التي ألقاها في الجامعة السورية عام ١٩٥٦ أننا مازلنا نعلِّم اللغة العربية في مدارسنا ومعاهدنا كما كان القدماء يعلمونها منذ أكثر من ألف عام، نعلمها كما كان المبرّد وأستاذه المازني وتلاميذهما المختلفون يعلمون في مساجد البصرة، وكما كان الكسائي والفراء يعلمان في مساجد الكوفة، أو في مساجد بغداد.

وأوضح أن الفرق بعيد بين المدرسة الابتدائية التي ننشئها في أعماق القرى وبين مسجد البصرة أو مسجد الكوفة أو مسجد بغداد، والفرق هائل جدًّا بين القرن العشرين والقرن الثامن، أو التاسع، حين كان يعيش هؤلاء العلماء.

ولا يظنَنَّ أحد أن طه حسين يدعو إلى هجر القديم، ولكنه يدعو إلى تطويره إذ يقول: «وبعد فأنا لا أدعوكم إلى هجر القديم مطلقًا، وعسى أن أكون من أشد الناس محافظة على قديمنا العربي، ولاسيما في الأدب واللغة، ولكن لِمَ لا يكون النحو القديم، والكتابة القديمة، والبلاغة القديمة، وكل هذه العلوم العربية التي أُنشئت في عصر غير هذا العصر الذي نعيش فيه..لِمَ لا يكون هذا كله متطورًا كما تطورت اللغة، نحفظ قديمه لدرس المتخصصين في الجامعات وفي

(١٠) عباس حسن- اللغة والنحو بين القديم والحديث- مرجع سابق ص٦٦-٦٧.

المعاهد، ونتيح للملايين من الصبية والشباب أن يتعلموا تعلمًا قريبًا سهلًا، عسى أن يتخرج من بينهم من يضيف إلى ثروة هذا القديم، ويحسنه أكثر مما نحسنه نحن، ويحيي هذا التراث القديم أكثر مما نحييه نحن؟»(١١).

وثمة من رأى أن في صنيع هؤلاء المتشددين من النحويين، الذين يحاولون الرجوع باللغة الفصحى إلى ما كانت عليه في أول أمرها قبيل الإسلام وأيام الأمويين، والحؤول بينها وبين مواصلة النمو والتطور والتنوع، جمودًا وابتعادًا باللغة الفصيحة عن الحياة النابضة الزاخرة، فها هو ذا مراد كامل يقول: «نحن ننافق اللغة ونخدعها عن نفسها حين نخلع عليها قدسية زائفة، تجمد بها عن التطور، وتعوقها عن الانطلاق، وحين نلقنها هذا الجيل وللأجيال المقبلة بوضعها المتحجر، ونحذرهم أن يتجاوزوا حدودها، لأننا نجبرهم بطريق غير مباشر أن يهربوا منها، ويتركوها إلى لغتهم التي تخدم حاجاتهم خدمة مباشرة، مادامت معبرة سريعة، بدل أن تستبد بهم لغة صارمة عنيدة، تسد عليهم مسالك الحياة، فلا تنطلق بهم، ولا تدعهم ينطلقون».(١٢)

وذهب بعض الباحثين إلى أن كتاب سيبويه، وكتب ابن جني، وألفية ابن مالك، لا تعلم صحة الكلام والصواب في اللغة، وتمنى على سيبويه لو قال في مقدمة كتابه «إنني رجل علم لا يعنيني إلا فهم ما يعرض لي، والخليل رجل علم

(١١) الدكتور طه حسين- اللغة الفصحى وتعليم الشعب- مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق- الجزء الأول- المجلد الثاني والثلاثون- ١٩٥٧ ص٥٤.

(١٢) الدكتور مراد كامل في مقدمة كتاب- اللغة العربية كائن حي لجرجي زيدان- دار الهلال- القاهرة ص١٥.

كذلك، يرد الأمور كلها إلى الحساب، وتصادف أننا جميعًا اتخذنا اللغة ميدانًا نظهر فيه نزعتنا العلمية، وليس الغرض من كتابي هذا أن أرشد الناس إلى الكلام الفصيح، بل غايتي منه فهم نظام اللغة، ولا يفوتني من بعدي من يشرح غوامضه، أو يتعمق في تفصيلها، فذلك لا يزيد في اهتداء الناس به إلى صحة الكلام، ولا يزيد في فهم اللغة».

وليت ابن جني قال: «إنما أنا فيلسوف قبل أن أكون لغويًّا، وغرضي من كتبي هذه أن أجد تعليلًا لقواعد اللغة كما كان يفعل فلاسفة الإغريق بالعلوم كلها، وليس على من يريدون معرفة الصواب في اللغة أن يعرفوا هذه التعليلات، فهي لا تفيدهم في ذلك شيئًا».

وليت الناس قالوا لابن مالك: «أَلفِيتُك هذه ألغاز، وهي لا تدل إلا على قدرتك الفائقة على نظم ما لا يصح نظمه، ولا فائدة منها إلا أن تجعل الطلاسم مقبولة عند بعض الناس، وقد يعجب بها بعض من يستهويهم هذا اللون من التأليف من دون أن يتعلم بها أحد صواب الكلام».(١٣)

ولقد اتجهت أنظار المجددين إلى تيسير المادة النحوية نفسها إذ إن تدريسها، على النحو الذي ورد عن القدماء، يؤدي إلى صعوبة في الفهم، وكان الدكتور طه حسين قد سأل معلمي النحو قائلًا: إذا أردتم أن تعلموا النحو هؤلاء التلاميذ المساكين فكيف تريدونهم على أن يفهموا أن قولك «قُرئ الكتاب» فعل مبني

(١٣) الدكتور محمد كامل حسين- العربية المعاصرة- دار المعارف بمصر- القاهرة ١٩٧٥.

للمجهول، والكتاب نائب عن الفاعل، لأن الفاعل قد حُذف لغرض من الأغراض التي تُذكر في علم المعاني، وعلم النحو، وأنيب عنه المفعول به؟ كيف تريد التلميذ المصري أو الشامي أو العراقي الذي لم تتجاوز سنه الثانية عشرة أن يفهم هذا الكلام؟ ما هذا الفاعل الذي حذف؟ ما هذا المفعول الذي أنيب عنه؟ ما هذا المجهول الذي بني له الفعل؟ (١٤).

وينتقد الدكتور طه حسين بشدة التقدير الذي يذهب إليه النحويون في الإعراب، ويقدم نموذجًا من تقديراتهم عندما يقول: «إذا أردت أن تفهم التلميذ قول الله تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلامَ اللهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ﴾[التوبة: ٦]، قلت له: (إنَّ «أحدٌ») في قوله تعالى:﴿إِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ فاعل لفعل محذوف تقديره استجارك، وإن تقدير الآية: «وإن استجارك أحد من المشركين استجارك»، فيسألك التلميذ: وأين توجد استجارك الأولى هذه ومن أين نأتي بها؟ وما السبب في وجود هذا الفعل مرتين؟ ولماذا لا نكتفي بهذا الفعل الذي اكتفى به القرآن الكريم؟ فكيف تجيبون؟ (١٥)

ويعلِّل هذا النهج الذي ذهب إليه النحويون في إعرابهم الحالي، بأن النحاة القدماء قرروا في قواعدهم أن حرف «إنْ» لا يدخل إلا على فعل، ولما جاء في القرآن الكريم وفي كلام العرب «إن» وبعدها اسم لم يخضعوا لما جاء في القرآن، ولم

(١٤) الدكتور طه حسين– اللغة الفصحى وتعليم الشعب– مرجع سابق ص٤٩.

(١٥) المرجع السابق.

يخضعوا لما جاء في كلام العرب نثرًا وشعرًا، وإنما أرادوا أن يخضعوا القرآن للقاعدة التي قرروها، وقد طوّعت لهم فلسفتهم هذا النحو من التصرف، واستطاعوا أن يحتملوه، واستطاعوا أن ينهضوا بأثقاله، وعلى خطاهم سار النحاة المعاصرون.

والواقع إن الإحساس بجفاف المادة النحوية لم يكن وليد العصر الحاضر، إذ إن هذا الإحساس تزامن مع كثرة الافتراضات والمماحكات والتأويلات والخلافات بين المدارس النحوية، وهذا الأمر دعا بعضهم إلى الشكوى والتذمر من الشذوذات والاستثناءات والتأويلات، فها هو ذا «دماذ» صاحب أبي عبيدة يشكو إلى أبي عثمان بكر المازني، شيخ نحاة البصرة في عصره، ما لقيه من عنت في موضوع «واو المعية» و«فاء السببية» من أن ما بعدهما ينصب بأن مضمرة وجوبًا.

وكانت ثمة دعوات نظرية ومحاولات عملية في التخفيف من القواعد النحوية، فقد دعا الجاحظ في إحدى رسائله إلى الاقتصار في تعليم النحو للصبي على الموضوعات الأساسية التي تؤدي إلى السلامة من فاحش اللحن، ومن مقدار جهل العوام في كتاب إن كتبه، وشعر إن أنشده، وشيء إن وصفه، وعويص النحو لا يجدي في المعاملات، ولا يضطر إليه في شيء على حد تعبير الجاحظ.(١٦)

وثار ابن مضاء القرطبي على النحاة بعد أن هالته كثرة افتراضاتهم وتأويلاتهم، ورأى أن يحذف من النحو كل ما يستغني الإنسان عنه في معرفة نطق العرب بلغتهم، لأن «أحوال أواخر الكلام كأحوال أوائله لغوية بسيطة لا تحتاج معرفتها إلى عسر في الفهم، ولا إلى بعد في التأويل»(١٧).

(١٦) الدكتور محمود السيد– في الأداء اللغوي– وزارة الثقافة السورية– دمشق ٢٠٠٥ ص١٧٤.

(١٧) ابن مضاء القرطبي– الرد على النحاة– مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر– القاهرة ١٩٤٧.

أما المحاولات العملية في الاقتصار على تعليم الموضوعات النحوية الأساسية فقد تجلّى بعضها في رسالة خلف بن حيان الأحمر البصري «مقدمة في النحو».[١٨] وفي كتيّب أبي جعفر النحاس النحوي «التفاحة في النحو» [١٩]، وقد اشتملت الرسالة كما اشتمل الكتيّب، على الموضوعات النحوية الأساسية التي يحتاج إليها المتعلم في إصلاح لسانه في كتاب إن كتبه، أو شعر إن أنشده، أو خطبة إن ألقاها، أو رسالة إن ألفها على حد تعبير خلف نفسه.

أما في العصر الحديث فكانت أول محاولة للتخفيف من المادة النحوية –فيما نعلم– هي محاولة لجنة تيسير قواعد اللغة العربية في ثلاثينيات القرن الماضي، إذ أوصت اللجنة بإلغاء الإعراب التقديري والمحلي لعدم فائدته في ضبط لفظ أو تقويم لسان، وبجعل المبتدأ والفاعل ونائب الفاعل في باب واحد أسمته «المسند إليه»، وبإلغاء الضمير المستتر جوازًا ووجوبًا.[٢٠]

ولقيت هذه المحاولة صدى في خمسينيات القرن الماضي، وذلك في مؤتمر مفتشي اللغة العربية في القاهرة عام ١٩٥٧، ورأى المؤتمرون أن الكلام العربي كله

---

(١٨) خلف بن حيان الأحمر البصري– مقدمة في النحو– طبعة مديرية إحياء التراث القديم بوزارة الثقافة السورية– دمشق ١٩٦١.

(١٩) أبو جعفر النحاس النحوي– التفاحة في النحو– تحقيق كوركيس عواد– المجمع العلمي العراقي بغداد ١٩٦٦.

(٢٠) وزارة المعارف المصرية– تقرير لجنة تيسير قواعد اللغة العربية– ١٩٣٨ ص١ (مكتبة وزارة التربية والتعليم بمصر– علوم عربية نحو رقم ٢١٦).

مكون من جمل ومكملات وأساليب، وأن لكل جملة ركنين أساسيين هما المسند والمسند إليه. وأما التكملة فهي كل لفظ يضيف إلى معنى الجملة الأساسية معنى يكمله، وأما الأساليب فهي تعبيرات خاصة نطق بها العرب على الصورة التي وصلت إلينا، نحفظها، ونقيس عليها. وفي ضوء ذلك تبوب مسائل النحو على أساس من المعاني التي تدور حولها الأساليب المختلفة، فيجمع كل ما يتعلق بالمعنى الواحد من قواعد النحو في باب واحد يسمى «أسلوبًا». وعلى هذا فأسلوب النفي مثلًا وحدة، تشتمل على النفي بالحرف وبالفعل وبالاسم، وعلى النفي في الزمن الماضي والحاضر والمستقبل، أيًّا كان الأثر الإعرابي الذي تحدثه الأدوات.[٢١]

وشقت هذه المحاولة طريقها عمليًّا إلى المناهج التربوية إبَّان الوحدة بين سورية ومصر عام ١٩٥٨، حيث استبعدت المصطلحات النحوية «الفاعل، نائب الفاعل، المبتدأ» واعتمد مصطلح «المسند إليه» مكانها، كما اعتمد مصطلح «المسند» مكان الفعل والخبر.

وكانت ثمة عودة عن هذا التطبيق بعد حدوث الانفصال بين سورية ومصر في مطلع ستينيات القرن الماضي، وعادت سورية إلى اعتماد مصطلحات «الفاعل والمبتدأ ونائب الفاعل والخبر» على النحو الذي كان سائدًا قبل الوحدة.

ولم تنقطع محاولات التيسير بعد ذلك التاريخ. ففي سبعينيات القرن الماضي أشرف اتحاد المجامع اللغوية العلمية العربية على ندوة «تيسير تعليم اللغة

(٢١) الاتجاهات الحديثة في النحو العربي (مجموعة المحاضرات التي ألقيت في مؤتمر مفتشي اللغة العربية بالمرحلة الإعدادية، يونيو ١٩٥٧ – مطبعة دار المعارف بمصر – القاهرة ١٩٥٨).

العربية» التي عُقدت في الجزائر عام ١٩٧٦، وخلصت الندوة إلى عدد من التوصيات الرامية إلى تيسير النحو، ومن هذه التوصيات:

١- الربط بين علم النحو ومفهوم الدلالات.

٢- استخلاص الشواهد والأمثلة من القرآن والحديث والنصوص الأدبية القديمة والحديثة.

٣- الاقتصار في المادة النحوية على ما يستعمله الطلاب في حياتهم ما أمكن.

٤- الإبقاء على الإعراب التقديري والمحلي دون تعليل، وتراعى قدرة الطالب عند اختيار القواعد.

٥- دراسة بعض التراكيب النحوية دراسة تحدد معانيها، وتضبط أواخرها، دون التعرض لإعرابها التفصيلي كصيغ القسم والتعجب والتحذير والإغراء والنفي والتأكيد والتفضيل وما شاكل ذلك.

٦- ترك دراسة قواعد النحو التي تستعمل في الحالات النادرة كالتنازع والاشتغال.

٧- الحرص على اعتماد المصطلحات النحوية التي عرفت من قبل كالفاعل والمفعول والمبتدأ والخبر، لأنها أكثر دلالة على معانيها مما اقتُرح من مصطلحات.

٨- اعتبار جميع علامات الإعراب أصلية دون تمييز بين أصلي وفرعي.

٩- العناية بالنطق العربي ودراسة مجملة للأصوات.

١٠- قصر محاولة التيسير على مرحلة التعليم العام.

١١- تذييل كتب النحو بمقتطفات لتدريب الطلاب على استعمال الأساليب المختلفة كأساليب التعجب والنفي والتأكيد والتفضيل.

١٢- ضم بعض القضايا الصرفية إلى القضايا النحوية حينما يكون هناك ارتباط بينها، فتدرس أوزان الفعل، وما يحدث لها عند الإسناد إلى الضمائر في باب واحد.(٢٢)

وتجدر الإشارة إلى أن مجمع اللغة العربية بدمشق كان قد تقدم بمذكرة إلى ندوة تيسير تعليم اللغة العربية في الجزائر جاء فيها «إن نحونا العربي وضع لزمان غير زماننا حين كان في وقت القوم سعة لتدارسه وإتقانه، فلم يكن يشغلهم ما يشغلنا اليوم، ولذلك حققوا ودققوا وعلّقوا حتى توصلوا إلى إقامة النحو بناءً متماسكًا قويًّا محكمًا. ولكن السير في مساربه متعذر إلا على القلة القليلة من الناس، ونحن لا نحتاج إلا إلى الشطر من قواعد ذلك النحو يأخذ بيدنا إلى قراءة النصوص قديمها، وحديثها، قراءة صحيحة تعين على فهم معناها، ولا داعي لتعلم الطلاب قواعد، لا يكادون يحتاجون إليها في قراءة النصوص قديمها وحديثها، أو تلقينهم ضوابط، يهتدون إليها بالسليقة».(٢٣)

وكانت المحاولة التي حمل لواءها الأستاذ الدكتور شوقي ضيف في ثمانينيات القرن الماضي قد لقيت اعتراضًا قويًّا في المؤتمر الذي عقدته المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض، وقد اعتمد الدكتور شوقي في محاولته ستة أسس لتجديد النحو العربي، وهذه الأسس هي:

---

(٢٢) اتحاد المجامع اللغوية العلمية العربية- سجل ندوة الجزائر ١٩٧٦- تيسير تعليم اللغة العربية - القاهرة ١٩٧٧.

(٢٣) المرجع السابق ص ١٣٧.

١- حذف من أبواب النحو ثمانية عشر بابًا، والأبواب المقترح حذفها هي: باب كان وأخواتها، باب ما ولا ولات العاملات عمل ليس، باب كاد وأخواتها، باب ظن وأخواتها، باب أعلم وأخواتها، باب التنازع، باب الاشتغال، باب الصفة المشبهة، باب اسم التفضيل، باب التعجب، باب أفعال المدح والذم، كنايات العدد، الاختصاص (ويكتفى بإعراب هذه الصيغ الست في باب التمييز)، باب التحذير- الإغراء- الترقيم-الاستغاثة- الندبة.

٢- إلغاء الإعرابين التقديري والمحلي: ويكتفى في إعراب «هذا زيد»أن يقال: هذا مبتدأ فقط وليس ثمة داع لأن يقال اسم إشارة مبني على السكون في محل رفع مبتدأ.

ودعا إلى إلغاء تقدير متعلق للظرف والجار والمجرور، وإلغاء عمل أنْ المصدرية في المضارع مقدرة أو مستترة بعد فاء السببية وواو المعية، وإلغاء العلامات الفرعية في الإعراب.

٣- الإعراب لصحة النطق: إلغاء إعراب لاسيما وبعض أدوات الاستثناء وكم الخبرية والاستفهامية وأدوات الشرط الاسمية وإلغاء إعراب أنْ المخففة من أنَّ الثقيلة وكأنْ المخففة.

٤- وضع ضوابط وتعريفات دقيقة لبعض أبواب النحو التي لم يتح لها أن تعرف تعريفًا سديدًا، على نحو ما يلاحظ في المفعول المطلق، والمفعول معه، والحال.

٥- حذف زوائد كثيرة من مثل حذف شروط اشتقاق اسم التفضيل، وشروط فعل التعجب، وقواعد اسم الآلة، وشروط صيغ التصغير وقواعده العسرة، وحذف قواعد النسب المعقدة.

٦- إضافات متنوعة من مثل بعض القواعد الضرورية لخدمة النطق السليم بكلم العربية وحروفها، وقد استعارها من علم التجويد لوقوف الناشئة على بعض صفات الحروف، والحركات، واللين فيها والتشديد، والتنوين، والمد، وألف القطع والوصل، والإدغام لبعض الحروف، والإبدال.

وأضاف مبحثًا في حروف الزيادة، وفي الممنوع من الصرف، وباب الذكر والحذف لعناصر الجملة، وباب التقديم والتأخير فيها، وأنواع الجمل...إلخ.(٢٤)

وتجدر الإشارة إلى أن دعوة كل من ندوة تيسير تعليم اللغة العربية، والدكتور شوقي ضيف في تجديد النحو، لم يكن لأي منهما اعتماد في المناهج التربوية على الصعيد العربي، وبقيت محاولات تيسير النحو العربي محدودة الأثر من قبلُ ومن بعدُ حتى إن ثمة من يرى أن «محاولات تيسير النحو العربي في كتب مدرسية لم تقدم جديدًا، ولم تفعل شيئًا يعيد إلى الدرس النحوي قوته وحيويته، لأنها لم تصحح وضعًا ولم تحدد منهجًا، ولم تأت بجديد إلا إصلاحًا في المظهر، وأناقة في الإخراج. أما القواعد فهي هي، وأما الموضوعات فكما ورثناها، حتى الأمثلة لم يصبها من التجديد إلا نصيب ضئيل». (٢٥)

ومادام الأمر على هذه الحال، وكان ثمة اضطراب وبلبلة في ميدان تدريس النحو، بين متمسك بتدريسه على النحو الذي كان يدرس عليه في العصور السابقة، وبين داع إلى التسهيل والتيسير في المادة النحوية على النحو الذي رأيناه

(٢٤) الدكتور شوقي ضيف- تجديد النحو- دار المعارف- القاهرة ١٩٨٢.

(٢٥) مهدي المخزومي- في النحو العربي- منشورات المكتبة العصرية (صيدا- بيروت) ١٩٦٤ ص٤٤.

من قبلُ، كان لابدّ لنا من إبداء وجهة نظر في المسألة المطروحة، وهذا ما نطلع عليه في السطور التالية.

رابعًا- صوى على الدرب

والآن بعد أن تعرفنا بعضًا مما جرى في ميدان التيسير، نرى أن ثمة صوى يمكن أن نستهدي بها في مجال تعليم النحو، ويمكن إيجازها فيما يلي:

١- إن القواعد النحوية ليست معضلة في حد ذاتها، إذ إن لجميع اللغات قواعدها وأصولها وأحكامها، وما العربية بنغمة نشاز في هذا المجال، وإن أبناء الأمة العربية يتعلمون القوانين، الرياضية والفيزيائية والكيميائية ويطبقونها تطبيقًا سليمًا، «وما أظنها أيسر من القواعد النحوية البسيطة للفعل والفاعل والمفعول، وقد تكون عملية حسابية في الأرباح البسيطة والمركبة أعقد من ضوابط المبتدأ والخبر، أو الإضافة، أو الاستثناء، ونجد مع هذا أن التلميذ يحل مسائل الحساب المقررة عليه، وقد يعييه بعد إتمام المرحلة الثانوية أن يقرأ جملة من فعل وفاعل، أو مبتدأ وخبر، قراءة صحيحة». [٢٦] فإذا عرفنا الطريق السليم لملاءمة المباحث النحوية لحاجات الدارسين ومطالبهم اللغوية توصلوا إلى معرفتها وتمثلها كما يتمثلون غيرها من المواد العلمية، نظرًا لتوفر الدافع والحاجات المؤدية إليه، ومهمة

(٢٦) الدكتورة عائشة عبد الرحمن «بنت الشاطئ»- لغتنا والحياة- دار المعارف بمصر- القاهرة ١٩٧١ ص١٩٦.

المعلمين تكوين هذه الدوافع واستثارتها في ضوء الحاجات. وأما التخلي عن تدريس النحو بحجة أن النحو لا يعلم اللغة فأمر مستبعد.

٢- تمثل الأهداف المرسومة لتعليم النحو في أذهان القائمين على تدريس اللغة العربية من حيث الابتعاد عن النظرة إلى القواعد النحوية على أنها غاية في حد ذاتها، وإنما هي وسيلة لصحة الأسلوب وسلامة التراكيب وتقويم القلم واللسان من الاعوجاج والزلل، ومساعدة المتعلم على فهم ما يستمع إليه وصحة القراءة، وفهمها، وصحة الكتابة، والتعبير السليم شفهيًّا كان أو كتابيًّا، وإكساب الناشئة صحة الحكم، ودقة الملاحظة، وشحذ عقولهم على التفكير المنظم، وغرس بعض المفاهيم، والعمل على تكوين الاتجاهات من خلال الأساليب والنصوص التي يتفاعلون معها، تحقيقًا لوحدة اللغة، وإسهامًا في تكوين شخصيات الناشئة.

وما دامت القواعد ليست غاية حتى تصرف الجهود لتعلم التأويلات والتقديرات والاستثناءات، فلتعلم من ثنايا القراءة والنصوص، لأن اللغة أقدم من قواعدها، وأوسع من معاجمها، وهي ظاهرة طبيعية، ونظامها على ذلك يجب أن يكون بسيطًا غير معقد، والقواعد المعقدة تدل بتعقيدها على أنها غير طبيعية، وعلى أنها لم تكن في يوم من الأيام رائدة المتحدثين باللغة، ذلك لأن التعقيد يفقد القواعد فائدتها الأولى وهي هداية المتكلم إلى الصواب، فتصبح قيودًا وعقبات يتعثر فيها المتكلمون، فتعوقهم عن الانطلاق في التعبير.

٣- إن التيسير في تعليم النحو أمر مطلوب، ويتجلى التيسير في التركيز في ضوء مضمون البند السابق على المباحث النحوية الوظيفية التي تستعمل في الحياة في أساليب الكتَّاب المعاصرين والقدماء وكانت تواتراتها عالية، وعلى المباحث التي يستعملها الناشئة أيضًا ويرتكبون أخطاء في استخدام بعض مباحثها. ومعيار الوظيفية في المباحث النحوية هو الشيوع والتواتر، فما استعمل بكثرة عُدَّ وظيفيًّا، وما ندر استعماله يترك للمتخصصين، ولا يركز عليه في مناهج التعليم العام. ويمكن الاستئناس في هذا المجال بالدراسة التي أنجزتها المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم وعنوانها «تطوير مناهج تعليم القواعد النحوية وأساليب التعبير في مراحل التعليم العام في الوطن العربي».[٢٧]

٤- وإن التيسير في طرائق تعليم النحو أمر مطلوب هو الآخر، ويتجلى ذلك في العمل على إكساب الناشئة في رياض الأطفال، والحلقة الأولى من مرحلة التعليم الأساسي، بعضَ المهارات النحوية، من خلال محاكاة القوالب اللغوية والبنى والأنماط اللغوية، من غير الدخول في المصطلحات، كالتدريب على التطابق في استعمال كل من اسم الإشارة، والاسم الموصول، والضمير، وحالات الإفراد والتثنية والجمع، والتذكير والتأنيث، والتدريب على إسناد الفعل إلى الضمائر، وعلى مواقف الاستفهام...إلخ.

(٢٧) الدكتور محمود أحمد السيد- تطوير مناهج تعليم القواعد النحوية وأساليب التعبير في مراحل التعليم العام في الوطن العربي- المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم- تونس- ١٩٨٧.

وفي الحلقة الثانية من مرحلة التعليم الأساسي يصار إلى جعل المصطلحات اللغوية النحوية التي يجهل الناشئة أسماءها مألوفة لهم، لينتقل بعد ذلك في المراحل التالية إلى محاولة فهم وظائفها والعمليات العقلية التي تعبر عنها.

٥- وإن التيسير يتطلب أيضًا الانتقال في تعليم اللغة من اللاشعور إلى الشعور، ومن اللا إدراك إلى الإدراك: وغني عن البيان أن الطفل عندما يدخل إلى المدرسة يكون لديه رصيد لغوي كان قد اكتسبه بطريق المحاكاة لمن حوله، ويستعمل الطفل الكثير من التراكيب والأنماط اللغوية بصورة لاشعورية من المحيط الذي يتفاعل معه. وفي العملية التعليمية التعلمية تكون نقطة الانطلاق من الرصيد اللغوي للطفل على أن تكون مرحلة الانتقال من اللاشعور إلى الشعور متسمة بكل الأناة والتمهل والدقة، لأن إشعار الطفل أن ما يستخدمه هو العربية الفصيحة بشيء من التعديل الطفيف يبعث في نفسه الثقة، ويؤدي إلى سرعة اكتسابه للقوالب اللغوية الجديدة.

وتجدر الإشارة إلى «أن المَعْبر بين اللاشعور إلى الشعور ومن اللا إدراك إلى الإدراك هو المستند الأول في تشكيل البنى اللغوية، والمستند الثاني هو العبور من المحسوس إلى المجرد». (٢٨)

إن الطريق الطبيعي في تعلم اللغة الأم يتمثل في رصد الصيغ والقوالب التي يتكلمها الأطفال على سجيتهم وعفويتهم من غير تكلف. ومن خلال ملاحظة

(٢٨) الدكتور محمود أحمد السيّد- شؤون لغوية- دار الفكر بدمشق- ١٩٨٨.

ذكية ومراقبة وتوجيه من المعلم يتحقق الانتقال من اللا إدراك إلى الإدراك، حيث يبين لهم دور تلك الكلمات في البنى والصيغ والوظائف العقلية التي تعبر عنها، على أن يكون هذا التبيين نابعًا من مجهودات التلاميذ أنفسهم. وعندها يكون ثمة اهتمام وشوق من قبلهم لتعرُّف أنماط لغتهم، وتراكيبها، وصيغها، وقوالبها المختلفة، ما دامت تلك القوالب والصيغ والأنماط هي نفسها التي يستخدمونها مع بعض التعديلات في بعضها دون بعضها الآخر.

وإذا ما استخدمت هذه الطريقة في تعلم اللغة الأم زالت الفجوة التي يحس بها المتعلم إبان تعلمه للغته، فيقبل على تعلمها بكل نفس راضية.

٦- ويتمثل التيسير أيضًا في الابتعاد عن التقعر والتشدد في تعليم اللغة: للمعلم دور كبير في جذب الناشئة إلى محبة اللغة أو نفورهم منها، فإذا كانت طريقته طبيعية شائقة، واختياره للمادة اللغوية ملبيًا للحاجات والميول ومستثيرًا للاهتمامات والرغبات، ويتوخى البساطة في التعبير، والوضوح في المعاني، جذب ناشئته إلى تعلم اللغة، وإذا كان يجنح إلى التقعر في استخدام الغريب من الألفاظ والصيغ والقوالب، ويأتي بالاستثناءات، ويميل إلى المماحكات والتأويلات، نفّر تلاميذه من اللغة. فلنكن - معشر المعلمين- طبيعيين في تعليم لغتنا ولنبتعد عن الشذوذ في القواعد والاستثناءات، ولنشعر أطفالنا أن اللغة التي يتكلمونها ويستخدمونها في التعبير عن حاجاتهم ومتطلباتهم واهتماماتهم إنما هي اللغة الفصيحة في أغلبها، ولنحترم تلك اللغة التي يستخدمونها كي

يقودهم هذا الاحترام إلى احترامهم أنفسهم لما سيفعلونه فيما بعد، ولنبتعد عن نظرة الازدراء لما يستخدمه التلاميذ من أساليب، لأن في ذلك تثبيطًا لعزائمهم ووأدًا لشوقهم، على أن نسبغ على تلك الأساليب طابع الفصاحة بكل رفق وأناة.

٧- التركيز في التدريبات العلاجية، وفي التمرينات التي تشتمل عليها الكتب المدرسية، على مكامن الخطأ في أساليب الناشئة، ولاسيما تلك الأساليب المتسربة إلى الفصيحة من العامية مثل: إسناد الفعل المعتل إلى الضمائر، الأمر المعتل الوسط، إفراد الفعل أمام الفاعل المثنى والجمع، تأنيث الفعل وتذكيره، الأفعال الخمسة في الرفع والنصب والجزم، إسناد الفعل إلى نون النسوة...إلخ.

ويسري هذا التركيز على الاسم الصريح إفرادًا وتثنية وجمعًا وفي حالات الرفع والنصب والجر، وذلك في المباحث التي تشتمل على الاسم الصريح مثل: الفاعل، نائب الفاعل، المبتدأ والخبر، اسم إن وخبرها، اسم كان وخبرها، المجرور بالحرف، المضاف إليه، المفعول به، الحال، النعت، البدل، التوكيد، المعطوف، الأسماء الخمسة...إلخ.

ففي مبحث المفعول به على سبيل المثال يركز على حالات الاسم الصريح، من حيث نصبه بالفتحة عندما يكون اسمًا مفردًا أو جمع تكسير، ونصبه بالكسرة بدلًا من الفتحة في حال جمع المؤنث السالم، ونصبه بالألف في حال الأسماء الخمسة، ونصبه بالياء في حالي المثنى وجمع المذكر السالم.

مراجع البحث

١- ابن خلدون- **مقدمة ابن خلدون**- دار إحياء التراث العربي- بيروت- د.ت.

٢- ابن قتيبة- **تأويل مشكل القرآن**- شرح وتحقيق السيد أحمد صقر- دار إحياء الكتب العربية- عيسى البابي الحلبي وشركاه- القاهرة ١٩٥٤.

٣- ابن مضاء القرطبي- **الرد على النحاة**- مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر- القاهرة ١٩٤٧.

٤- أبو جعفر النحاس النحوي- **التفاحة في النحو**- تحقيق كوركيس عواد- المجمع العلمي العراقي- بغداد ١٩٦٦.

٥- أحمد بن فارس- **الصاحبي في فقه اللغة وسنن العربية في كلامها**- تحقيق الدكتور مصطفى الشويمي- مؤسسة أ. بدران – بيروت ١٩٦٤.

٦- **الاتجاهات الحديثة في النحو العربي** (مجموعة المحاضرات التي ألقيت في مؤتمر مفتشي اللغة العربية بالمرحلة الإعدادية) يونيو ١٩٥٧- مطبعة دار المعارف بمصر- القاهرة ١٩٥٨.

٧- اتحاد المجامع اللغوية العلمية العربية- سجل ندوة الجزائر ١٩٧٦- **ندوة تيسير تعليم اللغة العربية**- القاهرة ١٩٧٧.

٨- أمين الخولي- **هذا النحو!**- مجلة كلية الآداب- نشر كلية الآداب بجامعة القاهرة، يوليو ١٩٤٤.

٩- خلف بن حيان الأحمر البصري- **مقدمة في النحو**- طبعة مديرية إحياء التراث القديم بوزارة الثقافة السورية- دمشق ١٩٦١.

١٠- الدكتور شوقي ضيف- **تجديد النحو**- دار المعارف- القاهرة ١٩٨٢.

١١- الدكتور طه حسين- **اللغة الفصحى وتعليم الشعب**- مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق- الجزء الأول- المجلد الثاني والثلاثون- ١٩٥٧.

١٢- الدكتورة عائشة عبد الرحمن «بنت الشاطئ»- **لغتنا والحياة**- دار المعارف بمصر- القاهرة ١٩٧١.

١٣- الدكتور عباس حسن- **اللغة والنحو بين القديم والحديث**- دار المعارف بمصر- القاهرة ١٩٦٦.

١٤- محمد سليم بركات- **نظرات في تدريس القواعد النحوية**- الدورة التدريبية للموجهين التربويين في الابتدائي- دمشق ١٩٧٥.

١٥- الدكتور مراد كامل في مقدمة كتاب- **اللغة العربية كائن حي لجرجي زيدان**- دار الهلال- القاهرة.

١٦- الدكتور محمد كامل حسين- **العربية المعاصرة**- دار المعارف بمصر- القاهرة ١٩٧٥.

١٧- الدكتور محمود أحمد السيد- **تطوير مناهج تعليم القواعد النحوية وأساليب التعبير في مراحل التعليم العام في الوطن العربي**- المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم- تونس- ١٩٨٧.

١٨- الدكتور محمود أحمد السيّد- **شؤون لغوية**- دار الفكر بدمشق- دمشق ١٩٨٩.

١٩- الدكتور محمود أحمد السيد- **في الأداء اللغوي**- وزارة الثقافة السورية- دمشق ٢٠٠٥.

٢٠- الدكتور محمود أحمد السيّد- **في طرائق تدريس اللغة العربية** – منشورات جامعة دمشق- ٢٠٠٨.

٢١- الدكتور مهدي المخزومي- **في النحو العربي**- منشورات المكتبة العصرية (صيدا- بيروت) ١٩٦٤.

٢٢- وزارة المعارف المصرية- **تقرير لجنة تيسير قواعد اللغة العربية**- القاهرة- ١٩٣٨.

اللسانيات في التراث اللغوي العربي(*)

د. لبانة مشوح(**)

يقول أبو حيان التوحيدي: «إن إعرابيًّا وقف على باب الأخفش فسمع كلام أهله في النحو، فحار وعجِب وأطرق، فقال له الأخفش: ما تسمع يا أخا العرب؟ فقال: «أراكم تتكلمون بكلامنا في كلامنا بما ليس من كلامنا.... ». واللسانيات، شأنها في ذلك شأن علوم اللغة العربية، علم قائم بذاته يتناول منطق اللغة بمنطق يدور على نفسه، ولغة اصطلاحية يلتبس في كثير من الأحيان بعضها بالبعض الآخر، لذا كانت عصيَّة على الفهم أحيانًا، لا بل إن البعض يشكِّك في أهدافها وجدواها. لكنها كسائر العلوم تبتغي الكشف عن كلِّ أبعادِ الظاهرة مادة الدرس وآلياتِ عملِها، بغية استيعابها والتمكن من تشخيص عللها وعلاجها، والسيطرة على نموها وتوجيه تطورها.

درج مؤرخو اللسانيات على تقسيم التفكير اللغوي إلى مراحل أساسية هي العصور القديمة (نظرية المصريين القدماء - ٣٠٠٠ سنة ق.م ، ونظرية الصينيين

(*) هذا البحث جزء من بحث أوسع أُلقي في ندوة اللسانيات الأولى التي نظمها مجمع اللغة العربية بدمشق في ٣٠ حزيران ٢٠١٠ وشارك فيه، إضافة لكاتبة هذا البحث، كل من الأستاذين الفاضلين الدكتور أحمد قدّور والدكتور بسّام بركة.

(**) عضو مجمع اللغة العربية بدمشق.

فالهنود - القرنين الخامس والرابع ق.م – ثم نظرية الفينيقيين والعبريين ثم الحضارتين اليونانية فالرومانية)، والعصر الوسيط (بين القرنين الرابع والرابع عشر ميلادي، وتتركز حول خصومات لغوية بين أنصار اليهودية والمسيحية)، والعصور الحديثة (منذ عصر النهضة في الغرب - القرن ١٥، وحتى القرن التاسع عشر مع ازدهار النحو المقارن) ورغم قرون ثمانية تفجرّت فيها العلوم اللغوية عند العرب فيضًا مدرارًا من المؤلفات في النحو والصرف والبلاغة، فإننا لا نجد أي ذكر للتراث اللغوي العربي عند التأريخ للسانيات، وفي هذا إجحاف كبير. و قد يكون مردّ ذلك لتلازم قضايا اللغة وقضايا المعتقد، فالعلوم اللغوية عند العرب ارتبطت ارتباطًا وثيقًا بعلوم الفِقه والتفسير، حتى غدت واحدة من ركائزها الأساسية. انتقل مشعل الحضارة الإنسانية من العرب إلى الغرب في كل ميادين المعرفة إلا في التفكير اللغوي، ولو تنبّه الغرب إلى نظرية العرب في اللغويات العامة، واستقى منها مفاهيمها الأساسية، لاختصرت اللسانيات المعاصرة المسافات ولتجنبت الكثير من العثرات والهفوات.

ونحن إذ ننظر إلى التراث اللغوي العربي على ضوء اللسانيات الحديثة، فإن هدفنا ليس بيان عظمة اللغويين العرب و تفوّقهم، بل إن غرضنا يتلخص في النقاط الآتية:

١- إبراز بعضِ ما في التراث من مفاهيم باتت من أساسيات النظريات اللسانية، التي قطعت أشواطًا بعيدة على الصعيدين النظري والمنهجي، حتى أصبحت اللسانيات تقع من العلوم الإنسانية موضع القطب، شأنها في ذلك

شأن الرياضيات من العلوم التطبيقية. ولأن اللغة التي تميز الإنسان عن سواه من المخلوقات هي مادة اللسانيات، ونظرًا لعلاقة الفكر باللغة، فقد غدت اللسانيات في صلب الدراسات التاريخية والاجتماعية والتحليل النفسي. لا بل تعدّت ذلك إلى الإحصاء والمعلوماتية والذكاء الصنعي artificial intelligence.

٢- رفد الجهود الرامية لإيجاد مقابلات عربية لفيض المصطلحات اللسانية الأجنبية الوافدة، وهي مشكلة واجهها الباحثون العرب وما زالوا، في تلقيهم وتمثّلهم لبنية هذا العلم الحديث، بغية الاستفادة الذكية من مكتسباته النظرية، ومن ثَم الانتقال إلى مرحلة الوضع والإبداع فيه.

٣- دحض زعم من زعموا أن ثمّة هوةً تفصِل علوم اللغة العربية عن اللسانيات الحديثة، مُدّعينَ أن النظرياتِ اللسانية إنما وجدت لألسنٍ أخرى لا رابط بينها وبين العربية، ومناطق لغوية لا تمتّ للمنطقِ اللغوي العربي بصلة.

يتناول هذا البحث بعض المفاهيم اللغوية التي شاعت عند القدماء، ويبين بعض ما يجمعها أو يقرّبها من مفاهيم حديثة أطلقتها اللسانيات منذ نشوئها كعلم قائم بذاته.

اللغة والعقل : كونية الظاهرة اللغوية

تميّز التفكير النظري في قضايا اللغة وخصائص الكلام في التراث الفكري العربي بصرامة الجدلِ وحِدّةِ الترابط المنطقي. وقد انتقل من دراسة لغة بعينها إلى الرؤية الشمولية للحدث اللغوي، وهو المسار نفسه الذي تطورت فيه النظريات اللسانية الحديثة. لكن هناك منحيان اثنان يلخّصان تطور اللسانيات الحديثة، لم يتكاملا في التراث اللغوي العربي. تَمَثَّل الأول في محاولة إدراك الموضوعية العلمية في دراسة اللغة

بحدِّ ذاتها وتحليل مكوّناتها الصوتية والصرفية والنحوية والمُعجمية والدلالية؛ على حين تَمَثَّل الثاني في النظر إلى اللغة كظاهرة بشرية عامة. بمعنى أن العرب درسوا خصائص لغتهم بحد ذاتها وبمعزل عن خصائص اللغة كظاهرة عامة. لقد أمعنوا النظر في لغتهم فاستنبطوا منظومتها الكلية وصنفوا فروع علومها وبوَّبوا محاور كل منها، فكان النحو بمفهومه الشامل لقواعد التراكيب وبنية الكلمات الصرفية وخصائص الأصوات والحروف. كما زاوجوا التفكيرَ في أنظمة اللغة والبحث عن الموروث البلاغي، على نحو ما فعل ابن جني في خصائصه. لكنهم فكروا أيضًا في الكلام كظاهرة لغوية كونية، عندما فلسفوا منشأ نظام اللغة وقواعدها، وهذا ما نجده لدى بعض فلاسفة العرب الذين كانت لهم آراء في اللغة، وهو ما عرِف عند اللسانيين بالمنحى الشمولي في التراث اللغوي العربي. لم يكتف القدماء بدراسة نظام اللغة العربية في حد ذاتها، بل نظروا من خلال ذلك إلى الظاهرة اللغوية عامة، لكن المنحيين لم يتكاملا، فلم ينظر إلى قواعد اللغة العربية على أنها جزء من القواعد العامة، وهو المنحى الذي نحاه العالم نعوم تشومسكي في نحوه التوليدي كما سنفصّل لاحقًا.

لقد استطاع العرب «إدراك مرتبة التفكير المجرّد في شأن الكلام باعتباره ظاهرة كونية تقتضي البحث العقلاني بغية الكشف عن نواميسها الموحّدة» (انظر المسدّي ١٩٨٦)، وأدركوا اختصاص الإنسان بالظاهرة اللغوية وتفرّدَه بعالم «النطق التام» الذي أسهب إخوان الصفا في تحليله. وها هو الجاحظ في كتابه «الحيوان» يخصّ الإنسان بالفصاحة ويرى، على غرار الفارابي، أن علاقة الإنسان باللغة «علاقة بالطبع والاقتِضاء لا بالعَرَضِ والاتفاق»، أي إن الإنسان في جوهر كينونته خُلِقَ متكلِّمًا وأن

تركيبه الطبيعي مقتضٍ للبعد اللغوي بالضرورة.[١]

فقد التقى العرب باللسانيات الحديثة في اعتبار أن للظاهرة اللغوية وارتباطِها بالإنسان بُعدين اثنين: بعدًا كونيًا لأن الحدث اللساني وجود مطلق ملازم للوجود البشري مجرّدًا عن الزمان والمكان وتنوع الألسنة واختلاف اللغات، وبعدًا بيولوجيًا يتمثل في تهيؤِ الإنسان واستعدادِهِ الخِلقي لإتمام الظاهرة اللغوية. أوَليس هذا ما اصطلح عليه ابنُ جِني بقابلية النفوس؟[٢]

بدورها انتقلت اللسانيات من الكلام عن تهيؤ الإنسان العضوي البيولوجي للغة إلى الحديث عن استعداده الفطري الفيزيولوجي – العصبي- لاكتساب اللغة وتوليدها. يعرّفُ تشومسكي اللغة بأنها ملكةٌ فطرية تُكتسب بالحدس. يستطيع الإنسان أن يتكلمَ بلغة ما إذا سمع في نشأته ما تواضع عليه محيطه اللغوي من كلام وصيغ أولية، لكن سماع تلك الصيغ ليس هو الذي يخلق لديه القدرة اللغوية، وإنما يَقْدَحُ شرارتها ويحرّضها فحسب. فدماغ الطفل مهيأٌ لتلقفِ ما يسمع من مادة لغوية من محيطه اللغوي، كما أنه مهيأ لتفكيكها وتحليلها واستنباط قواعدها وتمثُّل خصائصها الوضعية، ومن ثَـم تفسير الحدث اللغوي، قبل الانتقالِ إلى مرحلة إبداعية تقوم على توليد عدد لا متناه من الجمل وفق القواعد المستنبطة والمُتمثَّلة ذهنيًّا.

للإنسان إذن بحسب اللسانيات التوليدية «جوهر مفكّر» substance pensante يسمح له بأن يتمثّل شيئًا فشيئًا نظام قواعد اللغة التي يسمعها، وأن يدرك محتوى الكلام

(١) انظر عبد السلام المسدي، التفكير اللساني في الحضارة العربية، الطبعة الثانية، ١٩٨٦، الدار العربية للكتاب، ص ٤٨.

(٢) انظر ابن جني، الخصائص ج١- ص ١١٣ .

دلاليًّا، ثم أن يصوغ كلامه وفق هذه القواعد. وهكذا واستنادًا إلى الحدس اللغوي والقدرة الكامنة في الدماغ compétence، وبالكشف عن آلية ومبادئ هذه القدرة، يمكن للنحو أن يفسّر كيف يمكن للإنسان أن يفهم أي جملة في لغته، وأن يولّدَ جملاً صحيحة تُفْهَمُ عنه تلقائيًّا، دون أن يكون قد سبق للقائل أو السامع أن عرَفها من قبل.

خلافًا لما ألفناه في علوم اللغة العربية لم يعد إذن هدف علمِ اللغة من وجهة نظر لسانية وصفَ لغةٍ بحدِ ذاتِها ولا دراسةَ تطورِّها ولا مقارنتَها باللغات الأخرى، بل الكشف عن المبادئ والقواعد التي تخضع لها اللغة بوصفها ملكة شمولية، وتحليل المحركات والآليات الذهنية أو النفسية التي بفضلها يتمكن الإنسان من الانتقال إلى الحدث اللغوي. هكذا تسنّى للسانيات أن تلحق بالمعارف الكونية، إذ لم تعد مقترنة بإطار مكاني دون آخر، ولا بمجموعة لغوية دون أخرى، ولا حتى بلسان ما دون آخر، على عكس توجّه اللغويين العرب، بل هي اليوم علم أدرك بشموليته مرتبة العلوم الصحيحة[٣].

هذا الربط بين اللغة والعقل والإنسان إنما استلهمته النظرية التوليدية الحديثة من فلسفة ديكارت. وقد سبق ديكارت ابنُ حزم في أحكامه (الجزء الأول، ص ٣٥٩–٣٦٠)[٤] إلى ربط الوجود باللغة من طريق الفِكْر، حين جعل اللغةَ قِوامَ وجود الإنسان، فهي حُجّةٌ عليه. وهكذا فإن الكلام حجةُ العقل على الإنسان، مثلما كان العقلُ عند ديكارت حُجّةَ الإنسانِ على وجود الإنسان. وقد عبّر المسدي عن ذلك بمقولة صاغها عن ابن حزم وهي: «أنا أتكلم إذن أنا أعقِل إذن أنا موجود».

(٣) انظر عبد السلام المسدي، المرجع نفسه.

(٤) المرجع نفسه ، ص. ٥٦.

وهذا لا يتناقض في جوهره وما ذهب إليه الجرجاني، من أنه لا طريق للعقل إلى معرفة اللغات إلا بالتعليم. فالجرجاني نفسه يؤكد أن العقل متمكنٌ من تحصيلِ العلمِ بحقائق الأشياء(٥).

الاعتباط والمواضعة والقصد والعقد:

يقودنا الحديث عن علاقة العقل باللغة إلى لزوم التطرّق إلى نظرية المواضعة والاعتباطية بين الدال والمدلول. باتت هذه النظرية من المسلَّمات في النظريات اللسانية حيث نجدها تحت مسمّى «اعتباطُ العلامة اللسانية» l'arbitraire du signe linguistique(٦).

عولجت مسألة المواضعةِ في العلاقة بين الدال والمدلول بإسهاب في التراث اللغوي العربي. فالفارابي يؤكّد أن «الألفاظ» ليست تحاكي شيئًا من المعاني أصلاً، أي إن الكلمات تدلّ على ما تدلّ عليه بموجب الاصطلاح. أمّا القاضي أبو الحسن عبد الجبار (٣٢٠- ٤١٥) فيؤكد في «المغني في أبواب التوحيد والعدل» خطأ القول بالمحاكاة الطبيعية في إفرازات اللغة، ويقرّر مبدأ الاعتباطية والتواطؤِ في انتظام الكلام مبدأً أساسيًّا في الظاهرة اللسانية. ولم يكن العرب سباقين إلى نظرية الاعتباط والمواضعة، فقد سبقهم إليها ديمقراط في القرن الرابع ق.م إذ رأى أن اللغة مواضعةٌ فحسب. ويذهب الجرجاني إلى أبعدَ من القول باعتباطية العلاقة بين دَوالِّ اللغةِ ومدلولاتها، ليُعمِّم مبدأ الاعتباط الدلالي على نَظْم

(٥) الجرجاني، المفاتيح، الجزء الثاني، ص ١٧٦.

(٦) انظر كلًّا من بيرس Pierce وسوسير Saussure .

الحروف، أي تواليها في النطق، «فلو أن واضِعَ اللغة قال (رَبَضَ) بدل (ضرب) لما كان في ذلك ما يؤدّي إلى فساد»(٧). وهذا وإن عُدّ اليوم من المسلّمات، فإننا نجد ما يخالفه لدى اللساني أوتو جيسبرسن الذي تحدّث في بداية العشرينيات من القرن الماضي عن الرمزية الصوتية التي تبدو جلية في اللغة الإنكليزية. كذلك خرج اللساني المستعرب جورج بواس Georges Bohas في القرن الواحد والعشرين بنظرية مفادها أن هناك علاقةً سببيةً بين مصفوفات صوتية تتسم بخصائص محددة، ودلالات الكلمات التي تنتظم فيها تلك المصفوفات(٨). نظرية بواس هذه ليست بالجديدة كل الجدّة، إذ نجد لها أصولاً في خصائص ابن جني، ولعلّنا نفرد بحثًا كاملاً لهذا الموضوع لنعطيه حقّه من الدراسة.

أدرك القدماء من جهة أخرى أن المواضعة مرهونة – في عِلّة وجودها – بتشارك كل من المُرسِلِ والمُتلقّي في المخزون الذهني المتعلق بها. وهذا ما عناه السّكاكي بقوله إن اللغة لا تُفيد مباشرة بواسطة الوضع، وإنما بالاقتضاء الناتج عن الوضع. أي إن هناك بين المتخاطبين مواضعةً ضمنية. وها هو الغزالي يفكك عناصر التخاطب الدلالي إلى ثلاث ركائز: المتكلّم - وما نسمعه من كلامه – والمراد من الكلام. وهذا شكل بدائي لمخطط جاكوبسن لوظائف الكلام، يحتوي ستة مكونات أساسية: المُرسِل والمتلقي والرسالة والسياق ومدوّنة الترميز code والاحتكاك contact الذي يسمح باستمرار التواصل بين المتخاطبين.

(٧) عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز في علم المعاني– القاهرة ١٩٦١–ص٣٥.

(٨) جورج بواس .

وإلى جانب المواضعة، تنبّه العرب لأهمية قانون القصد الذي يحدد أجناس الخِطاب، من خبر أو أمر أو استخبار، وقد جعلت اللسانيات بدورها من المواضعة والقصد مبدأين كليِّين يشملان الظاهرة اللغوية بالمطلق(٩).

وفي التراث اللغوي العربي كما في اللسانيات، لا يكتمل الحدث اللساني إلا إذا تكامل فيه شرطا المواضعة والقصد، فإذا اختلّ أحدهما اختلّ بناء الكلام وخالف أنساقَ اللغة وشبكة المواضعة بأنواعها، مما يؤدي إلى اختلال التواصل بين المرسِلِ والمتلقي. هذا التكامل لشرطي المواضعة والقصد يعبّر عنه تشومسكي في صياغة رياضية مجرّدة بمبدأ كلّي أسماه «مبدأ التحقق» principe de vérification وهو كناية عن عملية ذهنية رياضية مجرّدة تضمن تحقق العقل أثناء عملية تشكل الجملة والتواصل اللغوي، من تكامـــل شرطي المواضعة والقصد. فإذا ما تمت علمية التحقق هذه بنجاح لدى المرسل والمتلقي على حدٍّ سواء، كان الكلام سليمًا من حيث مطابقته لقواعد اللغة وأداؤه لغرضه التعبيري التواصلي المأمول.

انتقل اللغويون العرب بعدئذ من نظريتي المواضعة والقصد إلى مقولة العَقد، ومفادها أن اللغة عَقد يربط أفراد المجموعة اللسانية الواحدة، وهو ما نجده عند سوسير الذي عرّف اللغة بأنها مؤسسة اجتماعية، وعدّها آخرون ضربًا من الاتفاق consensus بين أفراد الجماعة اللسانية.

ولقد أدرك القدامى العلاقة بين الذات واللغة والجماعة واللغة، وأن اللغة أداة تعبير كما أنها وسيلة تواصل. وفحصوا أبعاد الكلام باعتباره قيمة بين

(٩) انظر سوسير المرجع نفسه.

الإنسان والمجتمع. يبرز الغزالي البعد النفسي- الجماعي لظاهرة الكلام فيقول إن الإنسانَ بدون خطاب حبيس لذاته. ويربط التوحيدي الكلام بـ «الحاجة»، ويتحدّث الجاحظ عن الكلام كوسيلة لتعبير الفرد عن «حقائق حاجاته»، ويعزو ابن جني السلوك اللغوي إلى الوعي بضرورة سد الحاجة النفسية والاجتماعية. أما عبد القاهر الجرجاني فيرى أنه لولا الكلام «لبقيت القلوب مقفلة على ودائعها، والمعاني مسجونةً في مواضعها».وهذا يذكرنا بقول سيغموند فرويد الشهير «باللغة يتبدّى الجوهر»(١٠). أمّا أبو علي الحسن ابن رشيق القيرواني في «العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده»(١١) فيربط بين عناصر اللغة ورتبة الإنسانية، ويجعل العلاقة طردية بين رتبة الكلام ورتبة الإنسانية. كان العرب إذن سبّاقين إلى تبيان الصلة بين اللغة من جهة، والنفس والمجتمع من جهة أخرى، فكانوا بذلك روّاد اللسانيات النفسية واللسانيات الاجتماعية.

اللغة نظام متكامل قائم بذاته

وأما على صعيد الدراسة المنهجية الموضوعية للغة كنظام متكامل قائم بذاته، فقد شيّد النحاة واللغويون العرب صرحًا عظيمًا من قواعد العربية وشمَلت دراساتهم مستويات اللغة كافة، الصوتية منها والصرفية والنحوية والدلالية، وهي المكونات الأساسية الأربعة للسانيات النظرية، وبذلوا جهودًا جبارة في

(١٠) C’est par la langue que l’essentiel se révèle.

(١١) بحسب المسدّي ص ٥٥.

التقعيد والتصنيف والشروح، فاتسعت العلوم اللغوية وتنوعت إلى حدٍّ التضخم والتعقيد والتكرارِ والإبهامِ، لا بل والتناقضِ أحيانًا في بعضِ المسائل. إلاّ أن هذا لم يُفقدها أهميتَها في أعين الدارسين والباحثين اللسانيين المُحدَثين الذين لا ينفكونَ يعدّونَها المرجع الأول والأهم، الذي يعتدّ به في استقاء الأمثلة اللغوية، واستخراج المعطيات النحوية والصرفية والدلالية، لاستبانة الفصيح من المختل والصحيح من المنحول.

درس اللغويون العرب بدءًا من القرن السابع الميلادي خصائص الأصوات الفيزيائية والوظيفية على حدٍّ سواء، فتناولوا خصائص الأصوات منفردة وسماتها المميزة ، كالخليل في مقدمة كتاب «العين»، و سيبويه في كتابه، وابن جني في خصائصه وفي «سرِّ صناعة الإعراب» وابن السرّاج. كما وصفوا مكونات الجهاز الصوتي، بل إن السكاكي[١٢] رسم الجهاز الصوتي موضحًا عليه الأحرف بحسب مخارجها وطريقة نطقها، وهو رسم نجد شبيهًا له اليوم في مستهل كلِّ مؤلَّفٍ لساني حديث في الصوتيات. إن ما أنجزه العلماء العرب في مجال الدراسات الصوتية هيّأ السبيل لبلورة الصوتيات الحديثة كما صاغها فرديناند دو سوسور وتروبتسكوي وبلومفيلد، وهي علم دراسة الأصوات التي تجري في الكلام، من حيث هي حركات عضوية مقترنةٌ بنغمات صوتية. فها هو سيبويه ومن بعده ابن جني يوصّفان، بدقة متناهية ومنهجية علمية لا نجد مثيلاً لها إلا

(١٢) انظر مفتاح العلوم للسكاكي، ص. ٥.

في الدراسات الصوتية الحديثة، السماتِ المميزة للحروف. فنراهما يتناولان خاصية التغوير والاستطالة، وهي أحد عناصر التفخيم، وهو ما يقابل في الصوتيات ظاهرةَ التحليق (خروج الصوت من أسفل الحلق، كالقاف والعين). كما تناولوا مسألة إطباق بعض الحروف. يقول سيبويه في كتابه عن الأصوات المُطبَقة: «لولا الإطباق لصارت الصاد سينًا والطاء دالاً والظاء ذالاً ولخرجتِ الضادُ من الكلام» وهو بذلك يسبق علماء الصوتيات في تصنيف الأصوات وفق ما يسمى بنظرية السمات المميزة، إذ يرى أن الإطباق هو الخاصية التي تميز الصاد عن السين والطاء عن الدال والظاء عن الذال.

ولقد ورد في التراث مفهوم «المقابِلات» وهو ما يقابل نظرية «القيم الخلافية» valeurs différentielles التي تقوم على تحليل علاقات التقابل في دراسة الأصوات والتشكيلات الصوتية، أو على تحليل النظام النحوي عن طريق المقابلة بين العناصر المكونة له، أو تحليل النظام الصرفي عن طريق المقابلات بين الصيغ الصرفية. وقد أدرك الكوفيون قيمة المقابلة في إيضاح المعنى وسمَّوها «الخلاف». كما استعمل عبد القاهر الجرجاني مصطلح «الفروق» مشيرًا إلى موضوع المقابِلات بين المعنى والمعنى أو بين المبنى والمبنى(١٣).

ميّزت اللسانيات الحديثة بين الصوتيات phonétique، وما يسمى تعريبًا

(١٣) انظر د. عبد الرحمن بن حسن العارف، «في المصطلح اللغوي عند الدكتور تمام حسان»، ص ١٤٠-١٤١.

بالفونولوجيا phonologie وهو ما ترجمه البعض «علم التشكيل الصوتي»[١٤]، واصطلح آخرون على تسميته بـ «الصوتمية»[١٥]، وآثر البعض الآخر تعريبَه[١٦]. و«الصوتمية» هي علم دراسة الأصوات في وظائفها وتجاورها وارتباطاتِها، وسلوكِها في مواقعها وسياقاتِها المختلفة. وهو مفهوم لم يكن بالغريب على التراث اللغوي العربي، فكما كان العرب سبّاقين إلى الصوتيات، كانت لهم بصمتهم في الدراسات الصوتمية، إذ تنبهوا إلى أحكام تبدُّلِ خصائص الأصوات بحسب السياق الذي ترد فيه، فدرسوا الإخفاء والإظهار والقلب والإبدال والإدغام، وكلها لها ما يقابلها اليوم في الدراسات اللسانية الحديثة. . وقد شرح الأنباري[١٧] بعضَ قواعد الإبدال، كما تناولوا النبر accentuation (ابن جني، الخصائص، ٢/ ٣٧٠-٣٧١)، و«التنغيم» intonation وعرّفوه بأنه «جرْس الكلامِ وحُسْن التنغيم»[١٨]. واستعمل الفارابي مصطلح «النغَم» mélodie للدلالة على اختلاف حِدّةِ الأصوات وثقلها وامتدادها.

ولقد تنبه ابن جني إلى الطبيعة الصوتية للغة عمومًا حين عرّفها بقوله: إنها «أصوات يُعبِّر بها كلُّ قوم عن أغراضهم» (انظر الخصائص ١/ ٣٣). فدلّ بذلك

(١٤) انظر د. تمام حسّان.

(١٥) عبد السلام المسدّي، قاموس اللسانيات، ١٩٨٤.

(١٦) د. إبراهيم أنيس (الأصوات اللغوية، ص.٥) ود. كمال بشر (علم اللغة – الأصوات، ص ٢٩-٣٠).

(١٧) انظر أبو سعيد الأنباري، *أسرار العربية*، دار الأرقم، بيروت ١٩٩٩.

(١٨) ابن منظور، لسان العرب.

في آن معًا على الطبيعة الصوتية للغة و على وظيفتها الاجتماعية التواصلية والتعبيرية. وهذا يقابل جزئيًّا ما ذهب إليه اللسانيون عندما عرفوا الكلام langage بأنه «ملكة خاصة بالإنسان للتواصل والتعبير عما يدور بخلده بواسطة الصوت أو الصورة» (انظر معجم لاروس).

وفي المستوى الصرفي، تحدّث اللغويون العرب عن المعنى والمبنى اتفاقًا واختلافًا؛ وفي المستوى الدلالي تنبهوا إلى الترادف والمشترك والأضداد؛ ولم يُغفِلوا اللهجات والتصويب اللغوي، فكان مفهوم اللحن في الكلام متطورًا لديهم بإبرازهم التناظر بين ما يصح وما لا يصح، وهو تحديدًا ما نجده في المنهجية التي اتبعها التوليديون، والتي تقوم على افتراض تراكيب لا وجود لها في الواقع لبيان وجه الخطأ فيها، وهو بعض ما يؤخذ عليهم من أتباع بعض المدارس اللسانية الأخرى.

ولم يكن النحو لينفصل عند الأقدمين عن الصرف واللغة، وهو توجُّهٌ شكل أحد الركائز الأساسية للقواعد التوليدية بمختلف مراحلها، حيث يقوم تحليل الجملة على دراسة بنيتها الضمنية ثم آلية تكوّنها في المستوى التركيبي، وصولاً إلى بنيتها الظاهرة. نجد في اللسانيات الحديثة عددًا من المصطلحات والمفاهيم التي تشكل محاور أساسية للدرس اللغوي، منها على سبيل المثال لا الحصر مصطلح «الجملة». مفهومان ميزتهما اللسانيات الحديثة هما «الجملة» و«الكلام». لكن المفهومين يتساويان لدى الكثير من علماء العرب أمثال الجرجاني في القرن الخامس للهجرة والزمخشري في القرن السادس للهجرة ومن بعدهما ابن يعيش

في القرن السابع للهجرة، فقد صرّحوا جميعًا بالتسوية بين الجملة والكلام، بل إننا لا نعثر على أي أثر لمصطلح «الجملة» في كتاب سيبويه، إلا أننا نجد الكلمة في «مقتضب» المبرِّد الذي عدّ الجملة والكلام مترادفين، شأنه في ذلك شأن ابنِ سراج[١٩]. إلا أن من النحاة العرب من ميّز بين مفهومي الجملة والكلام، كرضي الدين الأستراباذي المتوفى سنة ٦٨٦ هـ. وابن هشام الأنصاري في القرن الهجري الثامن. فالكلام عند ابن هشام هو القول المفيد بالقصد، وأما الجملة فهي كنايةٌ عن الفعل والفاعل، والمبتدأ والخبر، وما كان بمنزلة أحدِهِما (انظر المرجع نفسه).

من جهة ثانية فإن سيبويه الذي يسمي الجملة «كلامًا»، ميّز بوضوح بين الكلام كخطاب يقع في مكان وزمان محددين وله وظيفة إخبارية واضحة، والكلام كبنيةٍ قابلةٍ للتحليل إلى مكوناتٍ ووحداتٍ وعناصرَ خطابية، لكل منها وظيفةٌ دلالية وإفادية. وهو تمامًا النهج الذي يتبعه اللسانيون اليوم في تمييزهم بين المنطوق أو الملفوظ énoncé والجملة phrase .

من علوم اللغة العربية إلى الفواعد التوليدية

ذكرنا أن النظام اللغوي عند العرب «أنساق وأنماط»، وهي عندهم اتفاقيةٌ تواضع عليها الأفراد، وتنتظم فيها الأصوات والكلمات والتراكيب. مفهوم «النسق»

(١٩) انظر د. مازن الوعر «جملة الشرط عند النحاة والأصوليين العرب في ضوء نظرية النحو العالمي لتشومسكي، ص ٩، لبنان ١٩٩٩، و عبد الرحمن الحاج صالح نقلاً عن الدكتور بشير إبرير،» مفهوم النص في التراث اللساني العربي، مجلة جامعة دمشق للعلوم الإنسانية – المجلد ٢٣– العدد الأول – ٢٠٠٧ .

هذا نجده في أساس الدراسات اللسانية الصوتية والمعجمية والتركيبية، لكنه توسّع ليشمل ما يسمى بالبنى النظمية الدالة على أنماط الجملة، والبنى الدلالية وهي مجموع الدلالات في لغة ما والعلاقات الوظيفية القائمة بينها وأنواع البدائل المعنوية فيها. كما أن «الأنساق اللغوية» يقابلها في الأدبيات اللسانية الحديثة مصطلح «paradigm» الذي يترجم خطّأً بـ «جدول التصريف» والأجدى بنا العودة لمصطلح «الأنساق الصرفية». وأما «الأنساق النحوية» فمفهوم شاع استعماله في عدد من المدارس اللسانية كالبنيوية تحت مصطلح word paradigm الذي يترجم عادة بـ«الجدول الكلمي»[٢٠] كما اصطلح على تسميتها بـ «الصيغ الصرفية» و«الميزان الصرفي». ثم تطور مفهوم النسق ليشكل جوهر ما يسمى في القواعد التوليدية بالركن أو المكون أو التركيب syntagme أو «الوحدة النظمية».

وضع اللغويون العرب الكلمات في أبواب، وهكذا فعلت مدرسة القواعد التوليدية التي لجأت إلى منهج أكثر تجريدية في التبويب والتصنيف هو «عِلم النَظْم المَعْلـمِي»، وهو منهج في علم النظم تقسم فيه الأبواب النحوية بحسب خصائصها وسماتها النظمية. ثم انتقل التبويب إلى مرحلة أكثر تجريدية ليشمل العناصر المعجمية والعناصر الوظيفية. فلم يعد يُكتفى بتبويب الاسم والفعل والحرف والنعت والظرف، بل تعدّاه إلى تصنيف العناصر المعجمية في وحدات تركيبية وظيفية تختص ببعض سمات هذه العناصر النحوية والصرفية والدلالية، كالوحدة الوظيفية العائدة للزمن، ووحدة صيغة الفعل، والنفي، والتعدي والابتداء أو التوكيد، إلى ما هنالك

(٢٠) انظر معجم المصطلحات اللغوية، د. رمزي منير البعلبكي، ص ٣٧٥ .

من صيغ وظيفية يُستكمل الكلام بتمثّل خصائصها.

كذلك تناول النحاة العرب بإسهاب موضوع «الإعراب والإبانة»، وميّزوا بين «الوظيفة النحوية» و«حالات الإعراب»، وهي مفاهيم أسهب التوليديون في دراستها في إطار نظرية «الحالات الإعرابية». كما ميّزوا بين الوظيفة النحوية الشكلية والوظيفة الدلالية. يقول ابن جني : (يقول النحويون إن الفاعل رفع، والمفعولَ به نصب، وقد ترى الأمر بضد ذلك. ألا ترانا نقول: «ضُرِبَ زيدٌ» فنرفعه وإن كان مفعولاً به. ونقول «إنّ زيدًا قام» فننصبه وإن كان فاعلاً . ونقول: «عجِبتُ من قيامِ زيدٍ» فنجرُّهُ وإن كان فاعلاً ؟). هذا التمييز بين الوظائف النحوية والوظائف الدلالية هو جوهر نظرية الوظائف الموضوعاتية fonctions thématiques كما أسس لها كل من غروبر Gruber و جاكندوف Jackendof ، وطوّرتها القواعد التوليدية فيما يُعرف بالنظرية الموضوعاتية[٢١] Théorie thématique.

كذلك نجد عند النحاة العرب ثلاثة أنواع من الإعراب : الإعراب الظاهر كما عند سيبويه، والإعراب المقدر كما عند الأخفش، والإعراب المعنوي الذي قال به الجرمي. وأما النظريات اللسانية الأكثر تجريدًا وتطورًا في النحو والصرف (نظرية حالات الإعراب لتشومسكي case theory)، فقد ميّزت بين نوعين من علامات الإعراب: الصرفية الظاهرة، والمجردة التي يُستدل عليها بمؤشرات نحوية وصرفية تختلف باختلاف اللغات والعناصر اللغوية وحالات الإعراب.

ميّز العرب القدماء «الموضوع» من «المحمول» في الجمل الخبرية، و«المسند» من

(٢١) انظر جاكندوف١٩٧٢ و تشومسكي١٩٨١.

«المسند إليه»، وعلى هذا تأسست قواعد Port Royal التي استوحت منها القواعد التوليدية الكثير، فأتى مفهوم الموضوع والمحمول والعلاقة بينهما جوهريًّا في أحدث صيغة لها، ألا وهي نظرية الحد الأدنى التوليدية التي لا تزال مشروعًا يُستكمل.

تميّزت مدرسة الخليل بن أحمد الفراهيدي باعتماد المنطق الرياضي في وصف اللغة، تمامًا كما هو شأن النحو التوليدي الذي استند في المقام الأول إلى نظرية ديكارت الرياضية في مقاربة اللغة وتحليل علاقاتها. وأحد أهم المفاهيم التي يقوم عليها الدرس الخليلي مفهوم الأصل والفرع، ومفهوم العامل الأصيل. ونظرية «العامل» هي محور نظرية تشومسكي التوليدية في العمل والإحالة ، والتي ضمنها عام ١٩٨١ كتابًا يحمل العنوان نفسه : محاضرات في العمل والإحالة Lectures On Government & Binding. وبعد خمسة عشر عامًا من البحث المعمّق، أُبْدِل تدريجيًّا مفهوما العاملِ والمعمول بمفهومي «الرأس» و«الفرع»، وهو ما يقابل «الأصل والفرع» في التراث اللساني العربي.

سبق اللغويون العرب تشومسكي بقرون في النظر إلى النحو على أنه العِلّةُ التي تحكم ترابط الأشياء وتماسُكَها في كلِّ مُحْكَمِ التنظيم. وهاهو الخليل (القرن العاشر الميلادي، الثالث للهجرة) يردّ على من سأله إن كان أخذ العِللَ عن العرب أو اخترعها من نفسِهِ فيقول «إن العربَ نطقت على سجيَّتِها وطِباعِها، وعرَفَتْ مواقِعَ كلامِها، وقامَ في عقولها عِلَّتُه»، وهو بذلك قد سبق بعشرة قرون اللسانياتِ الإدراكية في محاولتها الإجابة عن السؤال الكبير الذي تطرحُه اليوم، ألا وهو كيف يعمل الدماغُ البشري باللغة إدراكًا وتوليدًا.

ومن المفاهيم الأساسية التي نجدها في التراث النحوي العربي مفهوما الحذف والاستتار، وهما مفهومان استعادتهما القواعد التوليدية التحويلية، التي نحت أكثر إلى التجريد في التعامل مع مكونات الجملة، فطوّرت مفهوم الاستتار ووسّعته ليشمل ما يسمى بالعنصر الفارغ، وهو كلُّ عنصر لغوي له في الجملة محتوى دلالي ووظيفة نحوية وموقع محدد على المشجّر التتابعي، لكنه مستتر أي ليس له وجود لفظي. وهي فكرة شبيهة بفكرة الصفر التي نجدها في أنواع أخرى من التحاليل لدى أصحاب ما يسمى بالاتجاه الصفري في الدرس اللغوي الحديث، ومفاد هذا المنهج أن هناك عناصر لغوية لا تظهر على صورة مادية، الضمائر المستترة إحداها.

كما نجد في تراثنا النحوي مفهومي التقديم والتأخير، وهو ما شكّل أحد أُسُسِ النحو التوليدي الذي كان يسمى أيضًا تحويليًّا، والذي يعود لسبعينيات القرن الماضي ومفاده أن بعض التراكيب النحوية والصيغ الصرفية تنشأ نتيجة تقديمِ أو تأخيرِ بعض عناصر الجملة بما يتفق وبعض الشروط والقواعد العامة وقواعد اللغة ذات الصلة. لكن النظرية التوليدية وضعت شروطًا ومسوّغات صارمة لهذا التحويل، وقصرته مؤخرًا على التقديم دون التأخير. من هذا المنظور، لا يكون في جملة «مريضٌ زيدٌ» مبتدأٌ مؤخّر وخبر مقدّم، بل خبرٌ مقدّم ومبتدأ فحسب.

تنبّه النحاة العرب إلى ظواهر لغوية مفتاحية، وصاغوا لها قواعد أظهرت الدراسات اللسانية فيما بعد أنها قواعد شمولية تخضع لها كل اللغات. فهناك على سبيل المثال لا الحصر قاعدة مفادها أنّ الضمير لا يعود على متأخر لفظًا ومعنى، وقد وَجدت هذه القاعدة تعليلاً عند تشومسكي في إطار نظرية العمل والإحالة المشار إليها آنفًا.

ومن جهة أخرى فإن مجرد قول اللغويين العرب بالتأخّر «لفظًا» والتأخر «معنى» إنما هو دليل على أنهم كانوا أول من استشعر وجود بنيتين للغة : بنية سطحية ظاهرة ، وأخرى عميقة متضمنة. وهو ما يعرف في الدرس اللغوي اللساني الحديث بالبنية العميقة Deep structure والبنية السطحية surface structure.

ومن القواعد النحوية الهامة التي استنبطها اللغويون قاعدة تختص بموقع أسماء الاستفهام في الكلام، فقالوا: «لأسماء الاستفهام حقّ الصدارة». وبصوغهم لهذه القاعدة التي تبدو في ظاهرها وصفية، وضعوا يدهم على سِمَة لغوية عامة تتعدى العربية لتشمل سائر اللغات. وأعني بها السمة التي يرى التوليديون في منهجهم التجريدي الشمولي أنها تسِم كل المقيدات من أسماء استفهامٍ وأسماء موصولة وأدوات شرط وحروف مشبهة بالفعل. وقد أدرج التوليديون هذه العناصر اللغوية ضمن فئة خاصة أطلقوا عليها اسم «المتممات» complementizer. وهذا يقابل ما يذهب إليه النحاة عند الحديث عن «ما» و «إنّ» وأسماء الاستفهام التي لها حق الصدارة.

يقودنا هذا إلى ما يشكل صلب النحو التوليدي المعاصر، أي نظرية «السمات المميزة» التي مفادها أن مستقرَّ الكلمة في الجملة رهن بطبيعة السمات التي تميزها، أي بخصائصها المعجمية والوظيفية (الصرفية والدلالية والبلاغية). وقد تسمح هذه النظرية بحل مسائل لغوية احتلت في الدرس النحوي التقليدي موقعًا هامًّا، منها على سبيل المثال لا الحصر: مسائل عدم جواز أن يعمل ما بعد إنّ وما النافية وكم فيما قبلَها. و ما أحوج البحث اللساني اليوم إلى التأمّل في هذه الخاصية، ودراستِها دراسة عميقة شمولية، وربما ربطِها بموقع صدارة إنَّ وما النافية وكم، وعلاقتِها بما سواها

وما يتبعُها من مكونات الكلام.

اتبع النحاة العرب في تحليلهم للتراكيب التي يتعدى الفعل فيها إلى مفعولين أو ثلاثة مفاعيل، نهجًا يدعو، على بساطته، للإعجاب، إذ أثبتت الدراسات اللسانية الحديثة صِحّتَه. فضلاً عن أنه أتاح للسانيين فهمًا أفضل لهذا النوع من التراكيب في لغات أخرى غريبة عن اللغة العربية كاللغتين الفرنسية والإنجليزية. يقوم هذا التحليل على اعتبار المفعول الأول لأفعال القلوب بمثابة المبتدأ، والمفعول الثاني في حكم الخبر، وعلى اعتبار المفعول الأول لفعل من باب «أعطى» و «أفهم» و«كتّب» في حكم الفاعل ومفعوله الثاني في حكم المفعول، وهو تحليل يلتقي في اللسانيات التوليدية لصياغة ما يسمى بنظرية «الجملة الصغرى» Small Clause التي سمحت بإيجاد تفسير منطقي متكامل لمسائل شديدة التنوع والتعقيد ذات صلة بالخصائص النحوية والصرفية لتراكيب التعدي الثنائي والثلاثي في لغات كالفرنسية والإنجليزية مما استعصى في الماضي على فهم الدارسين.

وعلى صعيد علم الدلالة، عرض أبو الفتح عثمان بن جني لموضوع في غاية الأهمية يتصل بدراسة المعنى، ألا وهو «السياق» وهو ما يطلق عليه المحدثون «سياق الحال». وما لبث علم الدلالة أن طور هذا المفهوم وفصّله ليغدو عند اللساني الإنكليزي فيرث Firth مؤسس مدرسة لندن اللسانية «سياق الموقف» و«السياق الاجتماعي»، وهو ما سمّاه علماء اللغة العرب من البلاغيين بـ «المقام». وورد عند ابن خلدون باسم «بساط الحال». وقد سبق ابنُ جني فيرث حين قال بأن المعاني قد لا يُتوصّلُ إليها إلاّ بالظروف التي أحاطت بها، وهو ما خَلَصَ إليه علم الدلالة من أن

استنباط المعنى لا يتم إلا باستكمال إدراك مجمل ما يحيط بالكلام[٢٢]. سياق الحال إذن هو مجموعة الظروف التي تحيط بالكلام، ومجمل القرائن التي تسبغ على الكلام خصوصيتَه وتُكسِبه دلالةً خاصة. وهو ما فصَّل فيه فيرث حين أشار إلى أن لكل إنسان واقعًا اجتماعيًّا وتكوينًا ثقافيًّا ونفسيًّا يصبغ شخصية المتكلم والسامع على حدٍّ سواء بصبغة خاصة، وهذا الأمر ينعكس على السلوك اللغوي، وهو مادة اللسانيات الاجتماعية واللسانيات النفسية.

الخاتمة:

لم يخل الدرس النحوي العربي على عظمته من بعض مواطن الخلل. فقد اتخذ النحاة العرب الشعرَ أحدَ أهمِ المصادر لاستقاء قواعد اللغة وتفريعاتها، بيد أنه من غير الممكن من منظور لساني التقعيد والقياس على الشواهِدِ الشعرية، فالشعر بعيدٌ عن اللغة العفوية التي هي مادة البحث اللساني. فضلاً عن أنه محكوم بالوزن والقافية مما يجعله يتجاوز أحيانًا القواعد النحوية، وهو ما يتجلى في قول النحاة إنه شاذ أو ضرورة، ولذا فهو من وُجهة نظر لسانية بحتة لا يُقاس عليه.

ما سبق يدفع البعض إلى افتراض أن لسانيِّي القرن العشرين الذين أسسوا لهذا العلم لا بُدّ وأن يكونوا قد اطلعوا على نتاج هذا الفكر اللغوي العظيم فبنوا عليه. في الحقيقة لا شيء يثبت ذلك، وما وقعنا عليه من نقاط تقارب وتشابه إنْ دلَّ على شيء فإنما يدلّ على أن الفكر الإنساني العلمي يتقاطع ليلتقي عند الحقيقة، بغض النظر عن الزمان والمكان واللغةِ مادة الدرس.

---

(٢٢) انظر ابن جني: الخصائص، ١/ ٢٤٨.

وبعد، فقد تناولت في هذا البحث شذَرات من التراث اللغوي العربي في ضوء اللسانيات الحديثة، ليس إحياءً لهذا التراث العظيم، فهو أثر باق على صروف الدهر، ولا بغرض تضخيم قيمته الإبداعية بالمغالاة في الاستنباط والتأويل، ولا لإسقاط مفاهيم لسانية دخيلة عليه، بل تأكيدًا لقيمته العلمية وتقليصًا للهوة التي يرى البعض أنها تفصِله عن العلوم اللسانية الحديثة، وتأكيدًا لأهمية الإفادة من النظريات اللسانية الحديثة في إعادة قراءة تراثنا اللغوي، للوصول إلى فهم أفضل للغتنا العربية العتيدة، والتعمقِ في قواعدها الناظمة. إذ من غير الممكن تطوير الدراسات اللغوية باستعمال أدوات قديمة، على أهميتها المَنهجية والتاريخية.

المصادر والمراجع

- إبرير (بشير)، «**مفهوم النص في التراث اللساني العربي**»، مجلة جامعة دمشق للعلوم الإنسانية- المجلد ٢٣- العدد الأول- ٢٠٠٧ .
- ابن جني (أبو الفتح عثمان)، **الخصائص، تحقيق محمد علي النجار**- الطبعة الثانية- دار الهدى للطباعة والنشر- بيروت.
- ابن منظور (أبو الفضل جمال الدين)، **لسان العرب**- بيروت ١٩٦٨ .
- الحاج صالح (عبد الرحمن)، «**الجملة في كتاب سيبويه**»، مجلة المبرز، العدد ٢، الجزائر ١٩٩٣ .
- الأنباري (أبو سعيد)، **أسرار العربية**، دار الأرقم، بيروت ١٩٩٩ .
- أنيس (إبراهيم)، **الأصوات اللغوية**- مكتبة أهل التأويل العامة- القاهرة.
- البعلبكي (رمزي منير)، **معجم المصطلحات اللغوية**، ص ٣٧٥ .
- الجرجاني (عبد القاهر)، **دلائل الإعجاز في علم المعاني**- القاهرة ١٩٦١ .
- حسّان (تمّام)، الدالي (محمد أحمد)، «**مسائل في علم العربية والتفسير**»، مجلة جامعة دمشق للآداب والعلوم الإنسانية والتربوية، المجلد ١٤- العدد الرابع- ١٩٩٨ .
- السكاكي (أبو جعفر محمد بن علي)، **مفتاح العلوم**- الطبعة الأولى- القاهرة – ١٩٣٧ .

- سيبويه (عمرو بن عثمان بن قنبر)، **الكتاب**- تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون- علم الكتاب - بيروت .
- صاري (محمد)، «**المفاهيم الأساسية للنظرية الخليلية الحديثة**»، «اللسانيات» (ص٧-٢٨)، الجزائر ٢٠٠٥.
- العارف (عبد الرحمن بن حسن)، «**في المصطلح اللغوي عند الدكتور تمام حسّان**».
- المسدّي (عبد السلام)، **قاموس اللسانيات**، ١٩٨٤ .
- المسدّي (عبد السلام)، **التفكير اللساني في الحضارة العربية**، الدار العربية للكتاب، الطبعة الثانية (١٩٨٦).
- الوعر (مازن)، «**جملة الشرط عند النحاة والأصوليين العرب في ضوء نظرية النحو العالمي لتشومسكي**» ، لبنان ١٩٩٩ .

فهرس المراجع الأجنبية:

Matrices, étymons, racines: éléments d'une théorie Boas, G. (١٩٩٧), books. google.comlexicologique du vocabulaire arabe
Chomsky, N. (١٩٨١), Lectures On Government& Binding, Foris publications, Dordrecht- Holland.
Firth, A., & Johannes Wagner (١٩٩٧), "On Discourse, communication and (some) fundamental concepts in SLA Research", in The Modern Language Journal, Vol. ٨١, No. ٣.
Haj-Salah, A. (٢٠٠٥), « Recherche Linguistique et Interférences de Substrats», Al-LISĀNiYYĀT, N°١٠, Algérie. (Paru dans « Les journées d'information sur les relations entre la langue arabe et la langue française » tenues à Sassenage en ١٩٧٤).
Jackendoff, R. (١٩٧٢), Semantic interpretation in Generative Grammar, MIT.
Jakobson, R. (١٩٧٣), Essai de linguistique générale, Paris, Minuit, ١٩٦٣ .
Martinet, A. (١٩٦٧), Eléments de Linguistique générale, Paris.
Wohorf, B.L. (١٩٥٨), Language, thought and reality, New York.

أصوات اللغة عند سيبويه
مراجعة وتفسير

د. أحمد محمد قدور(*)

١ - تمهيد

يعرض هذا البحث للدرس الصوتي عند سيبويه (ت١٨٠هـ)، في باب الإدغام ضمن باب فرعي قدّم فيه المبادئ الرئيسة للدرس النظري للأصوات(١). أما ما عدا ذلك من أبواب ومسائل فيها درس نظري أو تطبيقي

(*) عضو مجمع اللغة العربية بدمشق.

(١) انظر: الكتاب لسيبويه، تحقيق عبدالسلام هارون، عالم الكتب، بيروت. ويقع باب الإدغام كاملًا بين الصفحة (٤٣١)، والصفحة (٤٨٥) من الجزء الرابع. ويضمّ هذا الباب أبوابًا فرعية، أولها الباب الذي خصّصه للدرس النظري، وهو «باب عدد الحروف العربية، ومخارجها، ومهموسها ومجهورها، وأحوال مجهورها ومهموسها، واختلافها». ثم يعرض ثانيها، والأبواب الفرعية اللاحقة، وهي ستة أبواب لشرح أحوال الإدغام تطبيقًا. وقارن بطبعة بولاق (سنة ١٣١٧هـ)، ٢/ ٤٠٤- ٤٣٠.

فسيأخذ مكانه من هذا البحث كلّما اقتضت الحاجة ذلك. وقد ذكر سيبويه لأجل فهم الإدغام مايحتاج إليه من تعيين حروف العربية، وبيان مخارجها، وشرح مجهورها ومهموسها، وما يستكمل به درسها من الصفات. ومع أن هذا الباب الفرعي لايمتدّ إلا على خمس صفحات ونصف، فإنه ضمّ مسائل رئيسة من مسائل الدراسة الصوتية التي أثرت في الدراسات اللاحقة، وكشفت عن أفكار عميقة وآراء مبتكرة.

وقد عرض لدرس سيبويه الصوتي خلقٌ كثرٌ من الدارسين المحدثين عربًا ومستشرقين على اختلاف وجهاتهم ومنطلقات درسهم، ممّن سنعرض لبعضهم لاحقًا. غير أن المجال مايزال قابلًا لإعادة النظر، وتفسير الغامض، وتوجيه ما اختُلف فيه توجيهًا جديدًا. على أنه يمكن للدارس أن يمرّ ببعض ماأورده سيبويه مرورًا سريعًا لوضوحه وعدم الاختلاف فيه، نحو عدد حروف العربية، والحروف الفرعية المستحسنة، وغير المستحسنة، والإطباق والانفتاح، والشدّة والرخاوة. لكنه مدعوّ إلى التدقيق في ترتيبه للمخارج، وجمعه الصحاح والعلل، أي «الصوامت والصوائت» على صعيد واحد، وحديثه عن الضاد الضعيفة، وعدم وضوح درسه للتوسّط بين الشديد والرخو. أما مفهومه للجهر والهمس فهو لبّ المسائل المختلَف فيها على امتداد العصور قديمًا وحديثًا.

ويغلب على الظنّ أنّ سيبويه بحسب النصوص الواردة في كتابه، هو أول من قدّم تعريفًا اصطلاحيًّا للجهر والهمس، ووظّف ذلك في باب الإدغام توظيفًا يدلّ على استيعاب وتمكّن. وليس بعيدًا أن يكون قد أخذ ذلك من شيخه

الخليل بن أحمد الفراهيدي (ت ١٧٥هـ) – وكتابه أصلًا ألّف في علم الخليل – إذ يؤنس بذلك وجود إشارات إلى الخليل وتلاميذه في بعض النصوص[٢]. ويقود هذا إلى مسألة مهمّة طرأت أخيرًا، وهي تأكد أصالة الدرس الصوتي لدى الخليل بعد شكوك رُمي بها كتابه «العين» عامة، وشكوك أخرى رمي بها درسه الصوتي خاصة[٣].

وليس لدى القدامى إضافات جدّية إلى ما ذكره سيبويه في تضاعيف درسه، وهو جملةً رأيه ورأي شيوخه[٤]. بل إنّ معظم هؤلاء اقتنعوا بتكرار عبارات

(٢) انظر ما نقله إبراهيم أنيس عن شرح السيرافي لكتاب سيبويه، في كتابه: الأصوات اللغوية، ط. رابعة، الأنجلو المصرية بالقاهرة ١٩٧١، ص١٢١–١٢٢. وانظر ما نقله غانم قدوري الحمد عن معاني القرآن وإعرابه للزجاج، في كتابه: الدراسات الصوتية عند علماء التجويد، مطبعة الخلود ببغداد ١٩٨٦، ص ١٢٨– ١٢٩.

(٣) انظر كتابي: أصالة علم الأصوات عند الخليل من خلال مقدمة كتاب العين، ط. ثانية، دار الفكر بدمشق ٢٠٠٣. وتتلخص المسألة في اتجاهين: قديم يشكّك في نسبة كتاب العين إلى الخليل لأسباب تتعلق بطريقة وصوله إلى العراق، وما يضمّه من أشياء منسوبة إلى زمن تأخر عن الخليل، أو ورود آراء لايصحّ نقلها عن شيوخ البصرة. واتجاه حديث يزعم أنّ آراء الخليل عامة ليست له، إنما قبسها من الهنود وغيرهم. وهذا ما لم يثبت بحال. وقد انتهيت في كتابي السابق الذكر إلى أن الدرس الصوتي عند العرب هو للخليل أصالة، وأن ما اعترى كتابه من خلل في بعض المواضع لايقدح في أنه للخليل، ولا سيما تلك النصوص المؤكدة كالمقدمة التي صدّر بها كتابه والتي وثقها معظم القدامى، وأخذوا منها، أو اقتبسوا معظم ماورد فيها. وانظر بعض الاستنتاجات الخاطئة لدى إبراهيم أنيس في كتابه الأصوات اللغوية، ص١١٢.

(٤) انظر ما جاء في كتاب المزهر للسيوطي، البابي الحلبي بمصر، ١/ ٨٥ من أن سيبويه حامل علم الخليل، وأوثق الناس في الحكاية عنه، ولم يكن ليُخالفَ قوله، ولا ليناقض مذهبه. وانظر تمام حسان في كتابه: اللغة العربية معناها ومبناها، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط. ثانية، القاهرة ١٩٧٩، ص٥١، حيث ذكر أن ترتيب سيبويه للمخارج هو ترتيب شيوخه كذلك.

سيبويه نفسها من دون تغيير ما. ويؤكد هذا أنّ سيبويه أتمّ مواضيع الدرس الصوتي المناسب للعربية من جهة، وأنّ الذين جاؤوا من بعده لم يجدوا مايعدّ خطأ في درسه من جهة أخرى. لكنّ كلام سيبويه لم يكن كلُّه مفهومًا، إذ اعترى الكثير منه غموض لم تفلح الشروح اللاحقة في إزالته.

أما المحدثون فقد عرضوا لدرس سيبويه الصوتي كالدكتور إبراهيم أنيس والدكتور تمام حسان والدكتور عبدالصبور شاهين والدكتور غانم قدوري الحمد وغيرهم. كما عرض له عدد من المستشرقين كأرتور شاده وهنري فليش وجان كانتينو، وبعض مؤرخي اللسانيات من الأجانب. وقد أُثيرت في هذا التناول الحديث مسائل مهمّة، أبرزها محاولات فهم الجهر والهمس وصوت الصّدر، وبيان قرب ذلك أو بعده من الدرس الصوتي الحديث، ولا سيّما بعد تطوّر وسائل التشريح وفيزياء الصوت والتصوير التلفزي لجهاز النطق وآلياته الدقيقة. وقد انتهى بحثنا هذا إلى أنّ مفهوم الجهر والهمس لدى سيبويه ليس مرتبطًا حتمًا باهتزاز الوترين الصوتيين، كما فهم ذلك عدد من الباحثين المحدثين، وأنه يعبّر عن أثر سمعي لقوّة التصويت في الفراغات الرنانة في الحلق والفم والخياشيم. وإذا صحّ ما انتهينا إليه كان سبقًا يكشف مفهوم سيبويه للجهر والهمس، بعد تأخير مديد، ربّما كان سببه أسلوب سيبويه وعدم وضوح عباراته من جهة، والاختلاف حول مفهوم الجهر لدى المحدثين، وعدم التوصّل إلى معايير شاملة للجهر على المستويين النطقي والسمعي من جهة أخرى.

إنّ من حقّ سيبويه علينا أن نعود إلى درسه بالفحص والتفسير كلّما جدّ جديد في علوم اللغة وتطبيقاتها التقنية، لأن هذه العلوم تكشف لنا غوامض هذا

الدرس، وتبرهن للدارسين أن ما أنجزه سيبويه في تلك الصفحات القليلة يعدّ أثرًا علميًّا فذًّا قلّ نظيره في تاريخ اللسانيات. ومن واجبنا العلمي الخالص أن ندفع تلك الآراء السطحية التي زعمت أن سيبويه فهم النحو والصرف، لكنه لم يفهم الأصوات. إنّ شروحه في باب الإدغام تؤكد فهمه العميق، وتَقَدُّمه على كلّ من عرض لذلك من القدامى الذين كانوا عيالًا عليه.

٢- المسائل الصوتية

عرض سيبويه لأبرز ماتهتمّ به الدراسات الصوتية مشيرًا إلى أهمية المشافهة في تبيّن الأصوات تبيّنًا صحيحًا. وهذا نحو من التنبّه إلى الطبيعة الشفهية لِلغة(٥). وهي حقًّا طبيعة واضحة المعالم في درسنا، لأنّ القرآن الكريم والشعر العربي وضروب الفنّ النثري والقصّ ونحوه تُتلى وتُقرأ وتُنقل مشافهة قبل أيّ تدوين. ويتفق هذا مع أسس التحليل اللغوي التي تنطلق من كون اللغات تتصف بكونها كلامًا منطوقًا يتداول مشافهة. لذلك وجب الاهتمام بالأصوات المنطوقة قبل الحروف المكتوبة(٦).

ثم ذكر أن أصل حروف العربية تسعة وعشرون حرفًا عدّدها بالنظر إلى مخارجها، لا إلى صورها الخطية الألفبائية، أو قيمها العددية التي تنطوي في الترتيب الأبجدي. ويدلّ هذا على اتجاه نحو الطبيعة الصوتية للحروف. والحروف عند سيبويه وغيره من القدامى تدلّ بحسب سياقها على المنطوق أو

(٥) انظر: الكتاب، ٤/ ٤٣٢.

(٦) انظر كتابي، أصالة علم الأصوات عند الخليل (مرجع سابق)، ص٢٣-٢٤.

المكتوب[٧]. لكنه أشار إلى شيء جديد هنا هو الحروف الفرعية. وينبغي أن نقرّر أن عدد الحروف لدى سيبويه هو الشائع في المصادر القديمة وعليه المعوّل، مع اختلافات يسيرة لم تجد سبيلها إلى الشيوع[٨].

وأورد سيبويه مادعاه بالحروف الفروع، لأن أصلها من التسعة والعشرين السابقة، وهي كثيرة وتستحسن في قراءة القرآن والأشعار. والغالب أنها كثيرة الاستعمال لا العدد، لأنه حصرها في ستة فروع عدّها فصيحة. ويبدو أن معظمها مستفاد أصلًا من كتب القراءات القرآنية التي دوّنت الوجوه القِرائية المتعدّدة، والمنقولة من المصطفى ﷺ. أما ورودها في الأشعار الفصيحة فطبيعي، إذ نزل القرآن الكريم بلسان عربي مبين عماده التعبير الأدبي ولا سيما في الشعر ديوان العرب. وقد نصّ مكي القيسي صاحب كتاب الرعاية على أن خمسة من هذه الفروع ترد في قراءات القرآن الكريم، أما السادس منها وهو الشين التي

(٧) انظر حول مفهوم الحرف بحث «ظاهرة الحرف عند اللغويين العرب القدماء» لمحمد لطفي الزليطني، مجلة المعجمية العربية، تونس، العدد الثاني ١٩٨٦، ص٤٧ وما تليها.

(٨) انظر: ابن جني: سرّ صناعة الإعراب، تحقيق حسن هنداوي، ط. دار القلم بدمشق ١٩٨٥، ١/ ٤٥– ٤٦، وفيه: «فهذا هو ترتيب الحروف على مذاقها وتصعّدها، وهو الصحيح، فأمر(كذا والصواب: فأما) ترتيبها في كتاب العين ففيه خطل واضطراب ومخالفة لما قدّمناه آنفًا مما رتبه سيبويه، وتلاه أصحابه عليه، وهو الصواب الذي يشهد التأمل له بصحته». وانظر: الكتاب لسيبويه، ٤/ ٤٣١، وقارن بمكي بن أبي طالب القيسي، الرعاية لتجويد القراءة وتحقيق لفظ التلاوة، تحقيق أحمد حسن فرحات، ط. دار المعارف بدمشق ١٩٧٣، ص٧٢ وما يليها.

كالجيم فلا يرد في هذه القراءات[٩]. كذلك أورد سيبويه ثمانية فروع وصفها بغير المستحسنة ولا الكثيرة في لغة من ترتضى عربيته، ولا ترد في قراءة القرآن ولا في الشعر. وقد وصفها ابن جني بأنها لا تكاد توجد إلا في لغة ضعيفة مرذولة غير متقبلة. أما مكّي القيسي فقد وصفها بالقلة والشذوذ[١٠]. ومع أن سيبويه لم يذكر مصدر هذه الفروع «الرديئة»، فإننا نظنّ أن بعضها انحدر إلى العربية من آثار التعريب، وأن بعضها لم يفارق طبيعته اللهجية الضّيقة فبقي بعيدًا عن الفصيح[١١].

ثم وصف سيبويه الضاد الضعيفة وصفًا غامضًا حيّر الدارسين فذهبوا في تفسيرها مذاهب شتّى. وأقرب ما يمكن أن يوافق وصف سيبويه هو ما ذكره

(٩) انظر: مكي، كتاب الرعاية (مرجع سابق) ص٨٨. والفروع الخمسة هي النون الخفية أو الخفيفة، والهمزة التي بين بين، والألف التي تمال إمالة شديدة، والصاد التي كالزاي، وألف التفخيم بلغة أهل الحجاز.

(١٠) انظر: ابن جني، سرّ صناعة الإعراب، ١/ ٤٦، ومكي، كتاب الرعاية، ص٨٨-٨٩.

(١١) انظر: الخضر اليزدي، شرح شافية ابن الحاجب، تحقيق حسن أحمد العثمان، مؤسسة الريان، بيروت ٢٠٠٨، ٢/ ٩٩٨. وجاء فيه تعليقًا على هذه الفروع المستقبحة – كما يقول – أنها إنما نشأت هذه المستهجنات بمخالطة العرب غيرَهم، ومن الجائز أن يكون من مقتضيات تغيّر الزمان. ومنها ما هو لغة عوام أهل البادية.. . وهذه الفروع هي – كما أوردها سيبويه-: الكاف التي بين الجيم والكاف، والجيم التي كالكاف، والجيم التي كالشين، والضاد الضعيفة، والصاد التي كالسين، والطاء التي كالتاء، والظاء التي كالثاء، والباء التي كالفاء. انظر: الكتاب، ٤/ ٤٣٢، وانظر تمام حسان، اللغة العربية معناها ومبناها، ص٥٤.

السيرافي من أن هذه الضاد الضعيفة كانت تنطق كالظاء، أو بين الضاد والظاء[١٢]. ويشار هنا إلى أن جان كانتينو تتبع استعمالات متعدّدة للضاد في لهجات عربية مختلفة. وذكر في هذا الصدد أنها تنطق كالظاء – أي كالضاد الضعيفة– أو تنطق ظاءً خالصة، أو دالًا مفخمة، أو طاء، أو زايًا، أو ذالًا، أو لامًا[١٣].

ووقف سيبويه بعد ذلك على وصف دقيق لمخارج الحروف العربية، وجعل لها ستة عشر مخرجًا مبتدئًا من أدنى الحلق. ويبدو أنه يسلك مسلك شيخه الخليل الذي نظر إلى الحروف كلّها وذاقها (أي جرّب نطقها)، فوجد مخرج الكلام كلّه من الحلق، فصيّر أولاها بالابتداء أدخل حرف منها في الحلق[١٤]. وعلى هذا النحو جرى جمهور القدامى لاعتبار الصوت المنبعث من الصدر الأساسَ في ترتيب المخارج مبتدئين بما يلي الصدر. وذكر شارح المقدمة الجزرية زكريا الأنصاري (ت٩٢٦هـ) أن الأَولى أن يكون أولُ المخارج هو الشفتين، ثم اللسان وما يليه، ثم الحلق فالصدر. لكنه وافق الناظم ابن الجزري (ت٨٣٣هـ)

(١٢) انظر: جان كانتينو، دروس في علم أصوات العربية، ترجمة صالح القرمادي، نشر الجامعة التونسية ١٩٦٦، ص٨٦. وانظر: رمضان عبدالتواب، المدخل إلى علم اللغة، الخانجي بالقاهرة، ط. ثانية ١٩٨٥، ص٦٢– ٧٤.

(١٣) انظر: كانتينو (مرجع سابق)، ص٨٥– ٨٧.

(١٤) انظر: الخليل، كتاب العين، تحقيق مهدي المخزومي وإبراهيم السامرائي، دار الهجرة، ط. إيران ١٤٠٥هـ، ١/ ٤٧.

الذي جرى مجرى المتقدّمين في ترتيبهم المشهور(١٥). ويشير وصف المخارج عند سيبويه إلى معرفة دقيقة بأعضاء النطق، إذ ذكر الحلق وقسّمه إلى ثلاثة أجزاء متتالية، وذكر اللسان، وحدّد أجزاءه، كأقصاه، وطرفه، ووسطه، وحافته، وأول حافته، ومنتهى طرفه، وظهره، وحروفه. وذكر الحنك الأعلى، ووسطه. وذكر الأسنان تفصيلًا كالأضراس، والضاحك والناب والرباعية والثنايا وفويق الثنايا وأصولها وأطرافها والثنايا العلى. وذكر الشفتين وباطن الشفة السفلى. كما ذكر الخياشيم ونسب إليها مخرجًا مستقلًّا. ومع أن سيبويه اقتصد في رصد آليات النطق – على عادة اللغويين– فقد أظهر تدقيقًا لافتًا في تعيين المخارج، وتحديد مناطق النطق، وتنظيم ذلك تنظيمًا مكتملًا. لكن فاتته معرفة الوترين الصوتيين فضلًا عن عدم ذكره الحَنْجرة التي تعادل عنده أقصى الحلق. وليس هذا بمستغرب، إذ لم يعرف القدامى، من مختلف الأعراق، الوترين الصوتيين. وربما كان هولدر (W. Holder) أول من وصف عمل الحنجرة أثناء الجهر، وردّه إلى انقباض جانبيّ الحنجرة ومرور النفس في فتحة المزمار(١٦).

(١٥) انظر: زكريا الأنصاري، الدقائق المحكمة في شرح المقدمة الجزرية، تحقيق نسيب نشاوي، دار المكتبي بدمشق ١٩٩٥، ص٤٢.

(١٦) انظر: روبنز، موجز تاريخ علم اللغة في الغرب، ترجمة أحمد عوض، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، رقم (٢٢٧)، تشرين الثاني ١٩٩٧، ص٢٠٠– ٢٠١، وانظر: جورج مونان، تاريخ علم اللغة منذ نشأتها حتى القرن العشرين، ترجمة بدر الدين القاسم، جامعة حلب ١٩٨٢، ص٢٠٨، وقارن بـ بوردن وهاريس، أساسيات علم الكلام، ترجمة محيي الدين حميدي، دار الشرق العربي، حلب (د.ت)، ص٤٠١.

وقد علّق كانتينو على ترتيب سيبويه واصفًا إياه بأنه «ترتيب صحيح بصفة جليلة ملحوظة وموافق لترتيبنا نحن»[١٧]. لكن تجدر الإشارة إلى أنّ بعض علماء التجويد جعلوا المخارج سبعة عشر مخرجًا، إذ أفردوا للحروف الجوف (الصوائت الطويلة) مخرجًا مقدّرًا جعلوه يتصدّر الترتيب[١٨]. على أنّ بعض القدامى كقطرب (ت٢٠٦هـ) والفراء (ت٢٠٧هـ) والجرمي (ت٢٢٥هـ) وابن كيسان (ت٢٩٩هـ) ذهبوا إلى أن مخارج الحروف هي أربعة عشر مخرجًا، فجعلوا اللام والراء والنون من مخرج واحد، وهو طرف اللسان[١٩]. لكنّ الدرس الحديث لمخارج الأصوات العربية أجرى تعديلًا لترتيب المخارج عند سيبويه صيّرها عشرة مخارج بعد أن كانت ستة عشر مخرجًا. فقد ألغى مخرج الخيشوم، لأن النون المخفاة فرع (ألفون سياقي Allophone) للنون التي هي (فونيم Phonème)، أي وحدة صوتية مستقلة. وجمع مخارج اللام والنون والراء في

(١٧) انظر: كانتينو، (مرجع سابق)، ص٣٢، وقارن بما قاله برجشتراسر في كتابه التطور النحوي للغة العربية، تصحيح رمضان عبد التواب، الخانجي بالقاهرة، ودار الرفاعي بالرياض ١٩٨٢، ص١٣. وانظر ترتيب المخارج لدى سيبويه في الكتاب، ٤/ ٤٣٣- ٤٣٤ وقارن بطبعة بولاق، ٢/ ٤٠٥. أما تمام حسّان فقد زعم أن النحاة العرب خلطوا خلطًا كبيرًا في تحديد هذه المخارج، ثم ضرب مثلًا على ذلك بما ذهب إليه ابن الجزري المتأخر زمانًا. انظر: كتابه: مناهج البحث في اللغة، دار الثقافة بالدار البيضاء ١٩٧٩، ص١١١.

(١٨) انظر مثلًا ترتيب المقدمة الجزرية، في: شرح زكريا الأنصاري (مرجع سابق)، ص٤١.

(١٩) انظر: غانم قدوري الحمد، الدراسات الصوتية (مرجع سابق)، ص١٧٦- ١٧٧.

مخرج واحد. وجعل مخرج الكاف مع الغين والخاء في مخرج واحد سمّاه بالطبقي. وجمع الضاد والصاد والسين والزاي والطاء والدال والتاء في مخرج واحد دعاه بالأسناني اللثوي. وسمّى الهمزة والهاء حنجرية بدلًا من تسميتها بالحلقية.

وليس هذا التعديل بالأمر الخطير، إذ لايعدّ جمع اللام والنون والراء رأيًا جديدًا، فقد رآه بعض القدامى – كما مرَّ بنا آنفًا – وأومأ إليه سيبويه في تضاعيف تحليله لأمثلة الإدغام(٢٠). وكذلك وصف الهمزة والهاء بالحنجرية، إذ سبق إلى ذلك ابن سينا (ت٤٢٨هـ) في رسالة أسباب حدوث الحروف(٢١). أما نقل الضاد إلى مخرج آخر فسببه وصف الضاد الحالية التي ربما تكون متطوّرة عن النطق القديم الذي ينطبق عليه وصف سيبويه. فالمخرج الجديد هو لهذه الضاد «الحديثة»، وليس للقديمة. أما تسمية الخاء والغين بالطبقية ونقلها إلى ما بعد القاف (مبتدئين من الحلق) وجمعها مع الكاف في مخرج سمّي بالطبقي فليس من باب الخطأ الصرف. فقد أومأ إلى نحو من هذا ابن سينا، كما أن سيبويه أشار إلى قرب الغين والخاء من مخارج اللسان(٢٢).

(٢٠) انظر: الكتاب، ٤/ ٤٥٢.

(٢١) انظر: ابن سينا، رسالة أسباب حدوث الحروف، تحقيق محمد حسان الطيان ويحيى مير علم، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق ١٩٨٣، ص٧٢. ويذكر هنا أن ابن سينا لم يلقّب هذين الصوتين، بل وصف خروجهما من فراغ الحنجرة.

(٢٢) انظر: ابن سينا (مرجع سابق)، ص٧٣-٧٤، وص١١٦- ١١٧. وذكر ابن سينا أن الكاف تحدث حيث تحدث الغين، ولكن بحبس تام، وسائر الأحوال بحالها. (ص١١٧). وانظر الكتاب، ٤/ ٤٥٢. وقارن بكتابي: مبادئ اللسانيات، ط. ثالثة ٢٠٠٨، دار الفكر بدمشق، ص١١٤- ١١٥.

ثم عدّد سيبويه الحروف المجهورة، وبلغ بها تسعة عشر حرفًا وافق الدرس الحديث عليها ما عدا الهمزة والقاف والطاء. وعدّد المهموسة أيضًا، وبلغ بها عشرة أحرف. ويوافق هذا التقسيم – فيما يبدو– التقسيم الحديث موافقة تامة. أما مسألة الحروف الثلاثة: الهمزة والقاف والطاء التي تبيّن أنها مهموسة وليست مجهورة، فليست لها قيمة حقيقية(٢٣). ويشرح بعد ذلك مصطلح المجهور والمهموس شرحًا غامضًا بقي فهمه هدفًا للكثير من القدامى والمحدثين على حدّ سواء.

ويقف بعد ذلك على تعريف الحرف الشديد، ويعدّد الحروف التي تتصف بالشدّة، وتعريفه أقرب ما يكون إلى الدرس الحديث، إذ ذكر أن الصوت (يحبس) ولا يجري مع هذه الحروف. أما الحرف الرخو، فلم يعرّفه، واكتفى بالإشارة إلى جريان الصوت فيه، لأنه ضدّ الشديد، كما نقدّر. ويعدّد سيبويه الحروف الرخوة أيضًا. وقد رأى المحدثون من علماء الأصوات أنّ الضاد «الحديثة» شديدة، على حين أن سيبويه عدّ «الضاد» الموصوفة لديه رخوة. وكذلك رأى الدرس الحديث أنّ الجيم ليست شديدة – في صورتها الفصحى– بل هي مزيج من الشدة والرخاوة، ولذلك ينبغي إخراجها من الحروف الشديدة(٢٤). أما الحروف التي لم يضعها مع الشديدة أو الرخوة، فقد ابتدأها بالعين واصفًا إياها بأنها بين الرخوة والشديدة. ثم ذكر اللام ووصفها

(٢٣) انظر: الكتاب، ٤/ ٤٣٤، وقارن بكانتينو (مرجع سابق)، ص٣٥.

(٢٤) انظر: الكتاب، ٤/ ٤٣٤– ٤٣٥، وقارن بإبراهيم أنيس (مرجع سابق)، ص١١٣، وانظر: ص٢٣– ٢٤ منه أيضًا.

بالمنحرف، والنون والميم وفيهما غنة، والراء وفيه تكرير، ومنها اللينة، أي الواو والياء، والهاوي، وهو الألف. ويعقّب على هذه ثلاثة الأحرف (الواو والياء والألف) بقوله: إنها أخفى الحروف (عدم وضوح مخرجها) لاتساع مخرجها، وأخفاهن وأوسعهن مخرجًا: الألف، ثم الياء، ثم الواو(٢٥). ورأى كانتينو أنّه باستثناء العين، فإن الترتيب السابق للشدّة والرخاوة وما بينهما مطابق لترتيب علماء الأصوات العصريين(٢٦). لكن ينبغي أن نشير إلى أن عبارات سيبويه في تصنيفه للأصوات التي تدعى عادة بالمتوسطة لم تكن واضحة، حتى ذهب إبراهيم أنيس مثلًا إلى أن سيبويه عدّ اللام والنون من الحروف الشديدة، لأن طرف اللسان معهما يلزم مكانه، ولكن الصوت مع ذلك يخرج(٢٧). وهذا استنتاج خاطئ تمامًا، لأن سيبويه عدّد الحروف الشديدة والرخوة من قبل، ولم تكن لديه حاجة إلى التكرار أو الإضافة. أما تفسير كلام سيبويه فهو أنه عرض لضرب جديد من صفات الحروف متجاوزًا الجهر والهمس والشدة والرخاوة حتمًا. وليس وصفه للصوت المنحرف، أي اللام وللصوتين الأغنّين، أي النون والميم، وكذلك وصفه للصوت المكرر، أي الراء بالشدّة إلا نحوًا من التدقيق في

(٢٥) انظر: الكتاب، ٤/ ٤٣٥– ٤٣٦.

(٢٦) انظر: كانتينو (مرجع سابق)، ص٣٦، ويقصد كانتينو بكلامه سيبويه وابن يعيش. والأصل هو لسيبويه.

(٢٧) انظر: إبراهيم أنيس (مرجع سابق)، ص١٢٧، وتابعه تمام حسّان في كتابه اللغة العربية معناها ومبناها (مرجع سابق)، ص٥٨– ٥٩.

وصف آلية الصوت في درجات الانفتاح، إذ إنّ هذه الشدّة ليست مساوية لتلك الشدّة الخالصة في الحروف الشديدة. فبعض هذه الحروف «المتوسطة» تبدأ بحبس، لكن الحبس لايمنع الصوت، لأن الهواء يتسرّب من مواضع أخرى، فلا تتمّ الشدّة[٢٨]. ولأنها كذلك ليست رخوة فيحتك الهواء بالعضوين الحاصرين. وأرى أن هذا واضح من كلام سيبويه عن اللام خاصة[٢٩]. ويؤيد قصده المشار إليه أن الحروف التي وصفها بالشدة أو الرخاوة لاتضم أيًّا من هذه الحروف، أي اللام والنون والميم والراء والياء والواو والألف[٣٠]. وبناءً على ماتقدّم فهم الذين جاؤوا بعد سيبويه أنّ حديثه عن هذه الحروف قصد منه شيء آخر غير الشدّة والرخاوة، وهو ما اصطلحوا على تسميته بالتوسّط، ونحوه[٣١].

(٢٨) انظر في وصف درجات الانفتاح: كانتينو (مرجع سابق)، ص٣٢- ٣٣، وقارن بكتابي مبادئ اللسانيات (مرجع سابق)، ص١٢١- ١٢٢.

(٢٩) انظر: الكتاب، ٤/ ٤٣٥.

(٣٠) انظر: الكتاب، ٤/ ٤٣٤- ٤٣٥.

(٣١) انظر: المبرّد، المقتضب، تحقيق محمد عبد الخالق عضيمة، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة ١٣٩٩هـ، ١/ ٣٣١ وقد سمّاها المبرد بالحروف التي تعترض بين الشديدة والرخوة، وذكر أنها شديدة في الأصل، لكن النفس يجري فيها. أما ابن جني فقد دعاها بالحروف بين الشديدة والرخوة. انظر: سرّ صناعة الإعراب (مرجع سابق)، ١/ ٦١، وقال إنه يجمعها في اللفظ «لم يرو عنا»، ونحوه. ولكن تجدر الإشارة إلى أنّ بعض القدامى أخرج الألف والواو والياء من هذه الحروف، وجعلها مع الرخوة. انظر: غانم قدوري الحمد، شرح المقدمة الجزرية، مركز الدراسات والمعلومات القرآنية، جدة، ط. أولى ٢٠٠٨، ص٢٩٣.

ومعروف أن هذا الدرس صنّف حديثًا ضمن درجات الانفتاح. وقد وصف المحدثون التوسّط، ورأوا أن هناك مع الميم والنون تحويلًا لمجرى الهواء إلى الأنف، على حين أن اعتراضًا طفيفًا يحدث في جزء من الفم مع اللام، وأن حجزًا متكررًا يحدث مع الراء. أما الواو والياء غير المدِّيتين فهما تقتربان من حدود الحفيف الذي يتولد مع الأصوات المهموسة. وبناءً على ماتقدم أخرج الدرس الحديث هذه الحروف جميعها من قسمي الشديدة والرخوة، اعتدادًا بالفروق بينها وبين ذينك القسمين(٣٢). أما العين فقد ذكر أنها بين الشديدة والرخوة – كما مرّ بنا– لأنك تصل إلى الترديد فيها لشبهها بالحاء(٣٣) ويدلّ هذا على أن العين تشبه الحاء، وهي أختها في المخرج الحلقي، لكن حفيفها ضعيف لايبلغ مبلغ الحاء المهموسة، مع أنّ الأدلة التجريبية الدقيقة غير متوفرة(٣٤) أما ضمّ الألف إلى الحروف المتوسّطة فهو من باب معالجة «الصوامت» و«الصوائت» على صعيد واحد. والألف ليست إلا صائتًا طويلًا دائمًا بخلاف الواو والياء، إذ لهما حالتان تعدّ إحداهما أقرب إلى «الصوامت»، على حين تعدّ الأخرى من «الصوائت»(٣٥).

(٣٢) انظر: كانتينو (مرجع سابق)، ص٣٢– ٣٣، وتمام حسان، مناهج البحث في اللغة (مرجع سابق)، ص١١٦– ١١٩، وقارن بكمال بشر، علم اللغة العام، الأصوات، دار المعارف بمصر، ط. سابعة ١٩٨٠، ص١٣١– ١٣٢.

(٣٣) انظر: الكتاب، ٤/ ٤٣٥.

(٣٤) انظر: الأصوات اللغوية لأنيس، ص٢٥، وعلم اللغة العام لبشر، ص١٣٢.

(٣٥) انظر: علم اللغة العام لبشر، ص١٣٢– ١٣٣.

ويشير سيبويه في هذا الموضع الشائك – في تضاعيف حديثه – إلى ما لا لبس فيه من صفات أخرى، كالمنحرف (أي الجانبي)، وهو اللام الذي يسمح أحد جانبي اللسان في نطقه بمرور الهواء، على حين يكون وسط اللسان المتصل باللثة حائلًا دون ذلك. والأنفي (أي الأغنّ)، وهو النون والميم. والميم تتصل الشفتان حين النطق بها، على حين أن الهواء يمرّ كلّه من الفراغ الأنفي ويخرج من طرف الأنف (أو الخيشوم). والنون كذلك، إذ يتسرّب الهواء من غير موضع الحبس بطرف اللسان واللثة، ويخرج من الأنف أيضًا. ووصْف سيبويه لهذين الحرفين هو من الوضوح بمكان. ومن هذه الصفات: المكرّر، وهو الراء. والراء لايكاد يظهر الحبس فيها، لأن طرف اللسان يضرب في اللثة ضربات مكررة من دون أن يمنع خروج الهواء من الفم.

وهذه الحروف الأربعة توصف في الدرس الحديث بالموائع (Liquides) وتظهر خصائص هذه الحروف في اتساع مجرى الهواء معها، وعدم انطباق حالتي الشدّة أو الرخاوة عليها، وفي وضوحها السمعي وجهرها، وفي شيوعها شيوعًا كبيرًا لسهولة نطقها (أو ذلاقتها)[٣٦].

أما صفة «الليّنة» التي جاءت في ذلك الموضع أيضًا فتشير إلى عدم إفراد الصوائت، أو الحروف المعتلة بحيز مستقل في درس سيبويه. وقد ظهر ذلك بداية حين جعل الألف اللينة مع مخرج الهمزة والهاء على صعيد واحد، وحين

(٣٦) انظر: مبادئ اللسانيات، ص ١٢٢.

تجاهل التمييز بين حالتي الواو والياء الصائتة والصامتة (أو نصف الصامتة)، فأورد الياء والواو في ترتيب المخارج مرّة واحدة. وجرى على ذلك أكثر العلماء كالمبرّد (ت٢٨٥هـ)، والزجاجي (ت٣٤٠هـ)، وابن جني (٣٩٢هـ)، والزمخشري (ت٥٣٨هـ)، والرازي (ت ٦٠٦هـ)، والسكاكي (ت ٦٢٦هـ)، وابن يعيش (ت ٦٤٣هـ)، وابن الحاجب (ت٦٤٦هـ)، وابن عصفور (ت٦٦٩هـ)، والأستراباذي (ت٦٨٨هـ)، وغيرهم. وكذلك مكي القيسي (ت٤٣٧هـ)، وهو من متقدّمي علماء التجويد[٣٧]. لكن الخضر اليزدي أحد

(٣٧) انظر: المبرد، المقتضب (مرجع سابق)، ١/ ٣٢٨، وزاد المبرد في الحديث عن المخرج الأول قوله: «والألف هاوية هناك» والزجاجي، كتاب الجمل في النحو، تحقيق علي توفيق الحمد، مؤسسة الرسالة ببيروت ودار الأمل بإربد، ط. رابعة ١٩٨٨، ص٤١٠، وابن جني، سر صناعة الإعراب (مرجع سابق)، ١/ ٤٦-٤٨، والزمخشري، المفصّل مع شرح ابن يعيش، إدارة الطباعة المنيرية، مصر، ١٠/ ١٢٣، والرازي، نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز، تحقيق بكري شيخ أمين، دار العلم للملايين، بيروت، ط. أولى ١٩٨٥، ص١١٨- ١١٩، والسكاكي، كتاب مفتاح العلوم، المطبعة الأدبية بسوق الخضار القديم بمصر ١٣١٧هـ، ص ٥-٦، وابن الحاجب، الشافية مع شرحها للأستراباذي، وشرح شواهده لعبد القادر البغدادي، تحقيق محمد نور الحسن ومحمد الزفزاف ومحمد محيي الدين عبد الحميد، مطبعة حجازي بالقاهرة ١٣٥٦هـ، ٣/ ٢٥١، وابن عصفور، الممتع في التصريف، تحقيق فخر الدين قباوة، المكتبة العربية بحلب، ط. أولى ١٩٧٠، ٢/ ٦٦٨- ٦٧٠. وانظر كذلك من علماء التجويد، مكي بن أبي طالب القيسي، الرعاية لتجويد القراءة وتحقيق لفظ التلاوة، ص١٣٤.

شرَّاح الشافية ذكر أن الألف ليس لها مخرج، لأن صوتها لاينقطع عند مركز معين، بل هو هواء مستطيل يمتدّ من غير حصر. غير أنه لم يعترض على ابن الحاجب في متابعته لسيبويه(٣٨). وظهر بعد ذلك مفهوم المخرج المحقق والمخرج المقدّر، وأفردت الألف والواو والياء بمخرج دعي بمخرج الجوف، وهو مخرج مقدّر. أما الواو والياء غير المدّيتين فقد بقيتا في ترتيب المخارج مع المخارج المحققة(٣٩).

ويميّز سيبويه الألف من الواو والياء، مع اشتراكها – أي ثلاثة الأحرف – في أن مخارجها تتسع لهواء الصوت أكثر من اتساع غيرها، لأن الألف أشدّ اتساعًا، إذ ليس لها تحرّك نطقي ملحوظ، على حين أن الياء يرتفع معها اللسان تجاه الحنك، وأن الواو تُضمّ معها الشفتان. وهذه الثلاثة – كما يقول – أخفى الحروف لاتساع مخرجها، وأخفاهن وأوسعهن مخرجًا: الألف ثم الياء ثم الواو(٤٠). والخفاء هنا هو عدم وضوح المخرج بسبب اتساعه، وقد أكَّد سيبويه ذلك الفرق بين الألف من جهة، والواو والياء من جهة أخرى في موضع متقدّم. يقول: « وإنما خفّت الألف هذه الخفة، لأنه ليس منها علاج على اللسان والشفة، ولا تحرّك أبدًا، فإنما هي بمنزلة النفس، فمن ثَمّ لم تثقل ثقل الواو عليهم ولا الياء، لما ذكرت لك من خفة مؤنتها »(٤١). ويصف سيبويه الألف بالهاوي نظرًا

(٣٨) انظر: الخضر اليزدي (كان حيًّا سنة ٧٢٠هـ)، شرح شافية ابن الحاجب، ٢/ ٩٨٢.

(٣٩) انظر: غانم قدوري الحمد، شرح المقدمة الجزرية (مرجع سابق)، ص٣٣٢.

(٤٠) انظر: الكتاب، ٤/ ٤٣٦.

(٤١) انظر: السابق، ٤/ ٣٣٥- ٣٣٦.

لاتساع مخرجه لهواء الصّوت أشدّ من اتساع مخرج الواو والياء، كما تقدمت الإشارة. وذكر سيبويه في تضاعيف باب الإدغام بعد الخلاصة التي قدّمها للدرس النظري مايؤكد شرحه لأحوال الواو والياء والألف بعيدًا عن فكرة الترتيب المخرجي. « فالياء أخت الواو، فكأنهما من مخرج واحد». كما أن « الواو إذا كانت قبلها ضمة والياء قبلها كسرة فهو أبعد للإدغام، لأنهما حينئذ أشبه بالألف.. وإن لم يبلغا الألف، ولكنْ فيهما شَبَهٌ منها.»(٤٢). أما إذا لم تكن حركة ما قبلهما مجانسة لهما فهما ليسا بمنزلة الألف، نحو: ثوْب بكر، وجَيْب بكر(٤٣). ونجد لدى ابن جني شرحًا لمخارج هذه الأصوات، وبحثًا للحركات التي هي أبعاض لهذه الحروف. كما نجد عنده إشارات إلى قوّة الواو والياء إذا تحركتا، إذ تلحقان بالحروف الصحاح. وكذلك تصحّ الواو والياء إذا كانتا مسبوقتين بفتح، نحو: ثَوْب، وبَيْت(٤٤).

(٤٢) انظر: الكتاب، ٤/ ٤٥٣، ٤٤٦، ٤٤٧.

(٤٣) انظر: الكتاب، ٤/ ٤٤٠.

(٤٤) انظر: ابن جني، سرّ صناعة الإعراب، ١/ ٨، ٢٠- ٢١. وقد أوضح مكي القيسي حالتي الواو والياء بصورة جلية. فالواو والياء الساكنتان إذا سبقتا بفتح فهما حرفا لين. أما إذا سبقتا بحركة مجانسة لهما فهما مع الألف حروف المدّ واللين. انظر: الرعاية، ص١٠١. أما ابن سينا فقد فصل بين الواو الصامتة والياء الصامتة من جهة والواو المصوّتة والياء المصوّتة والألف من جهة أخرى في بيان المخارج. انظر: رسالة أسباب حدوث الحروف، ص٨٤. ومصطلح «الصامت» و «المصوّت» هما من استعماله.

والغريب في هذا الصدد ما ذكره إبراهيم أنيس من أن مسلك القدماء –ومنهم سيبويه – في الحديث عن هذه الأصوات حين تحدثوا عن الصفات، لاحين تحدثوا عن المخارج، مسلك سليم مستقيم على كل حال، فهو خير من تلك الرواية التي جاءت في معجم (كتاب) العين من أنها جوفية أو هوائية وليس لها حيز تُنسب إليه(٤٥). والحقّ أنّ القدامى لم يعالجوا هذه الأصوات حين تحدثوا عن الصفات، إنما كانوا يذكرون صفات لهذه الأصوات، مع ملاحظة تداخل درس الصوامت والصوائت لديهم. والدليل على ذلك أن ابن جني خصّص لهذه الحروف «الصوائت» الطويلة و«الحركات» القصيرة حيِّزًا مستقلًّا عن بحث المخارج والصفات(٤٦). أما معالجة الخليل فهي أقرب إلى الصواب من غيرها حتمًا، لأن الخليل فهم أن هذه الحروف لاينقطع عندها الصوت فيكون لها مخرج واضح محقّق، إنما يتصل النطق بها في فراغ الحلق والفم حتى ترجع إلى مبتدئها ومبتدأ كلّ الأصوات من أقصى الحلق، أي الحَنجرة، لكن على غير طريقة الصحاح(٤٧).

(٤٥) انظر: أنيس، الأصوات اللغوية، ص١١٨.

(٤٦) انظر: ابن جني، سرّ صناعة الإعراب، ١/ ١٧– ٣٣.

(٤٧) انظر: كتابي، أصالة علم الأصوات عند الخليل، ص٣٢– ٣٣، وقارن بكتاب العين (مرجع سابق)، ١/ ٥٧– ٥٨ وقد وصف سيبويه هذه الأصوات في موضع متقدم (انظر الكتاب، ٤/ ١٧٦) وصفًا قريبًا من وصف الخليل حين قال: «وهذه الحروف غير مهموسات، وهي حروف لين ومدّ، ومخارجها متسعة لهواء الصوت، وليس شيء من الحروف أوسع مخارج منها، ولا أمدّ للصوت. فإذا وقفت عندها لم تضمّها بشفة ولا لسان ولا حلق كضمّ غيرها، فيهوي الصوت إذا وجد متسعًا حتى ينقطع آخره في موضع الهمزة».

ويختم سيبويه حديثه في هذا الجانب النظري بالوقوف عند الحروف المطبقة والمنفتحة. فالمطبقة عنده هي الصاد والضاد والطاء والظاء، أما المنفتحة فهي كلّ ماسوى ذلك من الحروف، لأنك لاتطبق لشيء منهن لسانك، ترفعه إلى الحنك الأعلى. ويوضح سيبويه – وكلامه هنا من الوضوح بحيث لا يحتاج إلى مزيد– أن حروف الإطباق لها موضعان من اللسان، موضع يحاذي الحنك الأعلى (أي من مؤخر اللسان)، وموضع يشارك في المخرج. أما حروف الانفتاح فلها موضع واحد من اللسان هو موضع النطق في المخرج فقط(٤٨). ويرى سيبويه أنّ الإطباق يكون فيصلًا بين حرف وآخر. « ولولا الإطباق لصارت الطاء دالًا، والصاد سينًا، والظاء ذالًا، ولخرجت الضاد من الكلام، لأنه ليس من موضعها غيرها»(٤٩). فالضاد تنفرد بمخرج كما تقدّم وصفها وتصنيفها لديه. أما الطاء والدال من جهة، والصاد والسين من جهة ثانية، والظاء والذال من جهة ثالثة فيشكِّل كل منها ثنائيًّا مخرجيًّا. ويكفي لكي يتحول الحرف إلى أخيه أن تزول عنه صفة الإطباق. أما في النطق الحديث فيصحّ القول: لولا الإطباق لصارت الطاء تاء، والضاد دالًا(٥٠). وقد تابع ابن جني هذا الدرس الخاص بالصفات، وصنفها

(٤٨) انظر: الكتاب، ٤/ ٤٣٦، وقارن بإبراهيم أنيس، الأصوات اللغوية، ص١١٩، وتمام حسّان، مناهج البحث في اللغة، ص١١٥. ويقول الدكتور حسّان: «أما الإطباق فارتفاع مؤخر اللسان في اتجاه الطبق بحيث لايتصل به، على حين يجري النطق في مخرج آخر غير الطبق، يغلب أن يكون طرف اللسان أحد الأعضاء العاملة فيه». وانظر كذلك: غانم قدوري الحمد، شرح المقدمة الجزرية ٢٩٩– ٣٠٠.

(٤٩) انظر: الكتاب، ٤/ ٤٣٦.

(٥٠) انظر: الحمد، شرح المقدمة الجزرية، ص٣٠٠.

ضمن انقسامات قبس مضمون معظمها من سيبويه. وذكر في هذا الصدد: الاستعلاء والانخفاض، والصحة والاعتلال، والسكون والحركة، والأصل والزيادة، وحروف القلقلة، والمشربة، وحروف الذلاقة، والمصمتة، والحرف المهتوت(٥١). ومع أن الفضل للمتقدّم، وأن ابن جني ضَمَّن كلامه شيئًا من أقوال غيره من غير إشارة ثَمّ، فإن عمله في الدرس الصوتي ليس بالقليل أو المكرّر.

٣- بين الخليل وسيبويه

لقد تبيّن مما تقدم أن سيبويه أجمل المعلومات التي قبسها من شيخه الخليل، ونظمها، وساقها بهذه الطريقة المحكمة علمًا وأسلوبًا، ثم طبقها باقتدار عجيب في أمثلة الإدغام التي عرض لها، مما يؤكد فهمه للمعطيات الصوتية كفهمه للمعطيات النحوية، فضلًا عن فقهه العربية وأصولها والاحتجاج لها. ولا عبرة بما ساقه بعض الدارسين من أن سيبويه لم يذكر شيخه الخليل على عادته في كتابه. إذ إنه نقل صورة متفقًا عليها بين شيوخه وأصحابه(٥٢). غير أنه ينبغي أن نؤكد أن الخليل كان يورد معلوماته في كتابه «العين» عن طريق الإملاء على تلميذه الليث بن المظفر، ولم يكن قد توفَّر على كتابه يؤلفه التأليف المعهود مع المراجعة والتدقيق.

(٥١) انظر: ابن جني، سرّ صناعة الإعراب، ١/ ٦٠- ٦٥. ويذكر أن مكي القيسي بلغ بالصفات أربعًا وأربعين صفة. انظر: الرعاية، ص٩١- ١١٧.

(٥٢) انظر: كانتينو، دروس في علم أصوات العربية، ص٢٩، وإبراهيم أنيس، الأصوات اللغوية، ص١٠٦، وتمام حسان، اللغة العربية معناها ومبناها، ص٥١. وقارن بالمزهر للسيوطي، ١/ ٨٥. وذكر الدكتور تمام حسان في كتابه اللغة العربية معناها ومبناها أنه «ذهب بعضهم إلى أن سيبويه فهم النحو والصرف فهمًا تامًّا عن شيوخه، ولكنه لم يفهم عنهم الأصوات، ومن ثَم لم يستطع أن ينقلها واضحة للناس»، انظر: ص٦٠.

كما أنه كان ينثر آراءه على تلامذة آخرين غير الليث. ولذلك جاءت المعطيات الصوتية في مقدمة العين، وفي مصادر أخرى قريبة من زمن الخليل كالجمهرة لابن دريد (ت٣٢١هـ) وتهذيب اللغة للأزهري (ت٣٧٠هـ) متداخلةً ولا تسلك مسلك النص الواحد. لكن كثرة النقول التي ضمتها كتب اللغة عن الخليل في هذا الصدد تشير إلى أن المصدر واحد، وإن تعددت الروايات واختلفت الصور.

وتجدر الإشارة إلى أن الغاية من الدرس الصوتي فرّقت بين الشيخين الخليل وسيبويه. فقد كانت غاية الخليل كشف خصائص تشكيل الأصوات لبناء معجم يستوعب كلام العرب، من غير أن يشذّ عنه شيء من ذلك(٥٣). ولذلك أسهب الخليل في الحديث عن مسائل صوتية تشكيلية تتصل بطرق تركيب الكلام وخصائصه. كالأبنية وأنواعها، وحروف الذلاقة والطلاقة والتوسط، وأبنية الحكاية المؤلفة والمضاعفة، وبعض معايير معرفة المصنوع والدخيل، وقواعد تبين مجاورة الحرف للحرف بالتقدم والتأخر، ونحو ذلك. أما غاية الدرس الصوتي عند سيبويه فأخصّ من ذلك. فهو يقول بعد أن قدّم خلاصة لهذا الدرس: «وإنما وصفت لك حروف المعجم بهذه الصفات لتعرف مايحسن فيه الإدغام وما يجوز فيه، ومالا يحسن فيه ذلك ولا يجوز فيه، وما تبدله استثقالًا كما تدغم، وما تخفيه وهو بزنة المتحرّك»(٥٤). ويفسّر اختلاف الغايتين من هذا الدرس لدى الشيخين أشياء، منها: عدم تطرق سيبويه إلى تلك المسائل التشكيلية، وعدم ذكره الذلاقة والإصمات، وبيان قواعد مجاورة الحروف

(٥٣) انظر: العين للخليل، ١/ ٤٧.

(٥٤) انظر: الكتاب، ٤/ ٤٣٦.

وغيرها. على أنهما اتفقا على أهم المسائل التي ترد عادة في علم الأصوات النطقي من بيان المخارج ودرجات الانفتاح وصفات النطق، وما يلحق بذلك من مسائل تمهيديّة مهمة كجهاز النطق ومادة الصّوت.

لكن أبرز ماتضح لدى الخليل وغاب عن درس سيبويه تقسيم الأصوات إلى صحاح وعلل، ووصف المخارج انطلاقًا من أسماء أعضاء جهاز النطق. والصحاح عند الخليل لها أحياز ومدارج (أي هي الصوامت نفسها)، على حين أن العلل أو الجوف لا تنسب إلى شيء من الأحياز أو المدارج أو المخارج، إنما تنسب إلى الجوف والهواء(٥٥). لكن لايمنع من أن تختلف مجاريها وتتباين مباديها، فيكون لكل منها حيز متدرج(٥٦). ولا نجد لدى سيبويه أثرًا لألقاب المجموعات المخرجية كالحلقية واللهوية - لم يذكر اللهاة أصلًا- والشجرية والأسلية والنطعية واللثوية والذلقية والشفهية والجوفية أو الهوائية. ويقطع إبراهيم أنيس بأن هذه المصطلحات ليست للخليل، إذ لو كانت له لكنا وجدناها لدى سيبويه. وكأن سيبويه نقل كلّ شيء ذكره الخليل لسبب أو لغير سبب(٥٧). وهناك مجموعة من الأوصاف الواردة لدى الخليل كالنصاعة والهشاشة وضخامة الجرس والكزازة وغيرها لا ترد عند سيبويه. أما اختلافهما في عدد المخارج فليس من المتيسر القطع

(٥٥) انظر: العين، ١/ ٥٧- ٥٨.

(٥٦) انظر: العين، ١/ ٥٧- ٥٨، وقارن بتذكرة النحاة لأبي حيان الأندلسي، تحقيق عفيف عبد الرحمن، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط. أولى ١٩٨٦، ص٢٩.

(٥٧) انظر: أنيس، الأصوات اللغوية، ص١٠٧- ١١٢، وقارن بكتابي: أصالة علم الأصوات عند الخليل، ص٤٣.

بشأنه برأي حاسم لعدم توفّر الأدلة ومسوّغات الاستنتاج. ولذلك فإن ما نسبه ابن الجزري (ت٨٣٣هـ) إلى الخليل من أنه أورد سبعة عشر مخرجًا ليس عليه دليل[٥٨].

أما اختلافهما في ترتيب المخارج فيكاد ينحصر في موضع واحد. ففي الرواية المستفيضة عن الخليل أنه ابتدأ بالحروف الحلقية ثم اللهوية ثم الشجرية ثم الأسلية، وهنا موضع الاختلاف، إذ ينبغي أن يرد في هذا المكان الحروف الذلقية (ل.ن.ر) وتليها الحروف النطعية فالأسلية فاللثوية فالشفوية. إذن فالأسلية التي حقّها – بناءً على ترتيب سيبويه– أن تكون بعد النطعية وقبل اللثوية تقدّمت وأخذت موقع الذلقية[٥٩]. لكنّ رواية أخرى عن الخليل وردت في كتاب تذكرة النحاة تجعل اللام والنون والراء بعد الحروف الشجرية ثم تأتي الحروف الأسلية ثم النطعية ثم اللثوية ثم الشفوية[٦٠]. ويشير هذا إلى صورة أقرب إلى ترتيب سيبويه، وإلى الدرس الحديث. فسيبويه قدّم النطعية على الأسلية، وهي متقاربة عنده. وقد ذكر ذلك في تضاعيف باب الإدغام إذ يقول: «والطاء والدال والتاء يدغمن كلهنّ في الصاد والزاي والسين، لقرب المخرجين، لأنهنّ من الثنايا وطرف اللسان، وليس بينهن في الموضع إلا أن الطاء وأختيها من أصل الثنايا، وهن من أسفله قليلًا مما بين الثنايا»[٦١]. أما الدرس الحديث فجمع بين هذه

(٥٨) انظر: الحمد، شرح المقدمة الجزرية، ص٢٢١– ٢٢٢.

(٥٩) انظر: كتاب العين، ١/ ٥٨. ويذكر استكمالًا لما تقدّم أن الخليل أخّر الذلقية إلى ما قبل الشفوية. فالأسلية عنده حلّت محل الذلقية، على حين أن الذلقية حلّت محل اللثوية. وانظر: الكتاب لسيبويه، ٤/ ٤٣٣.

(٦٠) انظر: كتاب تذكرة النحاة، ص٢٥– ٣١.

(٦١) انظر: الكتاب، ٤/ ٤٦٣، و ٤٥٧– ٤٥٨.

الحروف وجعلها في مخرج واحد دعي بالأسناني اللثوي(٦٢).

ويتفق الشيخان أخيرًا على أمر ذي أهمية قصوى، هو انطلاقهما من المعطيات الصوتية العربية التي عبّرت عنها بدءًا القراءات القرآنية، وخصائص الكلام الفصيح، والظواهر اللهجية المقبولة، إضافة إلى استنادهما إلى معارف العرب اللغوية في خلق الإنسان لبناء مصطلحات عربية مولّدة تخلو خلوًّا تامًّا من أيّ مصطلح دخيل(٦٣).

فالخليل قصد من بناء معجمه كتاب العين أن تُعرفَ به العربُ في أشعارها وأمثالها ومخاطباتها، وألا يشذ عنه شيء من ذلك(٦٤). أما سيبويه فذكر في تضاعيف باب الإدغام مايقطع بمعرفته بكلام العرب ومستوياته. فهو مثلًا يورد عبارات نحو: «وكلّه عربي»، و «هي عربية جيّدة»، و «البيان عربي». ونحو «أعرب اللغتين وأجودهما»، و «الأعرب الأكثر الأجود في كلامهم». ونحو «اللغة العربية القديمة الجيدة»، و «الحجازية الجيدة». ونحو «لغة لأهل الحجاز، وهي عربية جائزة»، «وبعض العرب ممن ترضى عربيته» و «يقولها من العرب بنو العنبر»، و«لكن بني تميم أدغموا».. وغير ذلك(٦٥). ويشهد ماتقدّم كلّه على أن الدرس الصوتي عند العرب والمسلمين درس أصيل نبع من معطيات حياتهم وجاء وافيًا بحاجات حضارتهم الناهضة، ولم يكن فيه أيّ أثر لاقتباس من الحضارات السابقة.

(٦٢) انظر: كتابي، مبادئ اللسانيات، ص ١٠٧.

(٦٣) انظر: كتابي، أصالة علم الأصوات عند الخليل، ص٦٦.

(٦٤) انظر: كتاب العين، ١/ ٤٧.

(٦٥) انظر: كتاب سيبويه، ٤/ ٤٥٧– ٤٨٥.

طريقة أبي الفتح البُستي في الجناس
من المشرق إلى الأندلس
(مراجعة أسلوبية نقدية بلاغية)

د. محمد رضوان الداية(*)

منذ أوّليات البحوث والدراسات في تاريخ الأدب العربي الحديث كانت دراسات أساليب النصوص الأدبية شعرًا ونثرًا جزءًا من عملية التقويم الأدبي والنقدي؛ وكان التخلص من أثقال البديع بأنواعه المختلفة واحدًا من دلالات الانتقال من عصر أدبيّ إلى عصر، ومن زمان فنيّ إلى زمان.

وكان «الجناس» واحدًا من أنواع البديع الذي يُذكر على الإلماح والإجمال حينًا، وفي تطويل وتفصيل حينًا آخر؛ وصار يتلقى في العصر الحديث من الباحثين والدارسين شيئًا من اللوم والتثريب، لإسهامه في «إفساد الأسلوب، وإفساد الذوق، والإساءة إلى رونق النص ...» إلخ ...

(*) باحث في الأدب والتراث وأستاذ جامعي من سورية.

ونقرأ في مطالعة جرجي زيدان عن (الشعر والأدب في النهضة الأخيرة): «أصبح الشعراء على الإجمال يستنكفون من القيود التي كان أسلافهم مقيدين بها من **حيث الاستهلال والتخلص والجناس** ...»[١].

وعلى هذا النهج قال د. شوقي ضيف، وهو يرسم صورة العصر في القرن التاسع عشر (قبل النهضة):

«أما الأغراض فكانت ضيقة تافهة، وكانت المعاني مبتذلة ساقطة. وأما الأساليب فكانت متكلفة، مثقلة بأغلال البديع، وما يتصل بها من حساب الجُمَّل ...»[٢].

والجناس – جملة – في تقدير د. محمد مندور: إما عبث لفظي يعتمد على الاشتقاق، ولا يستند إلى غير التداعي الشكلي ... وإما لعب بالمعاني، ومهارة في استعمال مفردات اللغة المتحدة أو المتقاربة في اللفظ والمختلفة في المعنى ...[٣].

والاستقصاء يطول، لكن هذه الأمثلة كافية للإشارة والدلالة. على أن هناك دراسة في كتاب مستقل للأستاذ علي الجندي بعنوان «فن الجناس» رصدت هذا النوع البديعي، قديمًا وحديثًا، وحاول المؤلِّف أن يقدم فيه دراسة موضوعية في إطار استعراضي تاريخي وفنّي.

---

(١) تاريخ آداب اللغة العربية ٢: ٥٦٩.

(٢) الأدب العربي المعاصر في مصر: ٣٨.

(٣) النقد المنهجي عند العرب: ٣٦.

(١)

أعلن أكثر مؤرخّي الأدب والنقَّاد في العصر الحديث عدم رضاهم عن اللجوء إلى المحسنات البديعية، فهي من أسباب جمود الأسلوب وإلهاء القارئ بالبهارج الخارجية أو الجانبية. وسوّغ لهم ذلك حال الشعر والنثر في أواخر العصر العثماني، التي كانت استمرارًا للجمود كما يسمّونه.

وكان للقدماء مواقف مشابهة، يقبلون ما يجيء عفو الخاطر أو قليلاً، وما يكون كالملح والأبزار دون زيادة، وعبّر عن هذا الاتجاه ابن الوردي(٤): [من الوافر]

إذا أحببت نظم الشعر فاختر لنظمك كل سهل ذي امتناع

ولا تقصد مجانسةً ومكّن قوافيه وكِلْهُ إلى الطباع

ولم تتفق أذواقهم دائمًا؛ فالصفدي يتعصب للجناس وابن حجة الحموي يذمه ويرفضه (راجع فن الجناس: ٢٢، وكشف اللثام عن وجه التّورية والاستخدام لابن حجّة .. ومطالعة صاحب: فنّ الجناس).

ويلخِّص موقف المعتدلين قول ابن سنان الخفاجي عن الجناس «والمحمود منه ما قلّ ووضع تابعًا للمعنى غير مقصود في نفسه ومثله قول صاحب العمدة (٢: ٥٦٠): وما ظهرت فيه الكلفة (من الجناس) فلا فائدة فيه.

كان الجناس واحدًا من أشهر أنواع البديع التي استفاد منها الشعراء المحدثون في صنعتهم الفنية صدر الدولة العباسية، وبلغ ذلك الذروة عند أبي تمام، فقد كان:

(٤) ديوانه: ٣٩٥-٣٩٦.

«يستخدم في صناعة هذا النسيج المنمّق (من شعره) وشي التصنيع القديم (الذي عرف عند صريع الغواني) ونقصد تلك المحسنات التي تسمّى بالطباق والجناس والمشاكلة والتصوير كما قرّر د. ضيف. أما المتنبي فقد عني بشيء من الوسائل القديمة: وسائل الاستعارة، والمشاكلة والجناس والطباق، لكنها كانت تأتي عنده نادرة ...»(٥).

ونجد النقّاد ومؤرخي الأدب يتقبلون على وجوه شتّى، ولأسباب يقدّمونها في دراساتهم، فنون البديع المختلفة حين كانت تأتي على ألسنة الشعراء دون تكلّف، ودون أن تكون على حساب وضوح المعاني أو نقاء الأساليب.

وقبلوا تلك الفنون ولو كثرت في النص أحيانًا، من شعراء ذوي قدرة وخبرة وبراعة مثل ابن المعتز والمتنبي والوأواء الدمشقي من شعراء القرنين الثالث والرابع.

فلمّا أكثر الشعراء من تلك الفنون إكبابًا عليها وإسرافًا، وأفلت من أيديهم توظيفها على وجوه مقبولة: لا تجور على المعنى، ولا تنزل بالأسلوب؛ وقف النقاد، ومؤرخو الأدب موقفًا آخر.

ومن هنا وقف د. ضيف من جمهرة شعراء يتيمة الدهر التي يترجم فيها الثعالبي لشعراء زمانه (القرن الرابع الهجري) موقفًا مختلفًا وسجّل عليهم الانحراف عن الفن الجميل، والصنعة الحسنة، والإضافة البارعة.

---

(٥) الفن ومذاهبه في الشعر ...: ٢٥٨ .

ولفن «الجناس» في هذه الوقفة مكان واضح ؛ فأدوات التصنيع الحسيّة: لم تعد ألوانًا زاهية ... أصبحت ألوانًا من طراز آخر. لم تعد وشيًا وتصنيعًا بل أصبحت تكلّفًا وتصنّعًا(٦) ... وحقًّا إن الشعراء أكثروا من استعمال ألوان التصنيع حتى ليوشك بعضهم أن يتخصّص بلونٍ من ألوانها كما نجد عند **البُستي** الذي يقول فيه الثعالبي: «**إنه صاحب الطريقة الأنيقة في التجنيس الأنيس، البديع التأسيس، وكان يسميه المتشابه**، ويأتي بكل طريقة لطيفة»(٧).

(٢)

والبستي(٨)، هو أبو الفتح علي بن محمد بن الحسين الكاتب. ونسبته إلى مدينة (بُست) من بلاد كابُل (الأفغان) بين هراة وغزنة.

ولد تقديرًا – كما عند د. فروخ – سنة ٣٣٠(٩)، وتلقّى علومه في بست على أيدي علمائها وكانوا من الكثرة والشهرة بمكان. واشتغل بالتعليم والكتابة الديوانية في بلده عند أمرائها الذين تقلّبوا عليها. وكان من كتّاب الدولة السامانية، وعلت مكانته عند سبكتكين حين حكم البلد، وبعده عند ابنه يمين الدولة.

(٦) المرجع السابق: ٦٦.

(٧) الفن ومذاهبه في الشعر: ٢٦٦ – ٢٦٧. وعبارة الثعالبي في يتيمة الدهر ٤: ٣٠٢.

(٨) انظر في ترجمته: وفيات الأعيان ٣: ٣٧٦ ويتيمية الدهر ٤: ٢٠٤ والمنتظم ٧:٧٢ وتاريخ حكماء الإسلام: ٤٩ وشذرات الذهب ٣: ١٥٩، والأعلام ٤: ٣٢٦.

(٩) تاريخ الأدب العربي ٣: ٤٩.

ولم تدم له حال الصفاء، فقد أُبْعِد عن بلده إلى «ديار الترك عن غير قصده وإرادته» كما في اليتيمة[١٠]؛ وهناك كانت وفاته سنة ٤٠٠ هـ.[١١]

وصفة «الكاتب» التي وُسمَ بها فيها دلالة على صنعته التي كان يتعيّش منها بعد مرحلة التعليم التي مارسها. أما تحليته في كتب التراجم فهي: «شاعر عصره وكاتبه». وقد احتفظ الثعالبي وغيره بقدر من نثره وشعره. واستهل الثعالبي اختياراته بشيء من فصوله القصار ومن عباراته وأمثاله؛ وأورد هاهنا فقرات يسيرة من ذلك الاختيار فإن في نثره كثيرًا من خصائص أسلوبه الذي يميز شعره، قال:

«من أصلح فاسده أرغم حاسده. من أطاع غضبه أضاع أدبه.عادات السادات سادات العادات. من سعادة جَدّك وقوفك عند حدّك.إذا بقي ما قاتك فلا تأس على ما فاتك.

ربما كانت الفطنة فتنة، والمهنة محنة. حسن الأخلاق أحسن الأعلاق ...»[١٢].

وللبستي ديوان شعر؛ ذكره العلماء بعد عصره، وكان كما يقدّر الباحثون المعاصرون كبيرًا، وليس الشعر الذي بين أيدينا هو كلّ ما نظمه ؛ وقد طبع الديوان – إلى الآن – ثلاث طبعات ؛ في بيروت سنة ١٢٩٤ هـ الموافق ١٨٨٥ م، وفي بيروت ثانيةً (دار النفائس) ١٩٨٠ م بتحقيق د.محمد مرسي الخولي، وفي دمشق (مجمع اللغة

(١٠) يتيمة الدهر ٤: ٣٠٤.

(١١) وقيل في وفاته إنها كانت سنة ٤٠٠ أو ٤٠١ أو ٤٠٢، ورجّحتُ رواية الثعالبي.

(١٢) يتيمة الدهر ٤: ٣٠٥.

العربية ١٤١٠ هـ – ١٩٨٩م) بتحقيق درّية الخطيب ولطفي الصقال.[١٣]

وكان للنشرة الثانية مزيّة على الأولى، وللثالثة مزية على الثانية بزيادة القصائد والقطع وفرائد الأبيات مرة بعد أخرى.

وإضافة إلى ديوان البُستي المذكور (وهو بالعربية) هناك شعر له نظمه بالفارسية[١٤]

واشتهر من شعر البُستي من المطوّلات قصيدته التي أوّلها[١٥] [من البسيط]

زيـادة المـرء في دنيـاه نقـصانُ وربحه غير محض الخير خسرانُ

جمع فيها الشاعر قدرًا من آرائه في الناس والحياة والمعاش، في صورة حكَم وعبارات يجري بعضها مجرى الأمثال. والناس مولعون بحفظ كثير من أبياتها. ولم يجر البُستي في قصيدته (التي بلغت ٦٥ بيتًا في طبعة دمشق) على طريقته في التجنيس، وإن ألمّ فيها بشيء قليل من المحسّنات.

(١٣) كتب الدكتور شاكر الفحام نقدًا لطبعة الدكتور الخولي لديوان البستي في مجلة المجمع بدمشق. المجلد ٥٨ ج٣ سنة ١٩٨٣ كما كتب الأستاذ ياسين محمد الفاخوري نقدًا لهذه النشرة في مجلة المجمع الأردني في العدد المزدوج ١٩–٢٠ سنة ١٩٨٣. ونشر الدكتور حاتم صالح الضامن مستدركًا على ديوان البستي في مجلة المجمع بدمشق في المجلد ٦٦ ج٤ سنة ١٩٩١ (المجلة).

(١٤) دائرة المعارف الإسلامية ٧: ٢٣٠ ؛ وفي مقدمة الديوان (ط دمشق): ٦.

(١٥) ديوان البستي ط بيروت (الخولي) ٣١٣. و ط دمشق: ١٨٦.

(٣)

كان الشعراء (والكتّاب) في عصر البستي، في الكثرة الغالبة منهم في المشرق، قد وصلوا في الصناعتين إلى ما سماه محمد بن عبد الغفور الكلاعي: الأسلوب **المرصّع**(١٦)، وهو يقابل أسلوب **التصنع** في الفن ومذاهب»(١٧). والتصنع عند هؤلاء ميل شديد بالنص الأدبي إلى التكلف على حساب جودة المعنى ورقة الأسلوب ونصاعة العمل الفني وجمال تأثيره. يقول الدكتور ضيف إن ألوان التصنيع الحسية عند شعراء اليتيمة ومن جاء من بعدهم «فقدت قيمتها كزينة وزخرف، واستحالت إلى تكلف وتصنع خالص»(١٨).

وإذا قيل إن البستي كان ابن العصر، كما يردد القدماء والمحدثون الذين وقفوا عند شعره وترجموا له فإن من الصحيح أيضًا أنه كان مؤثِّرًا مثلما كان متأثرًا ؛ وأكثر تأثيره في معاصريه ومَنْ وراءهم كان في الجناس (أو التجنيس)، وخصوصًا الجناس الذي سماه هو **المتشابه**.

ومن هنا سجل الدارسون هذه الظاهرة في شعره كما في مقدمة الديوان: «**أولع أبو الفتح بالجناس إيلاعًا شديدًا**، وأفرغ فيه جهده وعكف عليه يستقصي أشكاله وصوره حتى استطاع أن يستنفد معظمها ويبرز في أنواع أخرى منه

(١٦) إحكام صنعة الكلام لمحمد بن عبد الغفور الكلاعي ص: ١٣٤.

(١٧) الفن ومذاهبه في الشعر العربي: ١٩٧ وما بعدها.

(١٨) المرجع السابق: ٢٦٧.

حاكاه فيها من أتى بعده في الجناس ... ولا تكاد تخلو صفحة منه من مقطوعة أو أكثر فيها لون من الجناس، بحيث طغى على ما عداه من الألوان البديعية الأخرى وغطّى عليها ...»[١٩]. وهذا مستفاد مما حلاّه به المؤرخون في تراجمهم للبستي كابن خلكان وصلاح الدين الصفدي والثعالبي وغيرهم.

لقد ابتدأ البستي طريقه، واستوت له طريقته، بعد أن أعجبه الجناس في شعر أحد معاصريه، وهو شعبة بن عبد الملك البستي؛ فقد قال الثعالبي في ترجمة شعبة[٢٠]:

«سمعت أبا الفتح البستي يقول: لما أنشدني شعبة قوله: [من المنسرح]

فَـدَيْتُ مـن زارني عـلى حـذر مــن الأعــادي وقلبُــه يجِــبُ

فلـو خلعـت الـدنيا عليـه لمـا قَـضَيْتُ مـن حقـه الـذي يجـب

استحسنته، وأنا إذ ذاك في زمن الصبا، فأخذت نفسي سلوك طريقته في **المتشابه** حتى قلت ما قلت».

فهو إذن استفاد هذا اللون من أحد معاصريه (في منزلة أستاذ له أو معلم) وأخذ نفسه في التدرّب والتحسين حتى اشتهر بأسلوبه، أو **طريقته**، كما صارت تسمى.

ومعنى «قلبه يجب» أي يخفق خفقانًا شديدًا. ومعنى «يجب» في البيت الثاني أي من الواجب اللازم. يقول: لو أعطى الحبيبة على زيارتها الدنيا كلها وقد جاءت (مسرعة أو خائفة) فقلبها يجب وجوبًا شديدًا، لكان في نظره مقصرًا تقصيرًا عظيمًا!

(١٩) مقدمة الديوان (الخولي) بيروت: ١٦٧ .

(٢٠) يتيمة الدهر ٤: ٣٣٧.

– وهذا الجناس جناس تامٌّ، وهو من جناس القوافي.

– وقال البستي على الطريقة التي أعجبته من صاحبه(٢١): [من الكامل]

يا ذا الذي ركب الفساد وعنده أني أســود إذا ركبــت **فــسادا**

أضْللتَ رأيك عامدًا أو ساهيًا مَنْ ذا الذي ركبَ الفسادَ **فسادا!**

فكلمة (فسادا) في البيت الأول من المعنى المعروف لفعل: فَسَدَ يفسدُ؛ وعبارة (فسادا) في البيت الثاني مركبة من (فاء) العطف، وفعل ساد – يسود سيادة، والألف للإطلاق.

(٤)

ولا بد من أن يطرح سؤال منطقي: لماذا التفت الأدباء – والشعراء منهم خاصة – إلى الجناس؟ وما أهميته عند من أكثروا منه في مقاييس الجمال الفني؟ ولماذا اشتهر البستي بالجناس، وبنوع منه جاراه فيه نفر من شعراء المشرق والمغرب؟

الجناس عند ابن المعتز (أوّل من ألّف في موضوع البديع) هو أحد الأنواع الخمسة الرئيسية: الاستعارة والتجنيس، والمطابقة وردّ أعجاز الكلام على الصدور، والمذهب الكلامي.(٢٢)

ولهذا النوع البديعي كما فصّل ابن المعتز أمثلة في كتاب الله الكريم وفي الحديث النبوي الشريف. وقد استفاد منه الشعراء والكتَّاب منذ العصر الجاهلي وهلمّ جرا إلى زمان المؤلف (القرن الثالث الهجري)، وذكر ابن المعتز عددًا من أنواع الجناس، وأورد أمثلةً مناسبة، وفرّق بين التجنيس الحسن والتجنيس المعيب.

(٢١) يتيمة الدهر ٤: ٣٢٤.

(٢٢) البديع ١ وما بعدها. وفي العمدة (١: ٢٢٧) أن ابن المعتز أول من نحا هذا النحو وجمعه.

ونقل النقاد والأدباء عن ابن المعتز قوله: إن الشعراء المحدثين مثل بشار ومسلم بن الوليد وأبي نواس لم يخترعوا فن الجناس، لكنه كثر في أشعارهم فظهر في زمانهم واشتهر جدًّا.(٢٣)

واستعمال مصطلح الجناس لهذا الفن وما تفرّع منه هو استعمال محدث، اشتهر في العصر العباسي – كما يظهر – وقد سمّاه العجاج الراجز في حوار مع ابنه رؤبة: «**العطف**» قال رؤبة يومًا لأبيه: أنا أشعَر منك ! قال العجاج: كيف تكون أشعر مني وأنا علمتك **عطف الرّجز**؟ قال وما عطف الرجز؟ قال:

***وعاصمٌ ما عاصمٌ لو اعتصمْ ***

فقال: يا أبت: أنا شاعر بن شاعر وأنت شاعر بن مُفْحَم ! فسمى هذا النوع باسم **العطف**، قبل أن يستعمل الأدباء والنقاد مصطلح **الجناس**.(٢٤)

وقد كثرت تعريفات الجناس، كما كثرت أنواعه، وكثرت آراء الأدباء والنقاد فيه ؛ وتعددت أسماؤه.

(٥)

عرَّف صاحب الطراز هذا الفن بأنه: اتفاق اللفظين في وجه من الوجوه مع اختلاف معانيهما(٢٥).

---

(٢٣) المرجع السابق.

(٢٤) عبد الله (لقبه العجّاج) من بني مالك بن سعد. أحد الرجّاز الكبار. توفي سنة ٩٧ تقريبًا. والبيت في ديوانه: ٢٨٦. ورؤبة ابنه، توفي سنة ١٤٥ أو ١٤٧.

(٢٥) الطراز ٣: ٣٥١.

واجتهد جمهرة من النقاد والبلاغيين في تعريف الجناس إيجازًا وتطويلاً، وضرب الأمثلة عليه، وعلى ما يتفرّع منه فكثرت تعريفاتهم وطال كلامهم[٢٦].

على أن تعريف صاحب الطراز يوجز، ويفي على الإجمال. ثم تتفرع فروع هذا الفن، وتكثر أمثلته الملائمة لكل فرع، وتابع.

واهتم الأدباء والنقاد والبلاغيون بفن الجناس بعد ابن المعتز وأدرجوه في مكانه من البحوث والكتب. وألّف فيه صلاح الدين الصفدي كتابًا مستقلاً سمّاه (جنان الجناس)[٢٧]، وأفرده بكتاب مستقل في العصر الحديث الأستاذ علي الجندي، وقد سبقت الإشارة إليه.[٢٨]

وأطالت كتب متخصصة الكلام على الجناس: بين تبيين أنواعه وفروعه وبين ضرب الأمثلة له وتقديم الشواهد الدّالة. وأضاف بعضهم كلامًا في تمييز نوع عن آخر وتفضيل واحد على واحد.

وفِيْمن أطال الكلام: صاحب تحرير التّحبير، وصاحب أنوار الربيع، ومن المحدثين أ. علي الجندي و د. أحمد مطلوب.

وقارئ معجم المصطلحات البلاغية للدكتور مطلوب يعد نحو ٦٢ من أنواع فن الجناس. ويدخل في العدد الأسماء المكرّرة لموضوع واحد أو نوع واحد.[٢٩]

---

(٢٦) انظر مراجعة أ. الجندي في فن الجناس: ٣ – ١٢.

(٢٧) جنان الجناس: لصلاح الدين الصفدي – مطبعة الجوائب – ١٢٩٩ هـ.

(٢٨) فن الجناس – أ. علي الجندي – دار الفكر العربي – ١٩٥٤ م. القاهرة.

(٢٩) معجم المصطلحات البلاغية ٢: ٥١.

وقد كثُر في ديوان أبي الفتح البستي – الذي بين أيدينا – ارتياد أنواع الجناس الشائعة، لكنه اشتهر بهذا النوع الذي سُمّي (المركّب) وسمّاه (المتشابه)، والذي قيل فيمن جاراه إنه: «**يجري على طريقة أبي الفتح البستي**»[٣٠].

ونقرأ في دراسة د. محمد مرسي الخولي محقق إحدى طبعات الديوان: «إذا كان أبو تمام «بطل» الجناس المشتق، والصاحب بن عباد «بطل» الجناس الناقص، فإن أبا الفتح البستي أستاذ الجناس المركب وإمامه الذي لا يبارى».

– فمن شعره في نوع الجناس التام **المماثل**(أو المتماثل) قوله [٣١]: [من الكامل]

قدّم **يدًا** من قبلِ أن تُدْني **يدًا** ومبرّةً من قبلِ أنْ تُدْني فَمَا

فاليد الأولى بمعنى العطية، والثانية: اليد على الحقيقة: الجارحة.

– ومن الجناس المستوفى[٣٢]: [من السريع]

فقال لي: دَعْني، ولا تُؤْذِني حتّى متى **أجري** بلا **أجْرِ**؟

فـ (أجري) فعل، و(أجر) اسم.

– ومن الجناس **المحرّف** قوله [٣٣]: [من الوافر]

أبو رَوْحٍ أدام الله **عِزّه** ألدّ إذا انبرى للخصم **عَزّه**

---

(٣٠) أبو الفتح البستي: حياته وشعره: ١٨٦.

(٣١) أبو الفتح البستي: ١٧٩. ديوانه: ٢٩٠ ط المجمع.

(٣٢) الشعر في أبي الفتح البستي: ١٧٩. وفي ديوانه: ١٠١ ط المجمع.

(٣٣) المحرّف ما اختلف به اللفظان في هيئات الحروف وحركاتها وسكناتها.

فالأولى من العزّ، والثانية: عزّ بمعنى غَلب.

- ومن الجناس الناقص، ويكون بزيادة حرف أو أكثر، قول البستي[٣٤]: [من المجتث]

قــدّم لنفــسك خــيرًا وأنــت مالــكُ مالَــكْ
مــن قبــل أن تتفــانى ولــون حالِــكَ حالِــكْ
لم تــدر أنــك حقًّــا أيَّ **المــسالك ســالك**
لجنّــــةٍ أم لنــــار إلى **ممالــــك مالــــكْ**

والشاهد في البيتين الأخيرين.

- ومن جناس **القلب** [٣٥] قوله[٣٦]: [من مخلع البسيط]

إذا رأيــت الــوداع فاصــبر ولا يهمّنــــك البعــــاد
وانتظــر العــود عــن قريــب فــإنّ قَلْــب **الــوداع: عــادوا**

- ومن جناس **الاشتقاق**[٣٧] قول البستي[٣٨]: [من الطويل]

أقــلُّ نــوالٍ منــكَ يجــبرُ **إقــلالي** ويــنعش آمــالي ويــدعم أحــوالي

(٣٤) أبو الفتح البستي: ١٨١. ديوانه: ١٤٠ ط المجمع.

(٣٥) في جناس القلب يتفق الركنان في نوع الحروف وعددها وهيئتها ويختلفان بالترتيب.

(٣٦) أبو الفتح البستي: ١٨٢. والشاهد من قلب الكل. ديوانه:٢٣٧ ط المجمع.

(٣٧) وفيه يتوافق اللفظان في الحروف الأصلية مع الترتيب والاتفاق في أصل المعنى.

(٣٨) أبو الفتح البستي: ١٨٢. ديوانه: ١٥٦ ط المجمع.

– ومن الجناس المضارع[٣٩] قول أبي الفتح[٤٠]: [من المتقارب]

وأصبحت في **شغلٍ شاغلٍ** قليل **الغَنَاء** كثير **العناء**

– ومن الجناس اللاحق[٤١] قوله[٤٢]: [من مخلع البسيط]

ولا تغرنّك الليالي وبرقها الخلّبُ الكذوبُ

ففي: قفا أنسها **كروب** وفي حشا سلمها **حروب**

– على أن أبا الفتح البستي قد أكثر من نوع الجناس المركب، وتعريفه كما أورده ابن حجّة[٤٣]:

– «أن يكون أحد الركنين كلمة مفردة والأخرى مركبة من كلمتين». وهو على ضربين:

فالأول: ما تشابه لفظًا وخطًّا كقول الشاعر: [من مجزوء الرمل]

عضّنا الدهر بنابه ليت ما حلّ بِنا بِهْ

وقول البستي: [من الخفيف]

ناظراه فيما جنى ناظراه **أو دعاني** أمت بما **أودعاني**

(٣٩) في المضارع يكون الاختلاف بحرف واحد من حروف متحدة في المخرج.

(٤٠) أبو الفتح البستي: ١٨٤. ديوانه: ٢٣ ط المجمع.

(٤١) في اللاحق يكون الاختلاف بحرف يبدل من غير مخرجه.

(٤٢) تقديم أبي بكر: ٢٧. ديوانه: ٢٩، ٣٠ ط المجمع.

(٤٣) تقديم أبي بكر: ٢٨.

فـ (أو) حرف عطف و (دعاني) فعل أمر، وفي الثانية: فعل ماض مع تتمة الجملة الفعلية.

و**الثاني**: ما هو متشابه لفظًا لا خطًّا ويسمى **المفروق**، ومنه قول البستي:

وإن أقــرّ عــلى رقّ **أناملــه** أقـرّ بـالرقّ كتـاب **الأنـام لـه**

فالأنامل الأولى جمع أنملة.

و**الثالث**: يسمى **المرفوء**(٤٤)، وهو أن يكون أحد الركنين جزءًا مستقلاً والآخر جزءًا من كلمة أخرى كقول البستي(٤٥):

سـقى الله أيـام الـشباب فـإنني لبـستُ بهـا بُـردَ الفخـار **قـشيبا**

أضعتُ لها جهلاً قِراها فغادرتْ على سَـخَطٍ منـي المفـارقَ **شـيبا**

فـالأول (قـشيبا) كلمـة واحـدة، والثـاني (ق شـيبا) مجموعـة مـن كلمـة وبعض كلمة ومنه قول الحريري:(٤٦) [من السريع]

و**المكَـر مهـما** اسـطعت لا تأتـه لتقتنــي الــسؤدد و**المكرمَــهْ**

فالأول مكون من كلمة وبعض كلمة، والثاني كلمة تامة.

– وقد قال الثعالبي في صدر التعريف بأبي الفتح:(٤٧)

(٤٤) تقديم أبي بكر: ٢٩ .

(٤٥) أبو الفتح البستي: ١٨٨. ديوانه: ٢٥ ط المجمع.

(٤٦) تقديم أبي بكر: ٢٩.

(٤٧) يتيمة الدهر ٤: ٣٠٢.

«صاحب الطريقة الأنيقة في التجنيس، البديع التأسيس، وكان يسميه **المتشابه**»

وأوّل ما أنشده الثعالبي للبستي في ترجمته من الشعر قوله: (٤٨) [من البسيط]

يا يُوسفَ الحسن ليلي بعد فُرْقتكم يحكي سِنِيْ يوسفٍ طولاً و**تعذيبا**

والشأن في أنني أرمى مِنَ اجْلكم(٤٩) بمثل ما قد رمى إخوانك الذيبا

ومما اختار له في صفة كاتب(٥٠): [من السريع]

يبدع في الكتب وفي غيرها بدائعًا، إن شاء، إنشاء

وأول ما اختاره ابن خلكان من شعره قوله، وهو مشهور(٥١) [من البسيط]

إن هزّ أقلامه يومًا ليعملها أنساك كلَّ كَمّي هزَّ عاملَهُ

وإن أقرّ على رقّ **أناملـه** أقرّ بالرقّ كُتَّابُ **الأنام لهُ**

وهكذا فقد برع البستي في توظيف فن الجناس وكان أكثر ما برع فيه جناس التركيب، الذي نقف عند نماذج منه. وللبلاغيين عند التجنيس أو الجناس مصطلحات كثيرة، وقد يسمى النوع الواحد بأكثر من لقب.(٥٢)

وأدرج ابن رشيق هذا النوع الذي برع فيه البستي وكثر في شعره جناس التّصحيف،

---

(٤٨) يتيمة الدهر ٤: ٣٠٧. ديوانه: ٢٨ ط المجمع.

(٤٩) أجلكم بنقل حركة الهمزة إلى النون قبلها.

(٥٠) المصدر السابق ٤: ٣١٠. ديوانه: ٢٤ ط المجمع وفيه: يُبدع في الخط وفي غيره.

(٥١) وفيات الأعيان ٣: ٣٧٧. ديوانه: ١٥٨ ط المجمع.

(٥٢) انظر ما سرده ابن رشيق في العمدة ١: ٥٤٥ – ٥٦٦.

وقال: «وأكثر من يستعمله الميكالي، وقابوس، وأبو الفتح البستي، وأصحابهم[٥٣]».

وعن كثرة هذا الجناس في شعر أبي الفتح وانتشاره في ديوانه قال الدكتور الخولي[٥٤]: «إن في ديوانه أكثرَ من مئة مثال له».

(٦)

وعبارة «طريقة أبي الفتح البستي في الجناس» لا تحصر ولا تقصر، ولكنها تشير إلى:

١) كثرة إيراد البستي فن الجناس في شعره؛

٢) وإتقانه هذا الفن عامة، والتفاته إلى نوع الجناس المركّب الذي سمّاه هو المتشابه؛

٣) ملاحظة البلاغيين والنقاد هذين العنصرين في شعره وتنبيههم على ذلك قديمًا وحديثًا.

٤) مجاراة عدد من الشعراء أبا الفتح في مقصده البديعي، وتشوّف بعضهم إلى التفوق عليه؛

٥) انسياح هذه الظاهرة من شعر البستي في أطراف الدولة العربية الإسلامية شرقًا وغربًا، والتنبيه على ذلك من المؤرخين في كتب التراجم خاصة، ومن النقاد والبلاغيين.

ومن هنا عُدّ أبو الفتح كما في مقدمة الديوان: «أكبر من سلكوا طريق الجناس وأبدعوا فيه» ولهذا قال الثعالبي في ترجمة أحمد بن الحسين الحمدوني:

---

(٥٣) العمدة ١: ٥٥٨، والمقصود أبو الفضل عبيد الله بن أحمد الميكالي (توفي ٤٣٦) وكان شاعرًا وكاتبًا مترسلاً. وقابوس هو بن وشمكير من أمراء زمانه، شاعر وكاتب (توفي ٤٠٣).

(٥٤) أبو الفتح البستي: ١٨٩.

«وله من الجناس الذي **يُغَبّر في وجه أبي الفتح البستي** قوله: [من الرجز]

ظلمتــك الليلــة **يــا سراجــي** ظلمـة كـافر **ويـاس راجـي**[٥٥]

وعلّق مقدم الديوان «فأبو الفتح إذن هو المقياس الذي يمكن أن يقاس به غيره إذا ما أجاد»[٥٦].

وقد ذكر الثعالبي نفرًا من الشعراء الذين حذَوْا حذو البستي، وفيهم أبو الحسن بن المؤمّل، وأبو القاسم السجزي، ومن شعر ابن المؤمل في هذا القصد:[٥٧] [من البسيط]

طرا عليّ رسول في الكرى طاري مــن الطيــور وأعطــاني **بمنقــار**

كتاب حِبٍّ بعيدِ الدار أملحَ مَنْ يمشي على الأرض من بادٍ **ومن قار**

تركتنــي في بــلاد لا أراك بهــا كأن قلبك من صخر **ومـن قـار!**

(٧)

وترددت أشعار المشارقة التي ولع فيها الشعراء بالبديع عامة، وبالجناس خاصة، في بلاد الأندلس؛ وكان الأندلسيون يجلبون الكتب من المشرق حين صدورها، ويستقبلون المؤلِّفين والكتَّاب والشعراء والعلماء المشارقة.

---

(٥٥) أبو الفتح البستي: ١٩٨ والشعر من تتمة اليتيمة ٢ / ٦١. وقوله (يغبر في وجهه) أي: يسبقه؛ من باب الكناية. والمعنى مستفاد من قول أبي الطيب (ديوانه؛ عزام: ٣٣٨):

إذا شاء أن يلهو بلحية أحمق أراه غباري ثم قال له الْحَقِ.

(٥٦) أبو الفتح البستي: ١٩٨.

(٥٧) المصدر السابق.

وظهر أثر طريقة أبي الفتح البستي في بعض شعراء الأندلس في أواخر العصر الأموي المرواني، وفي عصر الطوائف وفي عصر المرابطين والموحّدين، وعصر بني الأحمر في مملكة غرناطة على اختلاف في الاهتمام والمجاراة والمباراة.

ويمكن أن نقف عند نماذج من كتب التراجم والتراجم الأدبية لرصد طريقة البستي في أشعار الأندلسيين. فقد أورد الحميدي في: جذوة المقتبس[٥٨] وابن بسام في الذخيرة، وابن الأبّار في التكملة قطعًا من أشعار الأندلسيين جاروا فيها البستي في طريقته، مع التنبيه على هذه المجاراة والمتابعة والمساواة أحيانًا؛

١- قال الحميدي في ترجمة أبي بكر أحمد بن سليمان المرواني: أنشدني لنفسه في أبي محمد علي بن أحمد (بن حزم) **على طريقة البستي**: [من المجتث]

لمّـــا تحـــلّى بخلـــق كالمـــسك أو نـــشر **عـــود**
نجـــل الكـــرام ابـــن حـــزم وفـــات في العلـــم، **عـــودي**
فتـــواه جـــدد دينـــي جـــدواه أورق **عـــودي**
أقـــول إذ غبـــت عنـــه يـــا ســـاعة الـــسعد **عـــودي**

فـ (عود) الأولى عود الطيب، و(عودي) الثانية فعل ماض مبني للمجهول من عاداه. وعود الثالثة من عود الشجر أوردها الشاعر على سبيل المجاز، و(عودي) الأخيرة فعل أمر من عاد يعود.

(٥٨) جذوة المقتبس مثلاً: ١١٦ – ١١٧.

٢- وفي ترجمة أحمد بن مسعود الأزدي الشمنتاني نقلاً عن ابن حزم، قال الحميدي في الجذوة[٥٩]: «ومن شعره على نحو طريقة أبي الفتح البستي: [من الكامل]

يـا عـاذلين عـلى الغـرام متـيّمًا ألـف الـصبابة مـالكم و**لعتبـه**

أنّى يفيق على الهـوى مـن نفسه رضيت بضرّ الحب مُـذ **ولعـت بـه**

٣- وقال الحميدي في ترجمة خلف بن هارون القطيني: «أنشدني لنفسه في أبي محمد علي بن أحمد (بن حزم) **على طريقة البستي**: [من المتقارب]

يخـوض إلى المجـد والمكرمـات بحـــار الخطـــوب و**أهوالهـــا**

وإن ذكـــرت للعـــلا غايـــةٌ ترقّـــى إليهـــا و**أهـــوى لهـــــا**

٤- وفي الذخيرة[٦٠]: أنشد الوزير أبو بكر بن القوطية في تجنيس القوافي، عارض بها طريقة أبي الفتح البستي: [من مجزوء الوافر]

ســـــقاني كأســـــه **ولهـــــا** دبيـــــــب زادني **ولهـــــــا**

غـــــزال إن رأى **ولهـــــي** زهـــا عـــن قـــصتي **و لهـــا**

وقال: [من الكامل]

ومنـادم لم أرضَ مـن **أشري بـه** فندمت إذا أصبحتُ غـيرَ **شريبـهِ**

يـا ليـت مـا ألقـاه مـن **أرَقـي بـه** وســهادي انفـردا بعـين **رقيبـهِ**

وقال: [من الخفيف]

(٥٩) جذوة المقتبس: ١٣٨ – ١٣٩.

(٦٠) الذخيرة لابن بسام ٢/ ٢١٥.

ومـــدلٍّ بـــسَقْيه يتلقّـــى نُـــدَمَاه بـــسطوةٍ **واقتـــدارِ**

فمتى أسأل الرجوع لداري قال لي اشرب فلست في **وقـت دارِ**

٥- ومن طريف هذا النوع من التجنيس في أشعار أهل الأندلس أن (اعتماد) زوجة المعتمد بن عباد أمير إشبيلية قالت له وهما في سجن (أغمات) بالمغرب حين نفاهما يوسف بن تاشفين «يا سيدي لقد هنّا هنا» عبارة نفثت بها في ذلك الوضع الصعب فقال المعتمد شعرًا:(٦١) [من مجزوء الرجز]

قالـــت لقـــد هنّـــا هنَـــا مـــولاي أيـــن جاهنـــا ؟

قلـــــت لهـــــا إلى **هنـــــا** صـــــيّرنا **إلهنـــــا**(٦٢)

ويلتقط الباحث قطعًا على هذا المنوال في بعض الدواوين وفي تضاعيف بعض تراجم الأدباء والشعراء.

٦- وكان عصر المرابطين موصولاً بعصر الطوائف فنيًّا، مع ميل إلى نمط من الإجادة والتحسين اللفظي والمعنوي، مع مذهب ابن خفاجة الذي كان هو رأسه؛ وكان معه وبعده أنصار لهذا المذهب وأتباع مبدعون: فيهم ابن الزقّاق، والرُّصافي البَلَنْسي، وأبو المطرّف بن عَميرة المخزومي، وأبو بكر الكُتُنْدي وسواهم. وكان الجناس من أدواتهم الفنية.

(٦١) ديوان المعتمد بن عباد: ١١٤.

(٦٢) في التكملة لابن الأبار والذيل والتكملة لابن عبد الملك، ونفح الطيب للمقري وغيرها.

كقول ابن خفاجة من قصيدة:(٦٣) [من السريع]

علّقــت طرفًــا **فاتنًــا فــاترًا** فيــكِ وَغِــرًّا منــكِ غَــرّارا

ونــــابلاً مـــستوطنًا **بـــابلاً** نفّــاثَ لحــظ العــين ســحّارا

٧- وفي شعر أحد تلامذته أو أتباع مذهبه الفني أبي بكر الكتندي من قطعة في الزهد:(٦٤) [من البسيط]

أنــت الغنــيّ وإن الفقــر بــرّح بي فأغنني بالغنى المغني عن **النّشبِ**

إن تدَّركْني بِرُحْمى لم أخف دركًا وإن تَكِلْنــي إلى نفــسي **فوانــشبي**

وفيها جناس القوافي.

٨- وممن أكثر من تجنيس القوافي في العصر الموحدي بالأندلس ابن جُبير الرحالة المشهور (توفي ٦١٤)، ومن شعره في هذا الغرض:(٦٥) [من السريع]

إيــاك والــشهرة في ملــبسٍ والــبس مــن الأثــواب **أســماها**

تواضُــع الإنــسان في نفــسه أشرف للــنفس **وأســمى لهــا**

وفي قراءة د. فوزي سعد للشعر في عصر الموحدين قال إن ابن جبير «كَلِفَ بهذا الضرب من التجنيس كلفًا شديدًا وأكثر من ترديده»(٦٦):

---

(٦٣) ديوان ابن خفاجة: ١٢.

(٦٤).مجموع شعر الكتندي: القطعة: ٤.

(٦٥) مجموع شعره: ٥١٢ والنص من نفح الطيب للمقري.

(٦٦) الشعر الأندلسي في عصر الموحدين: د. فوزي سعد عيسى ص: ٣١٦.

ونقرأ في شعر ابن حَزمون[٦٧] [من الكامل]

يا مغرب القمرين ليتك مطلع **أو ليت أوليت** الذي نستودعُ

٩- ويدرج الباحث قطعًا من الشعر تابعت هذا النهج مبثوثة في بعض الدواوين أو كتب التراجم، فقد ورد في ترجمة أبي جعفر أحمد بن الحسن بن علي الكلاعي قطعتان، إحداهما:[٦٨] [من الوافر]

يُقال: خصال أهل العلم ألف ومن جمع الخصال **الألف سادا**

ويجمعها الصلاح فمن تعدّى مذاهبه فقد جمع **الفسادا**

١٠- ومن أواخر الإشارات نصًّا إلى اسم أبي الفتح البستي ما ذكره ابن الأبّار في (تحفة القادم) في ترجمة أحد أعلام الأندلس وأعلامهم: أبي الربيع الكلاعي (توفي شهيدًا سنة ٦٣٤) قوله[٦٩]:

وله في طريقة أبي الفتح البستي: [من البسيط]

تعجّبوا لفؤاد الشهم إن آسى مالي وقد جدَّ جِدُّ العمر لا **آسى**

لو لم تعظنيَ نفسي لاتعظّت بأن أرى مثال نعيم الدهر **إبئاسا**

هاتيك أربع صحبي بعد ساكنها لم تُبق فيها النوى نؤيًا ولا **آسا**

فارجع إلى الله يا قلبًا عتا صلفًا فذو الندى في الورى إن يُستبى **آسى**

ولا يروقك توريد الخدود فما تبقي لياليك وردًا لا ولا **آسا**

(٦٧) زاد المسافر: ١٠٧.

(٦٨) الكتيبة الكامنة: لسان الدين بن الخطيب: ٣٧.

(٦٩) المقتضب من تحفة القادم: ١٤١.

تجرّع الصاب في الدنيا عساك تُرى معوضًا منه في دار الرضا **آسا**

١١- آسى في البيت الأول من التأسّي، وإبئاس عكس إنعام من البؤس، والآس في البيت الثالث: أثر البعر ونحوه أو أثر النار، وآسى في البيت الرابع من المواساة، وآس في البيت الخامس نوع من الجنبات (شجيرة لها ثمر طيِّب المذاق ولها ورق يعيش طويلاً بعد قطافه) والآس في البيت الأخير: العسل.

ومن شعر لسان الدين بن الخطيب[٧٠]: [من البسيط]

مالي أهذب نفسي في مطامعها والنفس تألف **تهذيبي وتهذي بي**

إذا سبقت على دهري بتجربة تأبى المقادير **تجريبي وتجري بي**

١٢- ونجد في ديوان ابن خاتمة[٧١] قطعًا مال فيها إلى شيء من الجناس ولم يكتف في بعضها بجناس القوافي والتزم جناس التصريع، فقد جعل كل بيت مصرعًا، مع توشية ذلك بالتجنيس المركب الذي اشتهر به البستي؛ ومن ذلك: [من مخلع البسيط]

يا من بأوصافه **الحَوالي** رِقّيَ في الحبّ قد **حوى لي**

أنوار وجناتك **الجوالي** جَلَيْنَ ذا الوجدَ **والجوى لي**

وفي لَمى ثغرك **الدوا لي** لو علّني بابنة **الدّوالي**

هلا جعلت الرضا **نوالي** بديلَ إيلائك **النوى لي**

فغاية السؤل **والمنى لي** لو كان منكَ الرضا **منالي**

(٧٠) فن الجناس: ٧٨، ولم أجد البيتين في ديوانه (ط الجزائر).

(٧١) ط وزارة الثقافة – دمشق: ١٠٦.

١٣- وورد شيء من الجناس قليل في ديوان عبد الكريم القيسي الأندلسي (توفي ٩٠٠؟) كقوله[٧٢]: [من المتقارب]

سـليل الأماجـد أهـل النـدا نـداء محـب بكـم **مُغـرمِ**

سـواك يطالـب مـثلي ولا يبـالي بـما ابتـاع **بـالمَغرمِ**

على أن الذوق اختلف في صنعة البديع في العصر الغرناطي. ومال الشعراء في مقطعاتهم وطرائف أشعارهم إلى فن التورية؛ ونجد ذلك في ديوان لسان الدين (توفي ٧٧٦)، وديوان ابن خاتمة الأنصاري (توفي ٧٧٠)، وديوان أستاذهما ابن الجياب (توفي ٧٤٩)[٧٣].

وقد أصدر ابن زَرْقالة كتابًا لطيفًا مستقلاً[٧٤] جمع فيه أشعار أستاذه ابن خاتمة المبنيّة على التورية سماه (رائق التحلية في فائق التورية).

خلاصة ونتائج:

١- اشتهر فن الجناس في العصر العباسي واحدًا من فنون البديع التي أكثر منها الشعراء المحدثون. وتفنن الشعراء والكتَّاب في استنباط أنواع منه، وصار نوع منه مرتبطًا باسم أحد شعراء القرن الرابع وأدبائه أبي الفتح البستي.

---

(٧٢) ديوانه: ٤٦٥.

(٧٣) لابن الجياب ديوان مخطوط. وللسان الدين ديوان مطبوع (في الجزائر وفي المغرب) وقد أصدرتُ ديوان ابن خاتمة محققًا (صدر منه ٣ طبعات آخرها في دار الفكر).

(٧٤) صدر عن دار الحكمة – دمشق.

٢- أكثر البستي من نوع الجناس الذي سماه المتشابه ثم عرف بالمركب، وتلوّن بهذا النوع أيضًا، وعُرف ما يقع منه في بيتين متواليين أحيانًا بـ (جناس القوافي) وحاول بعضهم التجنيس في الشطرين من البيت وقيل فيه جناس التصريع (كالذي رأيناه في بعض شعر ابن خاتمة الأنصاري).

٣- سار بعض الشعراء في المشرق على ما جرى عليه البستي في صنعة البديع وقيل فيهم إنهم على **طريقة أبي الفتح البستي**، وظهرت هذه العبارة في الأندلس أول ما ظهرت (بحسب النصوص والأصول التي وصلت إلينا) في كتاب جذوة المقتبس للحُميدي وهو تلميذ الإمام أبي محمد بن حزم وصاحبه وهو من أشهر كتب التراجم الأندلسية.

٤- وكان لابن حزم - كما يبدو – أثر في التنبيه على طريقة البستي وهو يترجم لبعض شعراء الأندلس ممّن تأثر بتلك الطريقة وجرى على نهجها. ومن الطريف ثناء بعض أصحاب ابن حزم وتلامذته عليه بقطع من الشعر فيها هذا الجناس مجاراة له في إعجابه بهذه الصنعة.

٥- كان الشعر الأندلسي بعد عصر الطوائف قد أوغل في صنعة الشعر ومال مع الذوق الشائع الذي ذاع مع مذهب البديع الذي نبه عليه ابن المعتز والذي استمر في الأندلس على حال قريبة مما كان في المشرق دون الإيغال الذي أسرع – عند المشارقة – بالشعر إلى الجُمود.

٦- ظلت متابعة طريقة أبي الفتح البستي في الأندلس (أخذًا بالنصوص التي وصلت إلينا وقياسًا عليها) أقرب إلى الاكتفاء بالإطراف والمشاركة ومحاولة المساماة (لإثبات الذات كما يقال) دون الإسراف الذي كان في ديوان البستي.

٧- غلب هذا النوع من الجناس على المقطوعات الشعرية، ومن هنا كثر عند الشعراء الأندلسيين الذين ارتادوا نوع المقطوعة وأعجبوا بهذا النوع، وقد قال جامع شعر ابن جبير الأندلسي (توفي ٦١٤؟):

«ومقطّعاته تؤلف، من خلال مجموع شعره نسبة عالية، حوالي ثلاثة أرباع شعره».

ولم ينبه على تأثره بالبستي ؛ وتأثره به واضح كقوله: يذكر الفلاسفة[٧٥]: [من السريع]

يـا وحـشة الإسـلام مـن فرقـة شـــاغلة أنفـــسها **بالـــسَّفه**

قـد نبـذت ديـن الهـدى خلفهـا وادّعـــت الحكمـــة و**الفلـــسفه**

وهذا من طريقة البستي.

٨- لم يرد اسم البستي، ولا إشارة إليه في دواوين الشعراء الذين عاصروا ابن حزم والحميدي كابن دراج وابن زيدون وابن شهيد والأعمى التُّطيلي؛ ولا في العصور التالية مثل ابن خفاجة وابن الزقاق والرّصافي البلنسي وابن الأبّار والجزّار السّرقسطي في زمن المرابطين والموحدين وحازم القرطاجني في عصر الموحّدين، ولا في دولة بني الأحمر كابن خاتمة ولسان الدين بن الخطيب وابن فركون وابن الصبّاغ العقيلي والأمير السلطان ابن الأحمر وابن زمرك؛ وإن كان بعضهم يجعل الجناس واحدًا من فنون البديع التي يفيد منها في صنعته الشعرية دون إكثار.

٩- هذا البحث هو إشارة وتنبيه، ونقطة انطلاق تتيح بعد ذلك دراسة شاملة موسّعة ترصد الفنون البديعية في دواوين الشعراء الأندلسيين، وبقايا أشعار من ضاعت دواوينهم، ويستقري ما في كتب التواريخ والتراجم وسائر

(٧٥) مجلة آداب الرافدين: ٤٨٢.

الكتب الأخرى من النصوص المختارة لمتابعة الذوق العام في الصنعة البديعية وغلبة نوع على نوع آخر من فنون البديع، وأثر ذلك في أشعارهم وكتاباتهم، وربط ذلك كله بنظرة واسعة من منظور نقدي وبلاغي وأدبي.

١٠– ومن جهة أخرى تجري مقارنة ما كان في المشرق، وما كان في الأندلس التي ظلّت فيها رنّة الشعر العربي عالية، مع الظروف القاسية التي كانت تعاني منها، في القرون الأخيرة.

المصادر والمراجع:

– أبو بكر الكتندي، حياته وأدبه ومجموع شعره،محمد رضوان الداية، مجلة مجمع اللغة العربية، دمشق، المجلد ٨٢ الجزء ٤.

– أبو الفتح البستي حياته وشعره، د. محمد الخولي، دار الأندلس بيروت ١٩٨٠.

– إحكام صنعة الكلام — محمد بن عبد الغفور الكلاعي (تحقيق محمد رضوان الداية) — دار الثقافة – بيروت — ١٩٦٥.

– تاريخ الأدب العربي، د.عمر فروخ، دار العلم للملايين بيروت ١٩٨٢.

– تتمة اليتيمة — الثعالبي — عُنيَ بنشره عباس إقبال — طهران ١٣٥٣هـ.

– التكملة لكتاب الصلة، ابن الأبار، عزة العطار الحسيني القاهرة ١٩٥٥.

– جنان الجناس، صلاح الدين الصفدي، الجوائب، ١٢٩٩.

– خزانة الأدب وغاية الأرب، ابن حجة الحموي، القاهرة ١٢٩١ هـ.

– ديوان أبي الفتح البستي، تحقيق درية الخطيب و لطفي الصقال، مطبوعات مجمع اللغة العربية دمشق ١٤١٠ هـ — ١٩٨٩.

– ديوان ابن خاتمة الأنصاري، تحقيق محمد رضوان الداية، وزارة الثقافة والإرشاد دمشق ١٩٧٢.

– ديوان ابن خفاجة ـ تحقيق السيد مصطفى غازي، منشأة الإسكندرية ١٩٦٠.

– ديوان ابن الوردي — جمعه د. أحمد فوزي الهيب — دار القلم — الكويت ١٤٠٧ – ١٩٨٦.

- ديوان عبد الكريم القيسي، تحقيق جمعة شيخة ومحمد الهادي الطرابلسي، بيت الحكمة، قرطاج تونس، ١٩٨٨.
- ديوان العجاج – تحقيق د. عزة حسن – مكتبة دار الشرق – بيروت ١٩٧٠.
- ديوان المعتمد بن عباد، جمعه د. حامد عبد المجيد و د. أحمد بدوي – دار الكتب المصرية ١٤٣٠هـ – ٢٠٠٩م.
- الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ابن بسام، تحقيق د. إحسان عباس، دار الثقافة بيروت ١٣٩٨ هـ– ١٩٧٨م.
- الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة، ابن عبد الملك المراكشي، دار الثقافة لبنان.
- رائق التحلية في فائق التورية – ابن زرقالة – تحقيق محمد رضوان الداية – نشر دار الحكمة – دمشق.
- الشعر في العصر المرابطي في الأندلس، د.محمد مجيد السعيد، دار الرشيد، بغداد ١٩٨٠م.
- الشعر في العصر الموحدي، د.فوزي سعد – مصر.
- الطراز للعلوي ١ – ٣ القاهرة.
- العمدة في محاسن الشعر وآدابه، ابن رشيق القيرواني، د.محمد قرقزان، دار المعرفة لبنان، ١٤٠٨ هـ – ١٩٨٨م.
- فن الجناس، علي الجندي، دار الفكر العربي، مصر، ١٩٥٤م.
- الكتيبة الكامنة في شعراء المئة الثامنة، لسان الدين بن الخطيب، تحقيق د. إحسان عباس، دار الثقافة بيروت ١٩٦١م.
- معجم المصطلحات البلاغية، د. أحمد مطلوب، ١-٣ بغداد. المجمع العلمي العراقي ١٤٠٣هـ–١٩٨٣م.
- مجلة آداب الرافدين، جامعة الموصل، العدد التاسع، ١٩٧٨ (بحث ابن جبير الأندلسي شاعرًا، منجد مصطفى بهجة، ٤١٦ – ٥٢٥).
- المقتضب من كتاب تحفة القادم لابن الأبار، اختيار وتقييد أبي إسحاق بن محمد البلفيقي، تحقيق إبراهيم الأبياري، المطبعة الأميرية بالقاهرة ١٩٥٧م.
- وفيات الأعيان، ابن خلكان، تحقيق د.إحسان عباس، دار صادر بيروت، ١٣٩٧ هـ – ١٩٧٧م.
- يتيمة الدهر للثعالبي، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، مصورة دار الكتب العلمية بيروت، د.ت.

الزَّجر والعيافة والطِّيَرَة
في الشعر الجاهلي

د. أحمد عبد المنعم حالو(*)

مرَّ العرب في جاهليتهم كسائر الأمم بطور البداوة، وهذا أمر طبيعي تمرُّ به الشعوب في ارتقائها سلَّم التطور والحضارة، وكان لهم في تلك المرحلة سماتٌ وملامحُ وشمائل ميّزت حياتهم العقلية والروحية، ولعلّ أكثر ما يميّز الرؤية العربية في الجاهلية سيطرة النظرة الحسية المادية إلى الأمور، والافتقار إلى النظرة الشمولية، وبروز النظرة القاصرة التي تتجلى في ضعف التعليل ولا تتكئ إلى نظرة علمية سليمة، ولا عجب في ذلك؛ فأحكام العرب هذه نابعة من المحيط الذي يعيشون فيه، وتتحكم فيهم ظروفه القاسية، فصحراؤهم القاسية تميّزت بقسوة طبيعتها، ومناخها الحار، وندرة مظاهر الخصب والنماء إلاّ في بعض الأماكن التي توجد فيها المياه وخاصةً في أعقاب الأمطار إذ ترتدي الأرض ثوبًا أخضر قشيبًا لا يدوم طويلاً، فسرعان ما تقضي عليه الرياح الحارة الجافة وتكشف عن تربة فقيرة قاحلة لا مكان فيها للحياة.

(*) أستاذ مساعد للأدب القديم في قسم اللغة العربية بجامعة البعث.

وقد فرض هذا المناخ على العرب حياة شاقة صعبة لا تعرف الأمن والاستقرار والهدوء فكانت القبائل العربية في تنقُّل دائم طلبًا للماء والمرعى، ولمّا كان الماء قليلاً والمرعى شحيحًا نشبت النزاعات، وكثرت الأيام والوقائع، وعاش العربي عيشةً مَلأَى بالاضطراب والقلق والخوف، وفي مواجهة دائمة لأعدائه المتربصين به من جانب، والقوى الطبيعية المختلفة من جانب آخر مما جعله يشعر بضعفه وعجزه وحاجته إلى ما يخفف روعه في هذه الصحراء، ويشعره بالطمأنينة والأمان، ويفسر له العديد من الظواهر التي تعترضه في حياته ولا سيما مع غياب الدين الإلهي الذي يوضِّح الكثير من الأمور الغيبية التي يعجز الإنسان عن تفسيرها، ويكون له هاديًا وموجهًا في الملمات والنوائب(١).

وهكذا أنشأ الإنسان العربي أوهامًا وخرافات حاول أن يعلّل بها كثيرًا من الظواهر التي تتصل بحياته في الصحراء مما جعل حكمه بدائيًّا حسيًّا ضالاً وبعيدًا عن الحق والصواب، وحفلت حياته بعاداتٍ كانت له معتقدًا، ومصدرًا مهمًّا لطمأنينة نفسه وراحتها، وليس في هذا الأمر مطعنٌ أو مأخذٌ على العرب، فقد كانت سيطرة الأوهام على النّاس آنذاك سيطرة عامة لأنها تتبع للعواطف والمشاعر لا إلى العقل والتفكير، وفي ذلك يقولُ الحوفي: «إنّما تشيع الأوهام في النفوس لأنّ النّاس يتشابهون فيما يرجع إلى اللاشعور والغرائز، وإن اختلفت طبقاتهم، فهم يتشابهون في الوجدان والشهوات والمشاعر»(٢).

(١) ينظر المفصَّل في تاريخ العرب قبل الإسلام :١/ ٢٦١ وما بعدها، والعصر الجاهلي: ٨٥.

(٢) الحياة العربية من الشعر الجاهلي: ٤٣٤.

ومن هذه العادات والمعتقدات عقر الإبل على القبور، والسحر، والرقى والتمائم، وشق الرداء لتقوية الحب، وكي السليم ليصح الأجرب، وضرب الثور إذا عافت البقر(٣)، والرتم(٤)....وغير ذلك.

ويقف هذا البحث عند بعض العادات السقيمة التي سادت في الجاهلية وبقيت آثارها إلى يوم الناس هذا، وهي (الزَّجر والعيافة والطِّيَرَة) ليرى صداها في الشعر الجاهلي، ويبين تعبير الشعراء عنها وكشفهم لمفهومها ومعانيها، وأثرها في نفوسهم وحياتهم من جهة، وفي المجتمع الجاهلي من جهة أخرى.

أوّلاً : وقفة عند المصطلح :

وقبل ذلك لا بد من الوقوف على المعنى اللغوي والاصطلاحي لهذه الألفاظ، مشيرين بالحديث عن معناها إلى الملامح المشتركة فيما بينها، ومبينين الفروق التي تميّز كلاً منها من الآخر.

١ - الزَّجر:

الزَّجر في الأصل: المنع والنهي والانتهار، وزجرتُ البعير حتى ثار ومضى، وزجرتُ فلانًا عن السوء فانزجر، وهو كالردع للإنسان، وأمّا للبعير فهو

(٣) كان العرب إذا أوردوا البقر فلم تشرب لكدر الماء، أو لقلة العطش ضربوا الثور ليقتحم الماء فتتبعه البقر، وقيل إنّهم زعموا أن الجنّ تصد البقر عن الماء، وأنّ الشيطان يركب قرني الثور، فكأنّهم بضرب الثور يطردون الجن؛ ينظر الحياة العربية من الشعر الجاهلي ٥٠٣-٥٠٥.

(٤) كان الرجل في الجاهلية إذا عزم على سفر يعقد خيطًا في غصن شجرة أو ساقها، فإذا عاد ووجد الخيط على حاله علم أن زوجه حفظت غيبته، وإن لم يجده قال إنّها خانته، وهذا العقد يسمّى الرّتم والرّتيمة؛ ينظر أساس البلاغة والقاموس المحيط ولسان العرب: (رتم).

كالحثّ بلفظ يكون زجرًا له[٥]:

ومن المجاز: الزّجر بمعنى العيافة، وهو يزجر الطير يعيفها، وأصله أن يرمي الطّائرَ بحصاة ويصيح، فإن ولاه في طيرانه ميامنة تفاءل به، أو مياسرة تطيَّر[٦].

ولم يكن الزجر مقتصرًا على الطير وإنّما كانوا يزجرون الوحش أيضًا، فما تيامن منها سمّوه سانحًا، وما تياسر سمّوه بارحًا، نقل ابن منظور عن الليثِ قولَهُ:«الزّجر أن تزجر طائرًا أو ظبيًا سانحًا أو بارحًا فتطَّيّر منه»[٧]، ونقل عن الزجاج قولَهُ: «والزّجر للطير وغيرها التيمن بسنوحها والتشاؤم ببروحها»[٨].

٢- العيافة:

للعيافة معنيان؛ الأول كراهية الطعام والشراب، وعاف الرجل الطعام أو الشراب يعافه عيافًا أي كرهه فلم يشربه[٩]. والثاني حَوَمان الطائر في السماء، وهو ما يعنينا هنا، قال الأزهري: «عاف الطير على الماء وغيره، يعيف عيفًا إذا حام عليه»[١٠] وعاف الطائر: حام في السماء[١١]. وقال ابن منظور: «عافت الطير إذا كانت تحوم على الماء وعلى الجيف تعيف عَيْفًا وتتردّد ولا تمضي تريد الوقوع فهي عائفة»[١٢].

(٥) الصحاح ولسان العرب (زجر).

(٦) تاج العروس: (زجر).

(٧) لسان العرب: (زجر).

(٨) المصدر السابق: (زجر).

(٩) لسان العرب وتاج العروس: (عيف).

(١٠) تهذيب اللغة: ٣/ ١٤٧.

(١١) المخصص: ٢/ ٣٢٩.

(١٢) لسان العرب: (عيف).

ومن هنا اشتق الجاهليون مصطلح العيافة الذي يختص بالطير وحركاتها، وسمّوا من يتكهن بهذا الضرب عائفًا، وأصبحت العيافة تعني: الزجر، وعِفتُ الطير زجرتها؛ قال ابن منظور: عاف الطائرَ وغيرَه من السوانح يعيفه عيافةً زجره، وهو أن يعتبر بأسمائها ومساقطها وأصواتها(١٣).

فالعيافة والزجر إذن يحملان معنىً واحدًا، وهو الاعتبار بأسماء الطير وممرّها ومساقطها وأصواتها والتفاؤل أو التشاؤم بذلك.

٣ - الطِّيَرَة:

قال الخليل: «الطِّيَرَة: مصدرُ قولك: اطَّيَّرْتُ أي تطيَّرْتُ، والطِّيْرَة لغةٌ، ولم أسمع في مصادر افتعل على فِعْلة غير الطِّيرة والخِيرة كقولك: اخْتَرْتُهُ خِيرةً، نادرتان»(١٤).

والطِّيَرَة والتَّطيُّر بمعنى واحد، ومعناهما ما يُتَشاءَمُ به من الفأل الرديء(١٥).

وذكر ابن رشيق القيرواني أنّ أصل الطيرة من أحد شيئين فقال: «والطِّيَرَة مشتقة من أحد شيئين: إمّا من الطيران، كأنّ الذي يرى ما يكره أو يسمع يطير، كما قال بعضهم:

عوى الذئبُ فاستأنستُ للذئبِ إذ عوى وصوَّتَ إنسانٌ فكدتُ أطيرُ

وإمّا من الطَّيْرِ، وهو الأصل والمختار من الوجهين، هكذا ذكر الزجاجي، وكانت العرب تزجر الطير والوحش؛ فمن قال بالقول الأول احتجّ بأنَّ الوحش يُطَيَّرُ بها، وزُجرت مع الطير، ومن قال بالقول الثاني قالَ: إنّما الأصل في الطير، ثم صار في

(١٣) المصدر السابق: (عيف).

(١٤) العين: ٧/ ٤٤٧.

(١٥) الصحاح ولسان العرب وتاج العروس: (طير).

الوحش، وقد يجوز أن يغلب أحد الشيئين على الآخر فيذكر دونه ويرادان جميعًا»[١٦].

وبعد الوقوف على معاني هذه الألفاظ يتبين أن العيافة والزجر يحملان معنىً واحدًا، وإنّما هناك بعض الفروق بينهما وبين الطِّيَرة؛ فالعيافة يكون منها التفاؤل والتشاؤم، وأمّا الطيرة فلا يراد بها إلا التشاؤم. والعيافة تقصد حين يزجر الإنسان الطير فينشأ عن ذلك تفاؤل أو تشاؤم، أمّا الطِّيرة فقد تكون مصادفة من غير أن يعمد إليها الإنسان وربما استعمال الزجر والطيرة بمعنى واحد وأريد بها جميعًا ما كانت العرب تفعله إذا ما أرادوا فعل أمر أو تركه من زجر الطير حتى يطير، فإن طار يمينًا كان له حكم، وإن طار أمامًا كان له حكم، وإن طار من فوق رأسه كان له حكم، وأكثر ما عوّلوا عليه من ذلك الغراب، ثمَّ تعدُّوه إلى غير الطير من الحيوان ثمّ جاوزوا ذلك إلى ما يحدث في الجمادات من كسر أو صدع أو نحو ذلك[١٧]، وربما تطيّروا إذا رأوا أيّ مظهر يدعو إلى التشاؤم حتى صاروا إذا عاينوا الأعور من الناس أو البهائم أو الأعضب[١٨] أو الأبتر[١٩] زجروا عند ذلك وتطيروا عندها كما تطيّروا من الطير إذا رأوها على تلك الحال، فكان زجر الطير هو الأصل ومنه اشتقوا التطير، ثم استعملوا ذلك في كلِّ شيء[٢٠].

(١٦) العمدة ٢/ ١٠٠٧.

(١٧) ينظر صبح الأعشى: ٣/ ٤٥٦.

(١٨) الأعضب: مكسور القرن.

(١٩) الأبتر: مقطوع الذنب.

(٢٠) ينظر الحيوان: ٣/ ٤٣٨.

ثانيًا – اختلاف العرب في الزَّجر والطِّيَرَة:

شاع زجر الطير والوحش وإثارتها عند العرب، وكان للتطير شأن كبير في حياتهم، وكانوا أعلم النّاس بهذا العلم يعتمدونه في حركاتهم وسكناتهم، ويعولون عليه في أفعالهم، ولكنّهم اختلفوا في تفاؤلهم وتشاؤمهم، ولم يكونوا على مذهب واحد في ذلك، فمنهم من يتشاءم بالبارح، ويتبارك بالسانح، ومنهم من يرى خلاف ذلك، ولعلّ السبب في ذلك يعود إلى اختلافهم في معنى السانح والبارح؛ فقد ذكر أبو علي القالي أنّ أبا عبيدة قال: «سأل يونس رؤبة وأنا شاهد عن السَّانح والبارح، فقال: السّانح ما ولاك ميامنه، والسَّانح ما ولاك مياسره»[٢١]، وأضاف: «وقال غيره: السَّانح: ما مرّ عن يمينك، والبارح: ما مرّ عن يسارك. وأكثر العرب تتبرّك بالسانح، وتتشاءم بالبارح، وفيهم قوم يتبركون بالبارح، ويتشاءمون بالسانح»[٢٢].

وقال ابن الأثير: «السَّانح: ما مرَّ من الطير والوحش بين يديك من جهة يسارك إلى يمينك، والعرب تتيمّن به لأنّه أمكن للرّمي والصيد. والبارح: ما مرَّ من يمينك إلى يسارك، والعرب تتطيّر به لأنّه لا يمكنك أن ترميه حتى تنحرف»[٢٣].

وذكر ابن دريد أنّ أهل نجد يتيمنون بالسانح ويتشاءمون بالبارح، ويخالفهم في ذلك أهل العالية فيتشاءمون بالسَّانح ويتيمنون بالبارح، وأنّ السانح هو الذي يلقاك وميامنه عن ميامنك، والبارح الذي يلقاك وشمائله عن شمائلك.[٢٤]

---

(٢١) الأمالي ٢/ ٢٤٠.

(٢٢) المصدر السابق: ٢/ ٢٤٠.

(٢٣) النهاية في غريب الحديث والأثر: (سنح) وينظر اللسان والتاج: (سنح).

(٢٤) جمهرة اللغة: ١/ ٢٧٢.

ونقل ابن رشيق أيضًا عن أبي جعفر النحاس قولَه: «السنيح عند أهل الحجاز: ما أتى عن اليمين إلى اليسار، والبارح عندهم ما أتى من اليسار إلى اليمين، وهم يتشاءمون بالسانح، ويتيمنون بالبارح، وأهل نجد بالضد من ذلك، والسانح عندهم هو البارح عند أهل الحجاز»(٢٥).

ثالثًا – من اشتهر من العرب بالزَّجر والعيافة:

اشتهرت قبيلتان من العرب بالعيافة، وهما قبيلة لِهْب، وهم من بني ثُمالَةَ من الأزد وهم أزجر قوم، وقبيلة أسد.

وقد رويت قصص كثيرة عن براعتهما في العيافة، ولعلّ أبرز ما قيل عن قبيلة لهب في هذا المجال ما ذكر عن نبوءة رجل عائف منهم بشأن رسول الله ﷺ، فكان هذا العائف إذا ما قَدِم مكّةَ أتَاهُ رِجالُ قريش بِغلْمانهم ينظرُ إلَيهم ويعْتافُ لَهم فيهم فَأتى بِهِ أبو طالب وهو غُلام مع من يأتيه فنظر إلى رسولِ اللهّ ﷺ، ثمّ شغلَه عنه شيءٌ، فلَمّا فرغ قال: الغلام! عليّ بهِ؛ فلمّا رأى أبو طالب حرصه علَيه غيّبهُ عنهُ، فَجعل يقول: ويْلكم! رُدّوا عليّ الغلام الذي رأيت آنفًا، فواللهّ ليكوننّ لَه شأنٌ (٢٦).

ومن ذلك ما ذكر عن اللّهبي العائف من بني لهب بن أحجن بن كعب بن الحارث الذي زجر حين وقعت الحصاة بصلعة عمر ﷺ فأدمته، وذلك في الحجّ، فقال: أشعر أمير المؤمنين، واللهّ لا يحجّ بعد هذا العام؛ فكان كذلك(٢٧).

---

(٢٥) العمدة: ٢/ ١٠١٢.

(٢٦) سيرة ابن هشام: ١/ ١٧٩.

(٢٧) الروض الأنف: ١/ ٣١١.

ومما ذكر عن شهرة بني أسد بالعيافة أنّ النّاس قصدوها للأخذ منها، حتى إنّ قومًا من الجن تذاكروا عيافتهم فأتوهم، فقالوا: ضَلَّت لنا ناقةٌ، فلو أرسلتم معنا من يَعِيف فقالوا لغُلَيِّم منهم: انطَلِقْ معهم؛ فاستردَفَه أحدُهم ثم ساروا فلقِيَتهم عُقابٌ كاسِرَةٌ أحد جناحَيْها، فاقشعرّ الغلام وبكى فقالوا ما لَكَ ؟ فقال: كسَرَتْ جَناحًا، ورَفَعَتْ جَناحًا، وحَلَفَتْ باللهّ صُراحًا، ما أنت بإنسي ولا تبغي لِقاحًا[٢٨].

وقد اشتهر بالعيافة أشخاص بعينهم منهم عرّاف اليمامة، والأبلق الأسدي، وحسل بن عامر بن عميرة الهمداني، وجابر بن عمرو المازني، وجندب بن العنبر بن عمرو بن تميم، ومرّة الأسدي وغيرهم، فكانوا يحكمون بذلك ويعملون به، ويتصرفون في حال الأمن والخوف، والسعة والضيق، والحرب والسلم، فإن نجحوا فيما يتفاءلون به مدحوه وداموا عليه، وإن عطبوا فيه تركوه وذمّوه[٢٩].

رابعًا – أهمية العيافة عند العرب:

لم تكن العيافة عند العرب كلها تخيلات وأوهامًا وخرافات، بل كان بعضها حدسًا مبنيًّا على أحداث واقعية حقيقية، كما يتبين في قصة حذام بنت الرّيان التي استدلت بمراقبة القطا على قدوم عاطس بن خلاج وقومه لغزو قومها، فحثّتهم على الارتحال والسير، وقالت: «لو تُرِكَ القَطَا ليلاً لَنَامَا» وبَنَت معرفتها هذه على علمها الدقيق بأحوال الطير، فلو تُرك القطا ما طار تلك الساعة من الليل، فلم يلتفت قومها إلى قولها، فقام دَيْسَمُ بن طارق وقَال بصوت عالٍ:

إذَا قَالَتْ حَذَامِ فَصَدِّقُوهَا فَإنَّ القَوْلَ مَا قَالَتْ حَذَامِ

(٢٨) لسان العرب: (عيف).

(٢٩) ينظر بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب: ٣/ ٣١٣ وما بعدها.

فتحرك القوم ولجؤوا إلى وادٍ قريب وامتنعوا منهم(٣٠).

وكانت العيافة في بعض القبائل الجاهلية عنصرًا أساسيًّا في حياتهم، وكان للعائف مكانته وأهميته عندهم، كما يذكر عن قبيلة هَمْدان التي لم تكن تزوّج إلا شاعرًا أو عائفًا أو عالمًا بعيون الماء(٣١)، وهذا يؤكد أنّ هذه القبيلة كانت تربط بين الزواج وبين حاجات القبيلة في العصر الجاهلي، فهي تحتاج إلى شاعر يكون لسانها بين القبائل، وإلى عائف يتنبأ بأمورها، ويتوقع ما سوف يجري معها، وكذلك إلى عالم بعيون الماء نظرًا لطلبهم الحثيث للماء في صحرائهم نادرة المطر.

خامسًا – الزجر والعيافة والطِّيرة في الشعر الجاهلي:

لا يمكننا أن نتوقع أنّ هناك بابًا خاصًّا في الشعر الجاهلي يقف على معتقدات العرب وأفكارهم التي يؤمنون بها، ويعرِّفنا عاداتهم وتقاليدهم التي تبيّن طبيعة حياتهم والأسس التي قامت عليها إلى مجيء الإسلام وتغييره للعقلية العربية وإعطائها أوجهًا إنسانية وفكرية جديدة، إلا أنّنا نجد هذه الأمور مبثوثة في موضوعات الشعر المختلفة، فقد تكون في الفخر أو المدح أو الهجاء أو الرثاء أو الغزل وغيرها.

ولا نحسب أنّ الشعراء الجاهليين جميعهم قد بثوا في شعرهم معتقداتهم، فقد نجد مثل هذا عند شاعر ما، في حين يخلو شعر شعراء آخرين من ذلك، ولعلّ سبب ذلك ضياع كثير من الشعر الجاهلي في مسيرته حتى وصل إلى عصر التدوين، ولا ننسى قول أبي عمرو بن العلاء: «ما انتهى إليكم مما قالت العرب

(٣٠) مجمع الأمثال: ٢/ ١٧٤.

(٣١) المصدر السابق: ٢/ ٢١٧.

إلا أقله، ولو جاءكم وافرًا لجاءكم علم وشعر كثير»[٣٢].

ومع ذلك نجد مادة وفيرة في الشعر الجاهلي تبين أهم ما تطيّر به العرب، وتوضّح موقف الشعراء من العيافة والطيرة، مما يعكس موقف المجتمع الجاهلي عامة لأنه جزء لا ينفصل عنه.

وقد كان للغراب النصيب الأوفى في أشعارهم، فكان رمزًا للشؤم والفراق، ولعلّ سبب ذلك يعود إلى لونه وعمله واسمه، ويؤكد هذا ما ذكره الجاحظ عنه، فقد ذكر أنّ العرب تتطيّر منه إن كان أسود لسواده، ولاختلاف لونه إن كان أبقع، كما قالوا: (غراب) لاغترابه وغربته، و(غراب البين) لأنّه لا يوجد في موضع خيامهم إلا عند مباينتهم لمساكنهم ومزايلتهم لدورهم؛ كما سمّوه (ابن داية) لأنّه ينقّب عن الدَّبَر حتى يبلغ إلى دَأَيَاتِ العنق وما اتصل بها من خرزات الصُّلب وفقار الظهر، وسمّوه (حاتمًا) إذ كان يحتم الزجر به على الأمور[٣٣].

وهو عند العرب مخادع خبيث لا عهد له، فقد ذكروا في قصصهم أنّ الديك كان نديمًا له، وأنّهما شربا الخمر عند خمّار ولم يعطياه شيئًا، وذهب الغراب ليأتيه بالثمن حين شرب، ورهن الديك فخاس به، فبقي محبوسًا[٣٤].

وأنّ نوحًا عليه السّلام حين بقي في اللّجة أيامًا أرسله فوقع على جيفة ولم يرجع، وفي غدره قال أميّة بن أبي الصّلت[٣٥]:

---

(٣٢) طبقات فحول الشعراء: ٢٢.

(٣٣) ينظر الحيوان: ٣/ ٤٣٩. والدَّبر: جمع الدَّبَرَة: وهي قرحة الدابة والبعير. والدَّأية: فقار الكاهل في مجتمع ما بين الكتفين من كاهل البعير خاصة.

(٣٤) المصدر السابق: ٢/ ٣٢٠. وخاسَ به: غدر به.

(٣٥) ديوانه: ٣٣٨، وينظر الحيوان: ٢/ ٣٢١.

بآيــةِ قــامَ يَنْطِــقُ كــلُّ شيءٍ وخـان أمانـة الـدِّيكِ الغـرابُ

والعامة تضرب به المثل وتقول: ما هو إلا غراب نوح(٣٦).

ولذلك نرى النابغة يتطيّر منه ويجد في نعيبه ولونه الأسود نذير شؤم وفراق للأحبة(٣٧):

زعـمَ البـوارحُ أنّ رحلتنـا غـدًا وبذاك تَنْعابُ الغرابِ الأسـودِ

وهذا ما أوحى به صوتُه لزهير بن أبي سُلمى، فَقَدْ فَقَدَ الأمل بلقاء الأحبة، وعلم أنّ فراقهم أمرٌ مؤكد عندما سمع نعيق غراب البين(٣٨):

فَعَدِّ عمّا ترى ، إذا فـات مطلبُـه أمسى بذاك غرابُ البينِ قد نعقا

وها هو ذا أحد الشعراء الجاهليين يتمنى لو أنّه لم يسمع نعيبه، لما يحمله هذا النعيب من إنذار بالبين والفراق(٣٩):

نَعَـبَ الغـرابُ وليتـه لم ينعَــب بالبين من سلمى وأمِّ الحَوْشَبِ

ويرى حسان بن ثابت في صوته دعاء صريحًا فصيحًا بفرقة الأحباب(٤٠):

وَأَسْمَعَكَ الدّاعي الفَصِيحُ بفُرْقَةٍ وقدْ جَنَحَتْ شمسُ النّهارِ لِتَغْرُبا

وَبيّنَ في صَوْتِ الغُـرَابِ اغـتِرَابُهُم عَـشِيّةَ أَوْفَى غُـصْنَ بـانٍ فَطَرّبَـا

وَفي الطّيرِ بالعَلْيَاءِ إذ عَرَضَـتْ لَنَـا وَمَـا الطّـيرُ إلاّ أن تَمُـرّ وَتَنْعَبَـا

(٣٦) مجمع الأمثال:٢/ ٦٧.

(٣٧) ديوان النابغة الذبياني: ٨٩.

(٣٨) ديوان زهير بن أبي سُلمى: ٦٩.

(٣٩) الشعر والشعراء: ١/ ١٢٦.

(٤٠) ديوان حسان بن ثابت: ١٩.

في حين نجد التَّطير منه أشد عند عنترة إذ يقول(٤١):

ظعـنَ الـذينَ فـراقهم أتوقَّـعُ وجـرى بينهُمُ الغُـرابُ الأَبْقـعُ

حَرِقُ الجناح كـأنَّ لحيي رأسه جَلَـمَانُ بالأَخْبـار هَـشٌّ مُولـعُ

إنَّ الـذينَ نَعَبْـتَ لي بفِـراقهمْ هُمْ أسْهرُوا لَيْلي التّمامَ فأَوْجعوا

وقد تطيّر منه لأمور عدة، لأنّه غراب، ولأنّه أبقع، وحَرِقُ الجناح، كما جعل لِحْيَي رأسه جلمين، والجلم يقطع، وجعله بالأخبار هشًّا مولعًا، وكان نعيبه عنده كالخبر المفهوم(٤٢).

وهذا يؤكد قول الجاحظ عن العرب: «ولا شيء مما يتشاءمون به إلاّ والغراب عندهم أنكد منه، يرون أنّ صياحه أكثر أخبارًا، وأنّ الزّجر فيه أعمّ»(٤٣).

وكانوا لشدة بغضهم له وتشاؤمهم منه كلما ذكروا شيئًا مما يتطيّرون منه ذكروا الغراب معه، فها هو ذا الأعشى يذكر الغراب وشؤمه مع التيس(٤٤):

ما تَعِيفُ اليومَ في الطَّيْرِ الـرَّوَحْ مِنْ غـرابِ البَيْنِ أَوْ تـيسٍ بَـرَحْ

وهذا ما نجده عند عدي بن زيد العبادي في قوله(٤٥):

---

(٤١) ديوان عنترة: ٢٦٣.

(٤٢) ينظر الحيوان: ٣/ ٤٤٢. والجَلَم: الذي يجزُّ به الشعر والصوف، وطائر حرق الجناح: إذا نَسل ريشه، كأنّه يحترق فيسقط. والجَلَمان: شفرتاه، وليل التِّمام: الشديد الطول.

(٤٣) المصدر السابق: ٢/ ٣١٦.

(٤٤) ديوان الأعشى: ٢٧٣.

(٤٥) الحيوان ٣/ ٤٣٧، والصرد: طائر ضخم الرأس يصطاد العصافير، ومن أسمائه أيضًا الأخيل والأخطب. القاموس المحيط: (وقى)، والعمدة: ٢/ ١٠٠٩.

دعا صُرَدٌ يومًا على غصْنِ شوْحَطٍ وصاح بذاتِ البيْنِ منها غرابُها

فقلت: أتصريدٌ وشحطٌ وغرْبةٌ فهذا لعمري نأيُها واغترابُها

ويبدو واضحًا أنّ عديًّا هنا لم يتشاءم من صوت الغراب والصرد فحسب، وإنّما تشاءم من اسميهما واسم شجرة الشوحط معهما، فالعرب يتطيرون من أشياء كثيرة من جهة التسمية(٤٦)، فالصرد من التصريد وهو البرد، والشوحط من الشحط وهو البعد، والغراب من الغربة.

فالجاهليون استمدوا من اللغة عناصر أسهمت في تكوين مفهوم العيافة والزجر، وكانوا يقيسون النظائر اللغوية بالنظائر الحياتية، ويقارنون بين الألفاظ المتشابهة والمتباينة في ضوء حدسهم اللغوي، وهذا ما يتبين من قول سوَّار بن المضرّب متطيّرًا من شجرتي الغرب والبان(٤٧):

تغنّى الطائران ببينِ ليلى على غصنين من غَرْبٍ وبانِ

فكان البانُ أن بانتْ سُليمى وفي الغَرْب اغترابٌ غيرُ دانِ

فاشتق الاغتراب من الغرب، والبينونة من البان.

ويتضح كذلك في قول جران العود(٤٨):

جرى يوم رُحْنا بالجمال نُزِفُّها عُقابٌ وشَحَّاج من البين يَبْرحُ

فأمَّا العُقاب فهي منها عقوبة وأمّا الغُراب فالغريب المطوَّحُ

(٤٦) العمدة: ٢/ ١٠١٢.

٤٧) الحيوان: ٣/ ٤٤٠.

(٤٨) المصدر السابق: ٣/ ٤٤١، والغريب المطوّح: البعيد.

فقد اشتق من العقاب العقوبة، ومن الغراب الغريب.

ولم يقف تشاؤم العرب على ما ذكر من طير وحيوان ونبات فقد تشاءموا بطيور أخرى كالجراد والبازي والرخم والوطواط والبوم وطيور الليل عامة، وبحيوانات أخرى كالثور الأعضب والأبتر والقعيدة والنطيح(٤٩)، وتشاءموا من الإبل أيضًا لأنّها تحمل الظعائن وتشتت الخلان وتفرقهم، حتى إنّ عوفًا الرّاهب(٥٠) ذمّ النّاس الذين يتشاءمون من الغراب، ورأى أنّ التشاؤم من الإبل أولى(٥١):

غلطَ الذينَ رأيتهمْ بجهالةٍ يَلْحَوْنَ كلُّهمُ غُرابًا يَنْعَقُ

ما الذَّنبُ إلاَّ للأباعرِ إنَّها مما يُشِتُّ جميعُهمْ ويفرِّقُ

ويدخل في الطيرة أيضًا ما قد يصدر عن الإنسان والحيوان من أفعال وحركات كالتثاؤب والعطاس، وها هو ذا امرؤ القيس يتشاءم بالعطاس قائلاً(٥٢):

وقد أغتدي قبل العُطَاسِ بهيكلٍ شديدِ مَشَكِّ الجنْب فَعْمِ المُنَطَّقِ

فكان الشاعر يذهب للصيد قبل أن يستيقظ النّاس من نومهم ويسمع عطاسهم فيتشاءم بذلك.

---

(٤٩) العمدة: ٢/ ١٠٠٨-١٠٠٩، والمفصّل في تاريخ العرب قبل الإسلام: ٦/ ٧٩٧. والأعضب: مكسور القرن، والأبتر: مقطوع الذنب، والقعيدة: ما أتاك من ورائك من ظبي أو طائر، والنطيح: ما استقبلك من أمامك من طائر أو ظبي أو وحش.

(٥٠) كاهن وشاعر جاهلي، ينظر ترجمته في معجم الشعراء: ٢٧٦.

(٥١) الزهرة: ١/ ٣٤٩.

(٥٢) ديوان امرئ القيس: ١٧٢. وقيل معنى العطاس: انفجار الصبح، اللسان (عطس). وشديد مشكّ الجنب: شديد مغرز الجنب في الصلب، وفعم المنطّق: ممتلئ الجوف.

ولكن لم يكن النّاس جميعهم في العصر الجاهلي يؤمنون بالطيرة، وكان بعضهم يرى ذلك وهمًا لا يستند على حجة أو منطق أو عقل، ولذلك نرى أناسًا منهم أنكروها ولم يحفلوا بها، وقد ندّد كثيرٌ من الشعراء الجاهليين بها، ورأوا أنّها تردُّ النّاس عن وجهتهم وتدعوهم إلى التراجع والإحجام، ومن هؤلاء الشعراء خُزَزُ بن لَوْذان السدوسي الذي يقول(٥٣):

لا يمنعنّـــك مـــن بغـــا ء الخـــير تعقيـــد الـــتمائمِ
ولقـــد غـــدوت وكنـــت لا أغـــدو عـــلى واقٍ وحـــاتمِ
فـــإذا الأشـــائم كالأيـــا مـــن والأيـــامن كالأشـــائمِ
وكـــــذاك لا خـــــير ولا شرّ عـــلى أحـــدٍ بـــدائمِ

وينصح الحارث بن حِلِّزة اليشكري المزمعَ على الرحلة ألا يثنيه زاجر الطير ولا يعوقه الغراب ولا الحيوان مكسور القرن الذي يأتيه من خلفه(٥٤):

يـــا أيهـــا المزمِـــعُ ثـــمَّ انثنـــى لا يثْنِكَ الحازِي ولا الشَّاحِجُ
ولا قعيـــدٌ أعـــضبٌ قرْنُـــهُ هـــاجَ لـــه مـــن مَرْبَـــعٍ هـــائِجُ

وزبّان بن سيار الفزاري كان ينكر الطيرة أيضًا ويدفعها، فقد خرج يومًا مع النابغة الذبياني للغزو، وكان النابغة من المتطيرين، فبينما هما يريدان الرحلة

(٥٣) معجم الشعراء:١٠٢. والواقي: الصرد، والحاتم: الغراب.

(٥٤) الحيوان ٣/ ٤٥٠، ولم أجدها في ديوان الحارث. والحازي: زاجر الطير. والشاحج: الغراب. والقعيد: الذي يأتي من الخلف، والأعضب: مكسور القرن، وكانت العرب تتشاءم منهما.

سقطت جرادة على ثوب النابغة فتطيّر وعاد، وأمّا زبّان فمضى وعاد من تلك الغزوة سالمًا غانمًا، فأنشأ يذكر شأن النابغة، ويبين أنّ الطير لا أثر لها في حياة الإنسان، وأنّ ما يتحقق منها ليس إلا ضربًا من المصادفة(٥٥):

تخــبَّرَ طــيْرَهُ فيهــا زيــادٌ لتخْــبِرَه ومــا فيهــا خبــيرُ
أقــام كــأنَّ لقــمان بــن عــادٍ أشــار لــه بحكْمتــه مُــشيرُ
تعلَّــمْ أنّــه لا طــير إلاّ عــلى متطــيِّرٍ وهــو الثُّبُــورُ
بــلى شيءٌ يوافــق بعــض شيءٍ أحايينــا وباطلُــهُ كثــيرُ

وهذا ما يؤكده طرفة بن العبد الذي رأى أنّ العواطس والظباء والعقاب – وهي ممّا يتشاءم منه العرب – لا تؤثر في رزق العبد، ولا يدفع التشاؤم منها ما يمكن أن يصيبه(٥٦):

لعمري لقد مرَّتْ عواطِسُ جمّةٌ ومرَّ قبيل الصّبحِ ظبيٌ مُصَمَّعُ
وعجـزاءَ دفّـتْ بالجنـاح كأنّهـا مع الصبح شيخٌ في بجاد مقنَّعُ
فلـن تمنعـي رِزقًـا لعبـد ينالُـه وهل يَعْدُوَنْ بؤساكِ مـا يتوقَّـعُ

وعوف بن عطية بن الخرع التيمي لا يعبأ بالطير أيضًا، وقومه كذلك إذ يقصدون البلاد كما يريدون غير متوجسين من الطير شرًّا أينما اتجهت وطارت، ولا فرق عندهم بين السّانح منها والبارح(٥٧):

(٥٥) الحيوان: ٣/ ٤٤٧. والثبور: الهلاك والخسران.

(٥٦) ديوان طرفة: ١٧٥. والعواطس: جمع عاطس، وكان العرب يتطيرون من العطاس، والمصمّع: صغير الأذنين، وقيل هو الأقرن. والعجزاء: العقاب، وجعلها عجزاء لبياض عجزها، ودفّت بجناحها: ضربت به.

(٥٧) المفضليات: ٤١٥.

نَــؤُمُّ الــبِلاَدَ لِحُــبِّ اللِّقــاءِ ولا نَتَّقِـي طـائِرًا حيـثُ طَـارَا
سَــنَيحًا ولا جارِيًــا بارِحًــا عـلى كـلِّ حـالٍ نُلاقِـى اليَسَارَا

ولم يقتصر علقمة بن عبدة التميميّ على إنكار التطير بل رأى أنّه شؤم على من يؤمن به؛ لأنّه يمنعه عن غايته وتحقيق مراده(٥٨):

ومن تعرَّضَ للغِربـانِ يَزجُرُهـا عـلى سـلامته لا بـدَّ مـشؤومُ

خاتمة

وبعد، فهذه تطوافة سريعة، ولمحة موجزة عن الزجر والعيافة والطيرة في الشعر الجاهلي، وقد بدا جليًّا كيف استطاع هؤلاء الشعراء أن ينقلوا إلينا صورة صادقة حيّة عن هذا المعتقد الذي كان له كبير الأثر في العصر الجاهلي، فمن آمن به وصدّقه ضمنه شعرَه الذي كان ولا يزال ناقلاً أمينًا لأفكار الشعراء ورؤاهم وتطلعاتهم وعواطفهم وأحاسيسهم، ومن لم يعتقد به ودحضه لم يألُ جهدًا في بيان ذلك في شعره أيضًا.

وقد جاء الإسلام ليبين صحة ما ذهب إليه هؤلاء الذين رفضوا العيافة والطيرة، دافعًا كلَّ العادات السقيمة والمعتقدات المريضة التي لا دور للعقل والفكر فيها، فهو الدين القويم الذي رد الجهل والأوهام والخرافات وأقرَّ عقيدة التوحيد، وبيَّن أنّ الله وحده عالم الغيب وبيده وحدَه قضاء حاجات النّاس ومتطلباتهم؛ فقد قال سبحانه وتعالى: ﴿قُلْ لا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ الْغَيْبَ إِلاَّ اللهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ [النمل:٦٥](٥٩).

وبيّن ﷻ أنّ الطيرة من صنيع أعداء الرّسل، وذلك قوله تعالى عن قوم

(٥٨) ديوان علقمة الفحل:٦٧.

(٥٩) وينظر الجامع لأحكام القرآن: ١٣/ ٢٢٦.

فرعون: ﴿فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَلا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف:١٣١](٦٠)

فقد كان آل فرعون إذا أصابتهم الحسنة من خصب وسعة وعافية قالوا: نحن جديرون بها، وإن تصبهم سيئة من بلاء وقحط يَطَّيّروا بموسى ومن معه فيقولون: هذا بسبب موسى وأصحابه، أصابنا شؤمهم، وإنّما الشؤم بكفرهم وتكذيبهم بآياته ورسله.

وجاءت السنة الشريفة أيضًا بنفي الطيرة وتحريمها، ودعا رسول الله ﷺ لإبدالها بالفأل الحسن فقال: «لا طيرة، وخيرها الفأل» قالوا:وما الفأل؟ قال: «الكلمة الصالحة يسمعها أحدكم»(٦١). وقال ﷺأيضًا «لا عدوى ولا هامة ولا طيرة، وأحب الفأل الصالح»(٦٢).

وهكذا كان الإسلام يحث على التفاؤل الذي يقوي العزيمة، ويحضُّ على العمل ويدعو الإنسان إلى التقدم، في حين تكسر الطيرة نيته وتثنيها، وتصده عن وجهته، فلا يحقق مرامه وأهدافه بسبب خرافات وأوهام لا يجوز لعاقل فَطِنٍ أن يعتقد بها.

المصادر والمراجع

١- **أساس البلاغة**: للزمخشري، تحقيق: عبد الرحيم محمود، دار المعرفة، بيروت١٩٨٢م.

٢- **الأمالي**: لأبي علي القالي، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت١٩٨٠م.

٣- **بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب**: للآلوسي، منشورات دار الشرق العربي، لبنان.

٤- **تاج العروس**: للزبيدي، مطابع حكومة الكويت١٩٦٥م وما بعدها.

٥- **تهذيب اللغة**: لأبي منصور الأزهري، تحقيق محمد عوض مرعب، بيروت٢٠٠١م.

٦- **الجامع لأحكام القرآن**: لأبي عبد الله محمد القرطبي، دار إحياء التراث العربي، بيروت ١٩٨٥م.

٧- **جمهرة اللغة**: لابن دريد، تحقيق د. رمزي بعلبكي، دار العلم للملايين، بيروت ١٩٨٧م.

(٦٠) وينظر الجامع لأحكام القرآن: ٧/ ٢٦٤.

(٦١) صحيح البخاري: ٥/ ٢١٧١.

(٦٢) صحيح مسلم: ٤/ ١٧٤٦.

٨- **الحياة العربية من الشعر الجاهلي**: د.أحمد الحوفي، دار القلم، بيروت.
٩- **الحيوان**: للجاحظ، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، ط٢ مطبعة البابي الحلبي مصر دون تاريخ.
١٠- **ديوان الأعشى الكبير**: شرح وتعليق د.محمد محمد حسين، المكتب الشرقي للنشر، بيروت.
١١- **ديوان امرئ القيس**: تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط٥، دار المعارف، القاهرة ١٩٩٠م.
١٢- **ديوان أمية بن أبي الصّلت**: صنعة د.عبد الحفيظ السطلي، ط٣، المطبعة التعاونية، دمشق.
١٣- **ديوان الحارث بن حلِّزة اليشكري**: إعداد وتقديم: طلال حرب ط١، دار صادر، بيروت ١٩٩٦م.
١٤- **ديوان طرفة بن العبد**: شرح الأعلم الشنتمري، تحقيق: درية الخطيب ولطفي الصقال، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق، ١٩٧٥م.
١٥- **ديوان عنترة بن شداد**: تحقيق: محمد سعيد مولوي، المكتب الإسلامي دمشق.
١٦- **ديوان علقمة الفحل**: تحقيق لطفي الصقال ودرية الخطيب، ط١، حلب١٩٦٩م.
١٧- **ديوان النابغة الذبياني**: تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ط٢، دار المعارف، القاهرة ١٩٨٥م.
١٨- **الزهرة**: لأبي بكر الأصبهاني، تحقيق د.إبراهيم السامرائي، ط٢، مكتبة المنار، الأردن ١٩٨٥م.
١٩- **شرح ديوان حسان بن ثابت**: تحقيق عبد الرحمن البرقوقي، المطبعة الرحمانية، مصر١٩٢٩م.
٢٠- **الشعر والشعراء**: لابن قتيبة، تحقيق أحمد محمد شاكر، دار المعارف، القاهرة ١٩٨٢م.
٢١- **شعر زهير بن أبي سلمى**: صنعة الأعلم الشنتمري، تحقيق د.فخر الدين قباوة، دار الآفاق الجديدة، بيروت ١٩٨٠م.
٢٢- **صبح الأعشى في صناعة الإنشا**: لأحمد بن علي القلقشندي، تحقيق: محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان ١٩٨٩م.
٢٣- **صحيح البخاري**، تحقيق د.مصطفى البغا، دار ابن كثير، دمشق١٩٩٠م.
٢٤- **صحيح مسلم**، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
٢٥- **العصر الجاهلي**: د.شوقي ضيف، ط٥، دار المعارف، مصر.
٢٦- **العمدة** : لابن رشيق، تحقيق د.محمد قرقزان، ط٢، مطبعة الكاتب العربي، دمشق، ١٩٩٤م.
٢٧- **مجمع الأمثال**: لأحمد بن محمد الميداني، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، دار القلم، بيروت.
٢٨- **معجم الشعراء**: لمحمد بن عمران المرزباني، تهذيب د.كرنكو، ط٢، دار الكتب العلمية ١٩٨٢م.
٢٩- **المفصّل في تاريخ العرب قبل الإسلام**: د.جواد علي، ط٣، دار العلم للملايين، بيروت، ومكتبة النهضة بغداد، ١٩٨٠م.
٣٠- **المفضليات**: للمفضل الضبي، تحقيق وشرح: أحمد محمد شاكر وعبد السلام هارون، دار المعارف، القاهرة ١٩٧٩م.

أثر التشبيه البليغ بأسلوب التركيب الإضافي
في بناء الصورة الفنية في شعر أبي تمام

د. عبد الهادي خضير(*)

تمثِّل الصورة البلاغية، فاعلية لغوية خلاقة، تعمل في بنية النص الشعري، للتعبير عن الأفكار والأحاسيس، وتجسيمها.

والتشبيه واحد من وجوه نشاط خيال الشاعر، وجودته متأتية من تمكُّنه من إحداث التخييل المناسب في نفس المتلقي، ودفعه إلى اتخاذ الموقف المطلوب، ولذا كان التشبيه أول وجوه الصورة البلاغية، وأكثرها جذبًا لانتباه الشعراء فضلاً عن رواة الشعر ونقاده. فقد بدأ الإحساس بأهميته في الشعر مبكرًا واقترنت جودته بجودة الشعر نفسه، فها هو الفرزدق يسجد حين يسمع تشبيه لبيد في قوله:

وجلا السيولُ عن الطلولِ كأنها زبــرٌ تجــدُّ متــونَها أقلامُهــا

ويقول: «إنا نعرف مكان السجود في الشعر، كما تعرفونه في القرآن»(١).

وتتفاوت فنية الصورة التشبيهية بتفاوت أنواع التشبيه، هذه الأنواع، هي في حقيقتها، ضروب للخيال الذي خلقها، إذ تتفاوت درجة الخيال، في كل لون من

(*) باحث في الأدب والبلاغة من العراق.

(١) الموازنة: ١/ ٤٦٢.

ألوان التشبيه، بتفاوت تركيب أسلوبه، سواء أكان تشبيهًا مفردًا أم مركبًا أم ضمنيًّا أم مقلوبًا، أم بليغًا، لاسيما الأخير منه، أي التشبيه البليغ، لأن حذف أداة التشبيه ووجه الشبه، والاكتفاء من أركان التشبيه، بالمشبَّه والمشبَّه به فقط، يوهم اتحادهما، ويبدوان كأن لا حدود بينهما، وفي ذلك مبالغة وإغراق في الادعاء بأن المشبه هو المشبه به نفسه، ولو كانا كذلك حقيقةً لما قامت الحاجة إلى التشبيه أصلاً، فقاعدة التشبيه تقوم على فرضية مؤداها أن وجه الشبه يجب أن يكون أقوى وأوضح في المشبه به منه في المشبه، والتشبيه إنما يقوم على هذا التفاوت بينهما، إذ يعمل المشبه به على تقريب صورة المشبه وحقيقته إلى ذهن المتلقي، ولذا عُدّ التشبيه نوعًا من المقايسة. أما التشبيه البليغ فإنه يجعل طرفي التشبيه على درجة واحدة من قوة وجه الشبه، وهو ما يحققه حذف الأداة، أما حذف وجه الشبه فإنه يفتح المجال واسعًا أمام الذهن لتصور أكثر من لون من ألوان العلاقة التي تربط طرفي التشبيه، دون أن يحدَّ ذلك بصفة أو صفات جرى ذكرها في الكلام.

على أن قوة الخيال في التشبيه البليغ تتباين – هي أيضًا – بتباين تركيب أسلوبه، الذي ينقسم على ضروب، أشهرها[٢]:

١ – المشبه والمشبه به، مبتدأ وخبر، أو ما أصله مبتدأ وخبر، كقول أبي تمام من الضرب الأول:

هوَ الغيثُ، لو أفْرطتُ في الوصف عامدًا لأكـذبَ في مدحـه مـا كنـتُ كاذبـا[٣]

فقوله: (هو الغيث) تشبيه بليغ بأسلوب المبتدأ والخبر. ومثال الضرب الثاني، قوله:

إن الحَمَامَيْن من بيضٍ ومن سُـمرٍ دلوا الحيـاتين مـن مـاءٍ ومـن عُـشُبِ

(٢) ينظر: علم أساليب البيان: ١٥٤–١٥٦، والبلاغة والتطبيق: ٢٩١–٢٩٢.

(٣) الديوان: ١/ ٢٤١.

فقوله: (إن الحمامين... دلوا الحياتين) تشبيه بليغ بأسلوب ما أصله مبتدأ وخبر. وكذلك قوله:

ولطالَما أمسى فُؤادُك مَنزِلاً ومَحَلَّةً لظباء ذاك المنزل

فقوله: (أمسى فؤادك منزلاً) تشبيه بليغ بأسلوب ما أصله مبتدأ وخبر أيضًا.

٢- **المشبه مقصور على المشبه به ومحصور معه في حدود مدلوله، وذلك بأسلوب القصر والحصر**، كقوله:

أَأَيّامَنا ما كنتِ إلا مَوَاهبًا وكُنتِ بإسعافِ الحبيبِ حَبائبا

سَنُغْرِبُ تجديدًا لعهدِكِ في البُكا فما كنتِ في الأيام إلا غرائبا(٤)

فقوله: (ما كنتِ إلا مواهبا) و(فما كنت.. إلا غرائبا) تشبيه بليغ بأسلوب القصر والحصر.

٣- **المشبه به مصدر مبين للنوع (مفعول مطلق)** كقوله:

تصرّحَ الدهرُ تصريحَ الغَمام لها عن يوم هيجاءَ منها طاهرٍ جنبِ

فقوله: (تصرّحَ الدهرُ تصريحَ الغمام) تشبيه بليغ بأسلوب المفعول المطلق.

٤- **المشبه به حال من المشبه**، كقوله:

بمُدامةٍ تغْدو المُنى لكؤوسها خَوْلاً على السَّرَّاء والضَّراءِ

فقوله (تغدو المنى... خولاً) أي معينة تشبيه بليغ بأسلوب الحال.

٥- **المشبه والمشبه به مربوطان بحرف الجر، سواء تقدم المشبه أو المشبه به**، كقوله من الأول:

فلمّا رآه الخُرَّميُّون والقنا بوَبْلٍ أعاليه مُغيثَ الأسافلِ

(٤) الديوان: ١/ ٢٣٨.

فقوله (القنا بوبل) أي (القنا كالوبل) فهو تشبيه بليغ ربط فيه المشبه (القنا) بالمشبه به (الوبل) بحرف الجر (الباء) وكقوله من الثاني:

سأوطِئُ أهْلَ العسكرِ الآن عَسْكَرًا مـن الـذُّلِّ محَّـاءً لتلـكَ المعالــمِ

فقوله: (عسكر من الذل) أي (الذل كالعسكر) فهو تشبيه بليغ ربط فيه المشبه (الذل) بالمشبه به (عسكر) بحرف الجر (من).

٦- **المشبه به مفعولٌ به**، كقوله:

مِنْ كلِّ قَرْمٍ يرى الإقدامَ مأدبَةً إذا خَـدَا مُعلـمًا بالـسَّيفِ أو وَسَـجا

فقوله: (يرى الإقدام مأدبة) تشبيه بليغ بأسلوب المفعول به.

٧- **المشبه والمشبه به في تركيب إضافي، نلمس فيه المشبه به مضافًا إلى المشبه**، كقوله:

ألبــسَكَ اللهُ ثــوبَ عافيــةٍ في نومِكَ المُعترى وفي أرقِكْ[٥]

فقوله: (ثوب عافية) تشبيه بليغ بأسلوب التركيب الإضافي إذ أصل التشبيه (العافية كالثوب) جرى حذف أداة التشبيه لكونه تشبيهًا بليغًا فصار التشبيه (العافية ثوب) ثم أضيف المشبه به (ثوب) إلى المشبه (عافية) فصار التشبيه (ثوب العافية).

وهذا اللون من التشبيه البليغ هو الذي سندير عليه كلامنا في بحثنا عن التشبيه البليغ في شعر أبي تمام.

بين التشبيه البليغ والاستعارة

تعرَّض مبحثا التشبيه البليغ والاستعارة لخلطٍ كبير في كتب البلاغة والنقد القديمة عندنا، وذلك لأن التشبيه البليغ قد جرى فيه حُذف أداة التشبيه ووجه

(٥) الديوان: ٢/ ٩٥.

الشبه معًا، بما سمح بحدوث مثل هذا الخلط، حتى عند أشهر البلاغيين والنقاد العرب، فها هو أبو هلال العسكري يعد قول الوأواء الدمشقي:

وأسبلَتْ لؤلؤًا من نرجسٍ وسقتْ وردًا وعضّتْ على العُنّاب بالبَرَدِ

من أتم التشبيه «فشبه خمسة أشياء بخمسة أشياء، في بيت واحد الدمع باللؤلؤ والعين بالنرجس والخدود بالورد والأنامل بالعناب والثغر بالبَرَد»(٦)، وهو ما ذهب إليه ابن رشيق القيرواني أيضًا، فهو عنده «تشبيه خمسة بخمسة... وأتى به بغير آلة التشبيه»(٧)، كما أنه أورد كلامه هذا في مبحث التشبيه لا الاستعارة بما يؤكد رسوخ قناعته، أن هذا البيت هو من التشبيه لا من الاستعارة. على حين تنبه بلاغيون آخرون على أن ما ورد في البيت هو استعارة لا تشبيه، ومن هؤلاء ابن الأثير، الذي توقف عند هذه القضية في بحثه للاستعارة، وخصص لها مبحثًا في كتابه، سماه (الفرق بين التشبيه والاستعارة) فقال منبهًا على هذا الغلط: «وهذا التشبيه المضمر الأداة قد خلطه قوم بالاستعارة، ولم يفرقوا بينهما، وذلك خطأ محض»(٨) مؤكدًا أن الفيصل في هذا الموضوع هو ذكر طرفي التشبيه، أو أحدهما، فإذا ذُكر طرفا التشبيه في الكلام فهو تشبيه، أما إذا حُذف أحدهما، فهو استعارة، يقول: «وعلى هذا فإن الاستعارة لا تكون إلا بحيث يُطوى ذكر المستعار له، الذي هو المنقول إليه، ويُكتفى بذكر

(٦) الصناعتين / ٢٥٧.

(٧) العمدة: ١/ ٢٩٤.

(٨) المثل السائر: ٢/ ٧٢.

المستعار الذي هو المنقول»[٩]. ويلاحظ أن ابن الأثير نصّ على حذف المشبّه (المستعار له) والاكتفاء باللفظ المنقول (المستعار) حتى يكون الكلام استعارة، ولم يشر إلى جواز حذف (المستعار منه) المشبه به، والاكتفاء بلازمة من لوازمه تنسب إلى (المستعار له) المشبه، وهو ما يعرف بـ(الاستعارة المكنية)، وما ذكره ابن الأثير هو ما يعرف بـ(الاستعارة التصريحية).

والحقيقة أن القاضي الجرجاني، قد سبق ابن الأثير في التنبيه على هذا الخلط عند البلاغيين، إذ قال: «وربما جاء من هذا الباب ما يظنه الناس استعارة، وهو تشبيه أو مَثَل، فقد رأيت بعض أهل الأدب، ذكر أنواعًا من الاستعارة، عُدَّ فيها قول أبي تمام:

والحــبُّ ظهــرٌ أنــتَ راكبُــهُ فـإذا صرفــتَ عِنانــهُ انــصرفا

ولستُ أرى هذا وما أشبهه استعارة، وإنما معنى البيت أن الحب مثل ظهر، أو الحب كظهر تديره كيف شئت، إذا ملكت عنانه، فهو إما ضرب مثل أو تشبيه شيء بشيء، وإنما الاستعارة ما اكتُفي فيها بالاسم المستعار عن الأصل، ونقلت العبارة فجعلت في مكان غيرها»[١٠] وعلى وضوح كلام القاضي الجرجاني، وتمييزه المبكر بين التشبيه البليغ والاستعارة، إلا أنه لم يسلم من الوقوع فيما حذّر منه، فها هو يعد قول مسلم بن الوليد:

ظلمتُك إن لم أجزل الشكر إنـما جعلتَ إلى شكري نوالك سُلَّما

(٩) م.ن: ٢/ ٧٤.

(١٠) الوساطة / ٤١.

من الاستعارة، وراح يفاضل بينها وبين الاستعارة في قول أبي تمام:

مـا ضرَّ أروعَ يرتقـي في همـةٍ روعـاء أن لا يرتقـي في سـلَّمِ

ومن يدقق النظر في قول مسلم بن الوليد، يجد أن ما جاء فيه هو تشبيه بليغ، لا استعارة، فقد قال: (جعلت... نوالك سلَّما) فذكر المشبه (نوال) والمشبه به (سلَّما)، وهو تشبيه بليغ بأسلوب المفعول به.

أما الآمدي فإنه، وإن لم يعرض للموضوع، إلا أن تعليقاته النقدية على الأبيات، أوضحت، كذلك، اختلاط المفهومين في ذهنه، فحين يعرض لقول الشاعر:

ولاجتُذِبَتْ فُرْشٌ من الأمنِ تحتكُمْ هيَ المثل في لـين بهـا والأرائـكُ

يقول معلقًا: «وجعل للأمن فُرْشًا... وهذه استعارات في غاية القباحة والهجانة والبعد من الصواب»(١١) ومن تعليقه هذا يتوضح أن قول الشاعر (فرش من الأمن) استعارة، ولكن إنعام النظر فيه يبين أنه تشبيه بليغ لا استعارة، لأنه ذكر في التشبيه المشبه (الأمن) والمشبه به (فرش)، وهو ما أشار إليه الآمدي نفسه بقوله (جعل للأمن فرشًا) فصرّح بذكر طرفي التشبيه هو أيضًا، وحقيقته أنه تشبيه بليغ بأسلوب حرف الجر.

أما أبو هلال العسكري الذي لاحظنا أنه عدّ قول الوأواء الدمشقي تشبيهًا لا استعارة، فإننا نجده في مكان آخر من كتابه مترددًا بين عدّ مثل هذه التشبيهات، من التشبيه البليغ أو الاستعارة محتكمًا في ذلك إلى ذوقه، وهو ما تجلى في تعليقه على قوله تعالى: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ﴾[البقرة: ١٨٧] إذ يقول: «معناه فإنه يماس المرأة وزوجها يماسها. والاستعارة أبلغ، لأنها أدل على اللصوق وشدة المماسة. ويحتمل أن

(١١) الموازنة: ١/ ٢٣٣.

يقال: إنهما يتجردان ويجتمعان في ثوب واحد ويتضامان، فيكون كل واحد منهما للآخر بمنزلة اللباس، فيجعل ذلك تشبيهًا بغير أداة التشبيه»(١٢).

والحقيقة أن ما جاء في الآية الكريمة، هو تشبيه بليغ، لا استعارة، فقوله تعالى ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ﴾ [البقرة: ١٨٧] مشبه ومشبه به، وكذلك قوله تعالى ﴿وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ﴾[البقرة: ١٨٧] فهما تشبيهان بليغان بأسلوب المبتدأ والخبر.

وقد أكَّد العسكري حكمه الذوقي هذا وهو يعرض لقوله تعالى: ﴿أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيداً لأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا﴾ [المائدة: ١١٤] فيقول شارحًا: «حقيقته ذات سرور، والاستعارة أبلغ، لأن العادة جرت في الأعياد بتوفر السرور عند الصغير والكبير، فتضمن العيد من معنى السرور ما لا تتضمن الحقيقة»(١٣).

وما في هذه الآية الكريمة تشبيه أيضًا لا استعارة، فقد جرى ذكر المشبه [مَائِدَةً] والمشبه به [**عِيدًا**]، ولم يحذف أحدهما. وربما غالى أبو هلال العسكري في احتكامه للذوق، حتى عدّ ما هو من المجاز المرسل استعارة، كقول الشاعر:

إذا سقط السماءُ بأرض قومٍ رعيناه وإن كانوا غضابا(١٤)

وقوله تعالى: ﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا﴾[القمر: ١٤](١٥).

والغريب أن أبا هلال العسكري الذي احتكم إلى الذوق في توجيه الكلام، أكان تشبيهًا أم استعارة، يسارع في تخطئة من يقول إن مثل هذه الأقوال من

(١٢) الصناعتين / ٢٧٦. والآية من سورة البقرة / ١٨٧.

(١٣) م.ن / ٢٨١. والآية من سورة المائدة / ١١٤.

(١٤) الصناعتين / ٢٨٣.

(١٥) م.ن / ٢٩١ والآية من سورة القمر / ١٤.

التشبيه لا الاستعارة، كما في تعليقه على قول الشاعر:

فغطـتْ بأيـديها ثـمارَ نحُورهـا كأيدي الأسارى أثقلتهـا الجوامـعُ

فيقول معلقًا: «وعند بعضهم أن قوله: ثمار نحورها، وما شاكله من باب التشبيه، وليس هو من الاستعارة. والصحيح أنه من باب الاستعارة لأنه نقل العبارة من شيء إلى شيء، وبهذا حَدَّ العلماء الاستعارة، وفي هذا الباب منه شيء كثير أوردته على علم به»(١٦).

ونحن نرى أن قوله (ثمار نحورها) يمكن أن يحمل على الاستعارة كما يمكن أن يحمل على التشبيه، فإذا قلنا إنه شبّه نحورها بالشجرة ثم حذف المشبه به وجاء بلازمة من لوازمه (ثمار) كانت استعارة مكنية، أما إذا قلنا إنه شبّه نحورها بالثمار على طريقة (لجين الماء) فيكون تشبيهًا بليغًا بأسلوب التركيب الإضافي، ولانشك في أن تشبيه النحور بالثمار أجمل صورة من تشبيه النحور بالشجرة، فالذوق الذي احتكم إليه أبو هلال العسكري في ترجيح كون الكلام تشبيهًا بغير أداة أم استعارة، هو الذي يدفعنا إلى تفضيل أن يكون ما جاء في البيت تشبيهًا بليغًا لا استعارة.

ويبدو أن عبارة أبي هلال العسكري الأخيرة، توضح سبب الخلط الذي وقع فيه هو وغيره من البلاغيين والنقاد العرب، ذلك أنهم اقتصروا في التفريق بين التشبيه والاستعارة، على أن الاستعارة هي نقل للعبارة من شيء عُرف بها إلى شيء لم يعرف بها، ولم يذكروا العنصر الأهم هنا، وهو ذكر طرفي التشبيه أو أحدهما، ولما كانت بعض أنواع التشبيه البليغ يوحي ظاهر العبارة فيها بحصول هذا النقل، كما في

(١٦) الصناعتين / ٢٩٩.

قول الشاعر السابق (ثمار نحورها) أو قول أبي تمام قبله (ثوب عافية) تفاوت البلاغيون في حمل مثل هذا الكلام على التشبيه أم على الاستعارة، فمن اكتفى بالنقل شرطًا للاستعارة عدّه منها، ومن التفت إلى ذكر المشبه والمشبه به عدّه تشبيهًا.

وحتى عبد القاهر الجرجاني، الذي كان على وعي تام بالفرق بين التشبيه البليغ والاستعارة، وأفاض في شرحهما، والتمثيل لهما، لم يسلم من الوقوع في هذا الخلط. لقد خصص عبد القاهر مبحثًا للتفريق بين التشبيه والاستعارة، ابتدأه بالقول:

«اعلم أن الاسم إذا قُصد إجراؤه على غير ما هو له لمشابهة بينهما كان ذلك على ما مضى من الوجهين: أحدهما أن تسقط ذكر المشبّه من البين حتى لا يُعلَم من ظاهر الحال أنك أردته، وذلك أن تقول (عَنّتْ لنا ظبية) وأنت تريد امرأة و(وردنا بحرًا) وأنت تريد الممدوح... والوجه الثاني أن تذكر كل واحد من المشبه والمشبه به فتقول (زيد أسد) و(هند بدر)... وقد كنت ذكرت فيما تقدم أن في إطلاق الاستعارة على هذا الضرب الثاني بعض الشبهة»(١٧).

ويتابع عبد القاهر كلامه جاعلاً الفيصل في عدّ الكلام من التشبيه أو الاستعارة، ذكر طرفي التشبيه أو أحدهما صريحًا في الكلام مجوّزًا تسمية ما هو استعارة تشبيهًا، إذا كان القصد منه إيضاح غرض الكلام ومضمونه، يقول: «فأما تسمية الأول تشبيهًا فغير ممنوع ولا غريب إلا أنه على أنك تُخبر عن الغرض وتُنبئ عن مضمون الحال، فأما أن يكون موضوع الكلام وظاهره موجبًا له صريحًا فلا»(١٨).

(١٧) أسرار البلاغة / ٢٩٦-٢٩٧.

(١٨) م.ن / ٢٩٩.

ثم يتنبه عبد القاهر على ضروب من التشبيه البليغ، يمكن أن تختلط بالاستعارة، فيقول: «إن الحالة التي يُختلف في الاسم إذا وقع فيها أيُسمى استعارة أم لا يسمى، وهي الحالة التي يكون الاسم فيها خبر مبتدأ أو منزَّلاً منزلته، أعني أن يكون خبر كان أو مفعولاً ثانيًا لباب (علمت) لأن هذه الأبواب كلها أصلها مبتدأ وخبر، أو يكون حالاً»(١٩). ولاشك في أن كلامه هذا، هو الأساس في كلام البلاغيين اللاحقين على ضروب التشبيه البليغ، بما يؤكد رسوخ قدم عبد القاهر في هذا الباب.

ولكن السؤال: هل أن ذلك عصمه من الوقوع في الخلط الذي وقع فيه غيره، بين التشبيه والاستعارة؟ يمكننا الإجابة باطمئنان، إن عبد القاهر استطاع أن يعرض للفروق الدقيقة بين التشبيه البليغ والاستعارة، وبشكل متميز، وبما لم نجده عند غيره من البلاغيين السابقين عليه أو المعاصرين له، ولكن من متابعتنا لبعض شواهد الاستعارة التي اختارها في كتاب (دلائل الإعجاز) نجد أنه لم يسلم من الوقوع فيما حذّر منه، فهو حين يعرض نظريته في (النظم) ينطلق من حقيقة يؤمن بها ويقررها ابتداءً، وهي أن الألفاظ المفردة ليست بذات قيمة خارج السياق، أو النظم الذي ينتظمها، فقيمتها مكتسبة من النظم الذي ترد فيه، ويسوق – دليلاً على ما ذهب إليه – عددًا من الألفاظ التي تفاوت الحال بها بين القبول والرفض أو الجمال وعدمه من نظم إلى آخر، ولكي يزيد قارئه اقتناعًا بما يقول، لم يكتف بالألفاظ المفردة مطلقة، بل أورد كذلك بعض الألفاظ المستعارة، مؤكدًا أن حسنها هي أيضًا، يتفاوت من نظم إلى آخر وبحسب النظم الذي ترد فيه... يقول: «ومن سر هذا الباب أنك ترى اللفظة المستعارة قد استعيرت في عدة مواضع، ثم ترى لها في بعض ذلك ملاحة

(١٩) م.ن / ٣٠٢.

لا تجدها في الباقي، مثال ذلك، أنك تنظر في لفظة الجسر في قول أبي تمام:

لا يطمع المرءُ أن يجتابَ لُجَّتَهُ بالقولِ ما لم يكن جسرًا له العملُ

وقوله:

بصرتَ بالراحةِ الكبرى فلم ترها تنالُ إلا على جسرٍ من التعبِ

فترى لها في الثاني حُسنًا لا تراه في الأول، ثم تنظر إليها في قول ربيعة الرقي:

قولي: نعم ونعم إن قُلتِ واجبةٌ قالت: عسى – وعسى جسرٌ إلى نعم

فترى لها لطفًا وخلابة وحسنًا ليس الفضل فيه بقليل»[٢٠].

فواضح أن عبد القاهر الجرجاني يعد لفظة (الجسر) استعارة في الأبيات الثلاثة، ولكن إنعام النظر فيها يوضح أنها جميعًا تشبيهات وليست استعارات، وبالاستهداء بكلام عبد القاهر نفسه في أسرار البلاغة –كما سبق– ففي البيت الأول قال أبو تمام «ما لم يكن جسرًا له العملُ» فجعل العمل (المشبه) جسرًا(المشبه به)، فهو تشبيه بليغ ذكر فيه طرفي التشبيه وجاء بأسلوب ما أصله مبتدأ وخبر، أو على حد قول عبد القاهر السابق «أن يكون خبر كان».

وقال أبو تمام في البيت الثاني: «جسر من التعب» حيث شبّه (التعب) بـ(الجسر) وربط بين المشبه والمشبه به بحرف الجر، فهو تشبيه بليغ بأسلوب حرف الجر لا استعارة، وكذلك ما ورد في البيت الثالث، حيث قال ربيعة الرقي: «وعسى جسرٌ إلى نعم» فهذا تشبيه بليغ بأسلوب المبتدأ والخبر، جاء فيه المشبه (عسى) مبتدأ والمشبه به (جسر) خبرًا.

ولعلنا لا نغالي إذا ما قلنا: إن البلاغي الوحيد من بلاغيينا القدماء ممن نجا من

(٢٠) دلائل الإعجاز / ١١٤– ١١٥.

الوقوع في هذا الخلط هو القزويني، فها هو حين يقف على قول أبي تمام المشهور:

لا تـسقني مـاء المـلام فـإنني صَبٌّ قد استعذبتُ مـاء بكـائي

يقول معلقًا وشارحًا:

«وأما قول أبي تمام فليس له فيه دليل، لجواز أن يكون أبو تمام شبّه الملامَ بظرف الشراب، لاشتماله على ما يكرهه الملوم، كما أن الظرف قد يشتمل على ما يكرهه الشارب، لبشاعته أو مرارته فتكون التخييلية في قوله تابعة للمكنيّ عنها، أو بالماء نفسه لأن اللوم قد يُسكن حرارة الغرام، كما أن الماء يسكن غليل الأُوام[٢١]، فيكون تشبيهًا على حدّ (لجين الماء) فيما مرّ، لا استعارة»[٢٢].

فكلام القزويني واضح في جواز حمل قول أبي تمام (ماء الملام) على الاستعارة، أو على التشبيه البليغ بأسلوب التركيب الإضافي، وهو ما أوجزه بقوله «تشبيهًا على حد (لجين الماء)» إذ أصل هذا التشبيه (الماء كاللجين) ثم حذفت أداة التشبيه على حد التشبيه البليغ، فصار (الماء لجين) وهو تشبيه بليغ بأسلوب المبتدأ والخبر، ثم جرى تركيب التشبيه بأسلوب التركيب الإضافي، إذ أضيف المشبه به (لجين) إلى المشبه (الماء) فصار التشبيه: (لجين الماء) وهو ما يصدق على قول أبي تمام (ماء الملام).

التشبيه البليغ/ الإضافي في شعر أبي تمام:

يقول الدكتور عبد القادر الرباعي – ولعله أفضل من درس الصورة الفنية في شعر أبي تمام – بعد بحث معمق في شعر أبي تمام وفهم متميز لفكره: «إن الصفة الغالبة على تشابيه أبي تمام هي الاقتراب الشديد من طبيعة الاستعارة...

(٢١) حرارة العطش.

(٢٢) الإيضاح: ٢/ ٣١٤.

إن الصفة الغالبة على تشابيهه خلوها من الأداة»[٢٣]، وهذا تشخيص دقيق لطبيعة فكر أبي تمام وخياله، ذلك أن أبا تمام يمثل نقلة نوعية في الشعر العربي، فهو بحق مرحلة متقدمة من مراحل هذا الشعر، إذ استطاع بفكره الواسع المتحرر، وخياله البعيد أن يقفز بالشعر العربي إلى حالة جديدة عليه، فبعد أن كان يدرج على الأرض أو يحلّق – في أحسن أحواله – قريبًا منها، استطاع هذا الشاعر الذي سبق عصره بأشواط، أن يجعل له جناحين يحلق بهما عاليًا، فلم تستطع أفكار معاصريه - ولا من جاء بعدهم– أن ترقى إلى مستوى تفكيره، وجنح هو في خياله بعيدًا، فيما ظلوا هم يبحثون عن الحقيقة في الشعر كما يرضاها العقل وتثبت صحتها التجربة.

وإذا كانت الاستعارة هي السمة المميزة لشعره، والغالبة عليه، حتى إن «معدل نسبتها يزيد على ٧٠٪ من مجموع صوره الأخرى»[٢٤]، فإننا وجدنا أن تشابيهه البليغة (المحذوفة الأداة ووجه الشبه) كانت غالبة هي أيضًا على شعره حتى ليمكننا القول بأنها طغت على تشابيهه المرسلة (المذكورة الأداة) وبما لم نألفه عند من سبقه من الشعراء، بما يجعلنا نقرر أن التشبيه البليغ يمثل قفزة أبي تمام الأولى من التشبيه إلى الاستعارة، أما قفزته الثانية فيمثلها التشبيه البليغ/ الإضافي، الذي بدا لنا مرحلته الانتقالية من التشبيه البليغ إلى الاستعارة، معتمدين في ذلك على أمرين، أولهما: العدد الكبير من تشبيهاته البليغة بأسلوب التركيب الإضافي، التي استطعنا أن نحصي منها ما يقرب من (٢٤٠) تشبيهًا، وهو عدد يفوق عدد تشبيهاته في أي ضرب آخر منه.

(٢٣) الصورة الفنية في شعر أبي تمام / ١٦٥.

(٢٤) م.ن / ١٦٧.

وثانيهما هو بنية هذا الضرب من التشبيه في بعدها عن قاعدة التشبيه القائمة على أساس انفصال المشبه عن المشبه به وبقائهما مستقلين، وقربها من الاستعارة القائمة على تداخل أحدهما في الآخر حتى إن أحدهما صار ينوب مناب الآخر.

عرفنا مما تقدم أن التشبيه البليغ قائم على المبالغة، لأنه يخرق القاعدة البلاغية للتشبيه في تفاوت المشبه به عن المشبه، إذ جرى العرف البلاغي –انطلاقًا من متطلبات الذوق العربي– على أن يكون وجه الشبه أتم وأوضح في المشبه به منه في المشبه، أما في التشبيه البليغ فإن حذف أداة التشبيه ووجه الشبه، والاكتفاء من التشبيه بالمشبه والمشبه به، يجعلهما نظيرين، فيرتفع المشبه بالتشبيه البليغ إلى مستوى المشبه به، وهو ما يتوضح في قولنا (هو الغيث) فقد صار التشبيه من الرسوخ والثبات بدرجة قولنا (هو رجل)، وهذه الدرجة من المبالغة لم تخرج كثيرًا عن طبيعة الذوق العربي، وظل هذا الضرب من التشبيه مقبولاً، كما قبلت المبالغات الشعرية التي لم تخرق المألوف والشائع من أقوالهم وأشعارهم.

أما في التشبيه البليغ/الإضافي فإننا نلمس أن خيال الشاعر - أو المشبِّه عمومًا– يذهب بعيدًا في مبالغته، حين يعمد إلى جعل المشبه به (وهو الكامل في وجه الشبه) مضافًا إلى المشبه (وهو الناقص في وجه الشبه) أي يكون جزءًا منه، وبذلك تنقلب قاعدة التشبيه رأسًا على عقب، فبعد أن كان مقررًا أن يوضح المشبهُ به المشبهَ ويقربه إلى الأذهان صار المشبه هو وسيلة تعريف المشبه به بعد أن أضيف إليه، فصار الأصل (المشبه به) جزءًا وصار الفرع (المشبه) كلاًّ. ومثال ذلك قول أبي تمام السابق (ماء الملام) إذ أصل التشبيه (الملام كالماء) فقرّب التشبيه صورة المشبه (الملام) إلى ذهن المتلقي بعقد الصلة بينها وبين المشبه به (الماء) لوضوح صورة

المشبه به ورسوخها في ذهنه، ثم جُعل التشبيه المرسل تشبيهًا بليغًا بعد حذف أداته فصار (الملام ماء) وهنا تساوى طرفا التشبيه بعد أن جاء بأسلوب المبتدأ والخبر، ومع أن هذا مبالغة إلا أن خيال الشاعر لم يقف عند هذا الحدِّ، بل ذهب بعيدًا في مبالغته، حين أضاف المشبه به (الماء) إلى المشبه، فصار التشبيه (ماء الملام).

وهكذا نستطيع القول- مطمئنين- أن خط صور أبي تمام الشعرية، قد تطور من التشبيه (المرسل) المذكور الأداة إلى التشبيه (البليغ) المحذوف الأداة، ثم التشبيه البليغ بأسلوب التركيب الإضافي، ثم عبَر إلى الاستعارة، حيث غاية الخيال والتناهي في المبالغة الصورية، حين يحل أحد طرفي التشبيه محل الآخر ويطوي ذكره.

إن الحافز الرئيسي إلى هذه الدراسة في صور أبي تمام الشعرية، هو ما لمسناه من سهام النقد الكثيرة التي وجهت إلى صور أبي تمام الاستعارية ومؤاخذتها في أنها خرقت الذوق العربي – في عصره – بما لم يألفه معاصروه أو من جاء بعدهم، وبعد ما لمسناه من إمكان حمل كثير من هذه الاستعارات على أنها من التشبيه لا الاستعارة، فإننا بذلك نرد كثيرًا من تلك السهام، لأن أبا تمام بذلك لم يخرق الذوق العربي أو يخرج عنه خروجًا فاضحًا، وإنما تدرج في ذلك، حتى كأنه كان يمهد له كي يتقبل استعاراته، بعد أن يكون قد أعطاه (جرعات) من مبالغاته في التشبيه البليغ/ الإضافي، بعد أن يطمئن – على وفق هذا التشبيه – أن طرفي التشبيه موجودان، وأن أحدهما لم ينب مناب الآخر، حتى إذا اعتاد الذوق العربي هذا اللون من التشبيه، قفز به بعد ذلك قفزته الكبرى نحو الاستعارة.

وبذلك ستكون دراستنا للتشبيه البليغ/ الإضافي في شعر أبي تمام منطلقة من هذه الحقيقة، إذ سنقوم بتقسيم هذه التشبيهات على قسمين:

القسم الأول: التشبيهات البليغة بأسلوب التركيب الإضافي التي لا يمكن أن تحمل على الاستعارة.

القسم الثاني: التشبيهات البليغة بأسلوب التركيب الإضافي التي يجوز حملها على الاستعارة أيضًا.

١ – التشبيهات البليغة/ الإضافية التي لا تُحمل على الاستعارة

ينبغي التنبيه أولاً على أننا لا نقصد من وراء هذا التقسيم التقليل من شأن الخيال الذي يخلق التشبيه، إعلاءً لشأن الاستعارة، فنحن نرى أن الخيال الذي يخلق التشبيه هو ذاته الذي يخلق الاستعارة، فلكل منهما نصيبه منه، ومن فكر الشاعر وهو يستحضر كلاً منهما تعبيرًا عن معانيه بما يناسب هذه المعاني ودرجة انفعال الشاعر بها، والغرض الذي يؤديه كل منهما في القصيدة. وإنما غرضنا هو ما أشرنا إليه قبل قليل، من تدرج أبي تمام في خيالاته، كي لا يستفز الذوق السائد، فهو بعد أن قارب بين الأشياء المتباعدة أو التي لا صلة بينها، حتى صارت العلاقة بينها مألوفة، عاد ليخلخل هذه العلاقة في التشبيه البليغ/ الإضافي بما يسمح به الخيال وتستلزمه طبيعة الشعر ولغته، فهو حين يقول:

عِنَبيَّـــةٌ ذهبيـــةٌ سَـــكَبَتْ لهـــا ذهبَ المعاني صاغةُ الـشعراء[٢٥]

لم يخرج في قوله (ذهب المعاني) عمّا درج عليه العرب من تشبيه الأشياء النفيسة بالذهب، ولكن خيال أبي تمام خطا خطوة أبعد حين جعل المشبه به (الذهب) على نفاسته جزءًا من هذه المعاني النفيسة، وبذلك لم تعد المعاني ذهبًا فحسب، وإنما هي معدن لكل نفيس، والذهب واحد منها، كما أن صنعة أبي تمام المتميزة قد نشرت

(٢٥) الديوان: ١/ ١٨٢.

وَشْيَها على هذا البيت، فما دامت هذه الخمرة الموصوفة في البيت (عنبية) في أصلها (ذهبية) في لونها، كان لابد للجناس (الذهب) أن يعلن حضوره، في هذه المواءمة الصوتية، التي تكتنز مخالفة دلالية بين ذهبية اللون وذهبية الأصل، ليكمل تشبيهه البليغ بتشبيه آخر هو قوله (صاغة الشعراء) بما يمكن أن ندعوه (ترشيحًا) للتشبيه الأول، فما دامت المعاني ذهبًا فلا بد أن يكون الشعراء صاغة له.

يمكن القول – باطمئنان – إن أبا تمام – في هذا اللون من التشبيهات في الأقل– لم يذهب بعيدًا عما ألفه الذوق العربي، وما تداوله الشعراء من قبل، ولكنه اختار لنفسه طريقًا جديدًا يخالف به من سبقه، وهو ما يؤكده حرصه على أن يكون شيئًا جديدًا في الشعر العربي، سواء على مستوى ابتداع المعاني أو ابتكار الصور أو السعي وراء المحسِّنات، بما جعله زعيمًا لمدرسة البديع التي سبقه في ابتداع مذهبها بشار وأبو نواس ومسلم وأبو العتاهية، ولكنه تميز منهم جميعًا، كي يحمل لواءها رأسًا لهذا المذهب الشعري. فها هو يقول متغزلًا:

قد صَرَّفَ الراؤُونَ خَمرةَ خدِّهِ وأظنُّها بالرِّيق منهُ ستقطبُ(٢٦)

معبِّرًا بالتشبيه (خمرة خده) عن شدة خجل الحبيب من كثرة الناظرين إليه، حتى استحالت حمرة خدّه كحمرة الخمرة، وهو هنا - على ملاحة المعنى وجماله – لم يكن في تشبيهه إلا جاريًا على ما تداوله الشعراء قبله من تشبيه الخد بالخمر، ولكن مصدر الجدة – في رأينا– أنه أعاد تركيب الصورة تركيبًا جديدًا حين جاء بها بأسلوب التركيب الإضافي ليجعل من خدّه معينًا للخمر، ولم يقف عند هذا الحدِّ، بل زاد المعنى جمالاً حين جعلها خمرًا لم تمزج – تعبيرًا عن تمنع هذا الحبيب وعدم ابتذاله، ولكن

(٢٦) الديوان: ١/ ٢٣٦.

الشاعر الذي أضناه الحب، وهام بجمال هذا الحبيب، لابد له من ارتشاف هذه الخمر، ولما كان لابد لها من أن (تقطب) أي أن تمزج بالماء قبل أن تشرب، فلا ماء أفضل من ريق الحبيب، إنها صورة جميلة خلقها خيال الشاعر وهو يصور حاله بعد أن بهره جمال محبوبه فانهال عليه لثمًا لخده وتقبيلاً لثغره، حتى تكتمل نشوته وسكره(٢٧).

على أن قولنا السابق لا يعني أن تشبيهات أبي تمام البليغة الإضافية كلها جرت على طريقة القدماء وسننهم في التشبيه، فقد كان الشاعر متميزًا في خياله، متميزًا في معانيه، يمازج بين عمق المعنى وجمال الخيال، ليرسم صورة تجعل متلقيه منفعلاً بالمعاني ومتفاعلاً معها، فها هو يحلِّق بخياله بعيدًا كي يرسم صورة خاصة به للخوف فيقول:

قَدْ فَضَضْنا من بِيْدِهِ خاتمَ الخو فِ وما كلُّ خاتمٍ مفضوضُ(٢٨)

يصف الشاعر – في معرض الفخر– البيداء التي قطعها، وكيف أنها تحاصر الإنسان بالخوف والجزع، حتى ليشعر بأن الموت يحاصره متربص به، يجده أمامه حيثما استدار، يقرب منه مع كل خطوة يخطوها في البيد، وبوحي من هذه المعاني جعل أبو تمام الخوف خاتمًا فقال (خاتم الخوف) فهو محيط بقاطع البيد إحاطة الخاتم بالإصبع، إن هذه البيد (حلقة مفرغة) من الخوف لا يعرف طرفاها، ولكنه لشجاعته ومعرفته بالصحراء ودروبها – لكثرة أسفاره – استطاع بجِماله الصبورة القوية أن يفض هذا الخاتم، وأن يفلت من دائرة الموت التي أحاطت به من كل جانب.

---

(٢٧) ومثله قوله متغزلاً أيضًا:

لـولا العيـونُ وتفـاحُ الخـدود إذن ما كـان يحسد أعمـى مـن لـهُ بـصرُ

الديوان: ١/ ٥٣٢.

(٢٨) الديوان: ١/ ٥٩٨.

كان أبو تمام مولعًا بالإيقاع الداخلي للبيت، باستثمار الأشكال البلاغية التي تسعفه في ذلك، من تكرار وجناس وترصيع ورد العجز على الصدر... وغيرها، لتذوب في أشكال شعرية، تدهشنا بهندستها وتناسقها اللفظي والمعنوي، فهي على يد أبي تمام الفنان، لم تعد مجرد لعبة لفظية أو محسِّنٍ خارجي مقحم على بنية البيت، فالشاعر يستعمل ألفاظه وتراكيبه استعمالاً خاصًّا، ينجح به في تصوير صادق إحساسه، وعميق انفعاله، فلا غرابة بعد ذلك أن يستثمر أبو تمام التشبيه البليغ/ الإضافي – معنى وصيغة – بوصفه مهارة لغوية صورية، في تحقيق مبدئه هذا، لنستمع إليه مادحًا:

ثُـمَّ ألقـى عـلى دَرَوْليّـةَ الـبرْ كَ مَحـــلاً بـــاليُمنِ والتوفيـــقِ
فحـوى سـوقها وغـادر فيهـا سُوقَ موتٍ طمتْ على كل سـوقِ
فَهـمُ هـاربونَ بـين حريـق السّـ ـيفِ صلتًا وبـين نـار الحريـقِ[٢٩]

فالتشبيهان البليغان الإضافيان (حريق السيف) و(سوق الموت) جاءا واحدًا من وجوه المجانسة الصوتية/ المعنوية التي عمّت هذه الأبيات، فهذا الترديد الإيقاعي المتأتي من تكرار لفظة (سوق) في البيت الثاني ولفظة (حريق) في البيت الثالث، لم يكن لمجرد خلق التناغم الصوتي فحسب، بل جاء تجسيدًا لمعنى كان يحسه الشاعر، فهذا الممدوح الذي بطش بأعدائه، إنما ينفّذ أمر الله فيهم، وعمله – على قسوته – ميمون موفق، وهنا تقفز إلى ذهن الشاعر وخياله هذه التقابلية بين الهدم والبناء، والموت والحياة، حين يكون الفعل الواحد رمزًا لكليهما، فتنبثق الصورة في مخيلة الشاعر من تخريب سوق هذه المدينة، وقيام سوق أخرى مكانها، ولكن أية سوق هذه؟ إنها (سوق موت) لا تبقي على سوق سواها، ثم تكتمل صورة الموت بالصورة التي

(٢٩) م.ن: ٢/ ١٣٣.

خلقها التشبيه البليغ في البيت الثالث بقوله (حريق السيف) ليقابل بها (حريق النار) التي شبت بالمدينة فإذا الأعداء بين نارين: نار السيف ونار الحريق، وهم في فزعهم لا يستطيعون خلاصًا من مصيرهم الذي حتَّمه عليهم ممدوحه، لقد استطاع أبو تمام في تشبيهيه البليغين بأسلوب التركيب الإضافي (سوق الموت) و(حريق السيف) أن يضع قارئه في قلب الحدث، وهو يتصور هذه المدينة وأهلها المفزوعين المطوقين بالموت والنار من كل جانب، فهم بين (حريق السيف) و(حريق النار) وحيثما فرّوا فإن الموت ملاقيهم.

إن حركة الصورة التشبيهية في شعر أبي تمام، تأتي متوافقة جدًّا والمعنى الذي يريده أبو تمام من ورائها، فخياله لا يشبه خيال السابقين، ونظرته إلى المعاني وتداخل بعضها في بعض، تخالف نظرة الآخرين من الشعراء، إنه يعيد ترتيب الأشياء، كما ينظر إليها ببصيرته لا ببصر الآخرين، وهو ما يتجلى في قوله:

بسافر حُرِّ الوجهِ لـو رام سَـوْءةً لكان بجلباب الدُجى مُتلثّما[٣٠]

إن قراءة البيت بإنعام ربما ستوضح لنا بعض ما في ذهن الشاعر، فهو في معرض المديح بأن فارسه آلى على نفسه أن يلاقي عدوه، وألاّ يفر من أرض المعركة متسترًا بالليل، كما فعل غيره، إنه على يقين أنه إنْ فعل ذلك فسيلحقه عار يغطيه طوال حياته، من هنا نشأت هذه التقابلية الفنية بين لبس الدجى وسيلة للفرار، ولبس العار نتيجة له، والتلثم بعد ذلك يمكن أن يخفي الوجه، أما العار فإنه سيحتوي صاحبه احتواء الجلباب.

(٣٠) م.ن: ٢/ ٤١٠.

يمكن القول: إن صورة أبي تمام متناغمة مع البنية العميقة للمعاني والزخرفة الفنية للألفاظ، بما يجعله نسيج وحده في هذا الباب، ومادام كذلك فإن قارئه قارئ خاص، لا يكتفي بالوقوف عند ظاهر المعنى، إنما ينفذ إلى أعماقه كي يستطيع أن يفهم مراد الشاعر، يقول مادحًا:

أهبَبْتَ لي ريحَ الرجاءِ فأَقْدَمَتْ همي بها حتّى استبحنَ هُمُومي[٣١]

فمن ينعم النظر في البيت، سيحس هذا التداخل العجيب بين التشبيه البليغ والاستعارة والجناس وتضافرها لخلق صورة فنية متميزة، تحتاج إلى وعي متميز لإدراكها، فها هو يشبه الرجاء بالريح، ثم يجعل همه سفنًا بالاستعارة المكنية، وذلك بذكر لازمتها (أقدمت) ثم تأتي هذه الاستعارة الغريبة للريح وقد (استبحن) الهموم فلم يقل (أزلن) أو (كشفن) ولكنه جعلها استباحة أي استئصالاً للهموم، يضاف إلى ذلك كله الجناس الناقص المتمثل في (همي وهمومي) وغرابته في أن يكون متضمنًا ما يشبه الطباق المعنوي بينهما، فالهمم تُقْدِم لتستبيح الهموم فتزيلها... ثم لاتزال في البيت تلك المتوالية المعنوية والفنية الفريدة فالممدوح أهبب الريح والريح أقدمت الهمم والهمم استباحت الهموم فترابطت أجزاء البيت معنويًّا وفنيًّا.

٢- التشبيهات البليغة/ الإضافية التي يجوز أن تحمل على الاستعارة

يمكن القول: إن المعنى هو العنصر الأبرز المتحكم بشكل الصورة البلاغية التي تعبر عنه، ولكن هذا المعنى بعد اتخاذه الشكل الفني المناسب، لا يعود ملكًا

(٣١) الديوان: ٢/ ٤٤٦.

له وحده، إنما هناك المتلقون الذين بمقدورهم تشكيله على وفق خياراتهم الأسلوبية ومذاهبهم الفكرية، وما يستشعرونه من معانٍ وأحاسيس، وهم يتلقون صوره المجسدة لمعانيه، ومن هنا يمكن أن نسوغ لتفاوت قرّاء شعر أبي تمام في حمل صوره - موضوع بحثنا – على التشبيه البليغ بأسلوب التركيب الإضافي أو الاستعارة، فالمتلقي هنا لا يقل شأنًا عن المبدع في إعادة تشكيل المعنى المترشّح عن الصورة بحسب رؤيته الخاصة، وهو ما لمسناه عند بلاغيينا ونقادنا القدماء في بعض وقفاتهم عند صور أبي تمام، كما مرّ من موقف القزويني من بيت أبي تمام المشهور:

لا تـسقني مـاءَ المـلامِ فـإنني صَبٌّ قد استعذبتُ ماء بكـائي[٣٢]

إذن يمكن أن يحمل قوله (ماء الملام) على أنه استعارة – كما هو شائع – حيث شبّه الملام بالظرف أو الوعاء، ثم حذف المشبه به، وذكر لازمة من لوازمه وهي (الماء) فهي استعارة مكنية. فيما يمكن أن يحمل كذلك على أنه تشبيه بليغ بأسلوب التركيب الإضافي، فقد شبّه الملام بالماء، ثم أضاف المشبه به (الماء) إلى المشبه (الملام).

وفي اعتقادنا أن توجيه قوله (ماء الملام) على أنه تشبيه لا استعارة ربما يخفف من سهام النقد القاسية التي وجهت إليه لاستعارته للملامة ماء، فحين نقول إنه شبّه الملام بالماء، فهذا يعني أنه حافظ على الحدود بين المشبه (الملام) والمشبه به (الماء) ولم يسمح بتداخلهما بما يخلُّ بمبدئهم في حسن الاستعارة وهو «مناسبة

(٣٢) الإيضاح: ٢/ ٣١٤ والبيت في الديوان: ١/ ١٧٨.

المستعار منه للمستعار له»[٣٣] حتى تصح نيابة أحدهما مناب الآخر، أما في التشبيه فيكفي لقبوله «المقاربة في التشبيه»[٣٤]، هذا من جانب، ومن جانب آخر فإن أبا تمام حين يشبه الملام بالماء، إنما يجري على السنن العربي في تشبيه كل ما يستكره من الكلام بالشراب المرّ أو السم كالغلظ بالقول أو شدة الملام... ومنه قوله تعالى ﴿فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ﴾[الأحزاب: ١٩]. كما شاع بينهم مثل قولهم «فلان حلو الكلام» و«عذب المنطق»[٣٥] وفي كل ذلك إنما يصورون أثر الكلام في نفوسهم، فلا عجب إذا شبه أبو تمام الملام – وهو كلام أيضًا – بالماء، وهو ما يؤكده في أكثر من موضع من شعره كقوله:

لطمحْتَ في الإبراق والإرعاد وغدا عليَّ بسيل لومك غادِ[٣٦]

فهو هنا لم يكتف بأن شبّه الملام بالماء، وإنما شبهه بالسيل في قوله (سيل لومك) تشبيهًا بليغًا بأسلوب التركيب الإضافي تعبيرًا عن شدة هذا اللوم وعنفه. وأبيات أبي تمام المتضمنة لمثل هذه التشبيهات كثيرة كقوله:

لم نُسقَ بعد الهوى ماء على ظمأ **كماء قافية** يسقيكها فهمُ[٣٧]

وقوله:

(٣٣) مقدمة المرزوقي لشرح الحماسة: ١/ ١٠.

(٣٤) م.ن.

(٣٥) ينظر الموازنة: ١/ ٢٤٢.

(٣٦) الديوان: ١/ ٤٩٤.

(٣٧) الديوان: ٣/ ٥٤٠.

مُحَمَّـدُ بـنُ حُميـدٍ أُخلقـتْ رمَمُـهُ هريق **ماءُ المعالي** مُذ هريقَ دَمُـه[٣٨]

وقوله:

يَتَساقونَ في الوغى كأسَ موتٍ وهي موصولةٌ بكـأسِ رحيـقِ[٣٩]

وقوله:

فأولئكَ هُمْ قد أصبحوا وشروبُهم يتنادمون **كؤوس سُوء الحـال**[٤٠]

وقوله:

جَرَّعَكَ الدهرُ **كأس الصبرِ** في لجـجٍ للموت يغرقُ في آذيِّها الجبـلُ[٤١]

يمكننا القول: إن ما فعله أبو تمام هو تحرير اللغة من المألوف، والارتفاع بها عن الشائع والمباشر من الأساليب والتعبيرات، فقد يكون تعبير ما أو أسلوب من أساليب التصوير مبتكرًا أول أمره، ولكن كثرة تداوله تجعله قريبًا من المباشرة في إيصال المعنى، ولابد هنا لخيال الشاعر من أن يبحث عن علاقات جديدة بين الأشياء، تبعث الحياة والحركة في مفردات اللغة وأساليبها، فكان أبو تمام خير من تصدى لهذه المهمة التي جلبت عليه كثيرًا من مؤاخذات النقاد وسخط المحافظين من أهل اللغة، ولكنه مضى فيما عزم عليه حتى كأنه كان على ثقة أنه إذا أُعدم - في عصره – من يقاربه في خياله، فإن العصور اللاحقة كفيلة بأن تخلق مثل هذا القارئ

(٣٨) م.ن: ٣/ ٣٥٤.

(٣٩) م.ن: ٢/ ١٣٢.

(٤٠) م.ن: ٢/ ٢١٣.

(٤١) م.ن: ٣/ ٣٤٣.

المتميز، وهو ما كان، يقول واصفًا حسّاده الذين حاولوا الإيقاع بينه وبين ممدوحه:

نَزَعُـوا بـسهم قطيعـةٍ تهفـو بـه ريشُ العقوقِ فكان غـيرَ سـديد(٤٢)

فقد ضم البيت تعبيرين غير مألوفين هما «سهم القطيعة» و«ريش العقوق» اللذين يمكن أن يُحملا على التشبيه البليغ الإضافي بتشبيهه القطيعة بالسهم في الأول والعقوق بالريش في الثاني، كما يمكن أن يعدَّا استعارتين مكنيتين، شبّه في الأولى القطيعة بالإنسان وجعل لها سهمًا ترمي به شأن الإنسان، وشبّه في الثانية العقوق بالطائر بعد أن جعل له ريشًا.

وسواء أكان تخريجنا للصورة على هذا أم على ما تقدم، فإن ما يشدنا إلى البيت هذان التركيبان الغريبان (سهم القطيعة) و(ريش العقوق)، ولا نجد لذلك تفسيرًا إلا قولنا، إن أبا تمام لم يرد أن يكرر ما قاله السابقون وأن يربط بين القطيعة والقطع فيختار لذلك واحدة من آلاته سواء أكانت سكينًا أم سيفًا، وإنما آثر أن يدخل مدخلاً جديدًا خاصًّا به، فما دامت القطيعة قاتلة، وإحساسه بها إحساسًا متميزًا عندما تكون ممن (أظلته غمامة) وهو ممدوحه، فلا عجب أن تكون سهمًا مصوَّبًا إلى قلبه، ولما كان رائش هذا السهم حساده لا ممدوحه فمن الطبيعي أن يكون ريشهم لهذا السهم هو عقوقهم وحقدهم ولكن أمنيتهم لم تتحقق، إذ لم يكن سهمهم هذا سديدًا، بل كان حسدهم سببًا في شيوع فضله، شأن عُوْد الطيْب الذي لا يظهر إلا باحتراقه.

(٤٢) م.ن: ١/ ٣٩٥.

لم تكن الصورة عند أبي تمام، سواء في شكلها الاستعاري أو التشبيهي، مجرد إنابة شيء عن شيء، أو إقامة علاقة تربط بينهما، إنما هو استبطان لدواخل الأشياء، واستظهار لعلاقات كامنة لا في ذوات الأشياء، بل في أعماق الشعور، لا يستطيع ارتيادها، إلا من أوتي نضجًا في العقل، وسعة في الخيال...

وفي هذا اللون من الصور استطاع أبو تمام أن يقيم حِوارِيَّة بين الشاعر ومتلقيه، وأن يرتفع بمتلقيه إلى عالمه الفسيح ويحلق معه في فضاء خياله الرحب، كي يستشرف معه أمداءً واسعة للمعنى، لنستمع إليه في إحدى صوره وهو يقول:

وضياءُ الآمالِ أفسحُ في الطرْ فِ وفي القلبِ من ضياءِ البلادِ[٤٣]

فقارئ هذا البيت لا يمكن أن يقف على مراد الشاعر، إذا ما اكتفى بالوقوف عند قوله (ضياء الآمال) وفهمه على أنه استعارة مكنية قوامها تشبيه الآمال بالمصباح ثم حذف المشبه به والمجيء بلازمة من لوازمه وهو (الضياء)، أو أنه تشبيه بليغ بأسلوب التركيب الإضافي (الآمال ضياء)، بل عليه سبر أغوار المعنى للوصول إلى مبتغى الشاعر وشفافية صورته، وهو يحيل الآمال إلى ضياء لا ينير الطريق أمام صاحبها فحسب، إنما ينير القلب أيضًا، إنها ضياء للبصيرة لا للبصر وحده، والشاعر في هذا يصنع تقابلية خفية بين ضياء (الخارج) الذي يمنع الخطو من التعثر، وضياء (الداخل) الذي يمنع النفس من التخبط في متاهات اليأس والخنوع، إنها فلسفة عميقة، ولكنها في الوقت نفسه تبتعد من جفاف الفلسفة لتقترب من رواء الشعر، إنها شفافة تناجي الروح والعقل معًا.

(٤٣) الديوان: ١/ ٣٧٥.

ولننظر أيضًا في قوله:

وقفنَا عـلى جَمْـر الـوداع عـشيةً ولا قلبَ إلا وهو تغلي مراجلُهْ(٤٤)

فقولنا: إن قوله (جمر الوداع) استعارة، لأنه شبّه الوداع بالوقود، ثم حذف المشبّه به وذكر لازمة من لوازمه وهو الجمر، لا يرقى – فنيًّا– بمستوى الصورة كقولنا هو تشبيه بليغ بأسلوب التركيب الإضافي، إذ جعل الوداع هو الجمر أولاً على طريقة التشبيه البليغ، ثم بالغ في تصوير شدة لوعة الفراق وألمه حين جعل الجمر جزءًا من الوداع، فصار الوداع أكبر من الجمر وأشد حرقة منه.

إننا نعرف جيدًا أن قولنا هذا يمكن أن يكون خرقًا لقاعدة البلاغيين المتداولة بينهم في أن الاستعارة أشد مبالغة من التشبيه حين يشتد ارتباط المشبه والمشبه به معًا حتى يعودا شيئًا واحدًا، يمكن للفظ أحدهما أن يحل محل الثاني، على حين يكتفي التشبيه بعقد الصلة بينهما، مع بقائهما متميزين، ولكننا نشعر – مما وقفنا عنده من تشبيهات أبي تمام – أن التشبيه البليغ بأسلوب التركيب الإضافي يمكن ألاّ يصدق عليه قول البلاغيين السابق، وأن فنية الصورة وجمالها فضلاً عن قوة المعنى وشدة تأثيره كلها أمور بدت لنا أبرز حين يوجه كلام أبي تمام أو صورته على أنها تشبيه بليغ بأسلوب التركيب الإضافي لا استعارة... وهو ما يمكن أن ندركه بوضوح إذا ما أنعمنا النظر في قوله:

تطيـبُ لجـودهِ ثمـرُ الأمـاني وتَرْويَ عندَه الهمَمُ الحِـرارُ(٤٥)

(٤٤) الديوان: ٢/ ١٩٦.

(٤٥) الديوان: ١/ ٥١٤.

فحين نقول إن قول أبي تمام (ثمر الأماني) هو استعارة يلزمنا تقدير مشبه به محذوف توضحه اللازمة (ثمر) وهو (الشجرة)، ولكننا نشعر أن تشبيه الأماني بالثمر أكثر فنية حين نقارن بين الشجرة في صلابتها والثمرة في رقتها وطراوتها، فضلاً عن المبالغة التي يفرزها التشبيه البليغ/ الإضافي حين يجعل (الثمر) جزءًا من الأماني بإضافته إليها.

إننا نؤمن أن العلاقة التشبيهية بين الأشياء لا يخلقها التماثل الصوري بينها، إنما مرد ذلك إلى انفعال الشاعر بها وقدرته على النفاذ إلى دواخلها دون الاكتفاء بمظهرها الخارجي، حيث يستطيع بفكره الخلاق وخياله العميق أن يعيدها إلى جوهر واحد، ليستطيع بعد ذلك أن يؤلف بين عناصرها ويداخل بين مواقعها، في تأليف منسجم ومعبر بلا تنافر أو شطط.

إننا نعتقد أن بحثنا في التشبيه البليغ بأسلوب التركيب الإضافي على وفق ما تقدم قد حقق ما انطلقنا منه في أول البحث وهو الاقتراب الشديد لتشبيهات أبي تمام من طبيعة الاستعارة.

المصادر والمراجع

١ – **أسرار البلاغة** للشيخ الإمام عبد القاهر الجرجاني/ تحقيق هـ. ريتر/ دار الكتاب للتراث العربي.

٢– **الإيضاح في علوم البلاغة**/ جلال الدين محمد بن عبد الرحمن المعروف بالخطيب القزويني/ تحقيق لجنة من أساتذة الأزهر/ طبعة بالأوفست مكتبة المثنى ببغداد.

٣– **البلاغة والتطبيق**/ د. أحمد مطلوب ود.كامل حسن البصير/ ط١ ١٩٨٢م–١٤٠٢هـ/ وزارة التعليم العالي والبحث العلمي/ العراق.

٤- **دلائل الإعجاز**/ للإمام عبد القاهر الجرجاني/ حققه وقدم له د.محمد رضوان الداية ود.فايز الداية/ مكتبة سعد الدين ط٢ ١٤٠٧هـ-١٩٨٧م/ دمشق.

٥- **شرح الصولي لديوان أبي تمام**/ دراسة وتحقيق خلف رشيد نعمان/ الطبعة الأولى/ وزارة الإعلام- الجمهورية العراقية/ ج١ ١٩٧٧-ج٢ ١٩٧٨- ج٣ ١٩٨٢.

٦- **شرح ديوان الحماسة**/ أبو علي أحمد بن محمد بن الحسن المرزوقي/ تحقيق أحمد أمين وعبد السلام هارون/ ط١ القاهرة ١٩٥١م-١٣٧١هـ.

٧- **الصورة الفنية في شعر أبي تمام**/ د.عبد القادر الرباعي/ جامعة اليرموك/ الدراسات الأدبية واللغوية (١) إربد- الأردن ١٩٨٠م.

٨- **علم أساليب البيان**/ د.غازي يموت/ دار الأصالة للطباعة والنشر والتوزيع/ ط١ ١٤٠٣هـ-١٩٨٣م.

٩- **العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده**/ أبو علي الحسن بن رشيق القيرواني/ حققه محمد محيي الدين عبد الحميد/ دار الجيل بيروت/ ط٤ ١٩٧٤.

١٠- **كتاب الصناعتين**/ لأبي هلال الحسن بن عبد الله بن سهل العسكري/ تحقيق علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم/ ط٢ دار الفكر العربي.

١١- **المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر**/ ضياء الدين بن الأثير/ قدم له وحققه وعلق عليه د. أحمد الحوفي ود.بدوي طبانة/ دار نهضة مصر للطبع والنشر/ القاهرة.

١٢- **الموازنة بين أبي تمام والبحتري**/ الإمام الحسن بن بشر بن يحيى الآمدي/ تحقيق وتعليق محمد محيي الدين عبد الحميد/ المكتبة العلمية- بيروت.

١٣- **الوساطة بين المتنبي وخصومه** للقاضي علي بن عبد العزيز الجرجاني/ تحقيق وشرح محمد أبو الفضل إبراهيم وعلي محمد البجاوي/ المكتبة العصرية- بيروت.

الضرورة الدلالية

د. سمير أحمد معلوف(*)

مصطلح الضرورة واحد من المصطلحات التي ما زال البحث فيها محتاجًا إلى مزيد من الدراسة والتعمّق؛ فهو ذو صلة بتاريخ التفكير اللغوي العربي القائم على أن هناك أصولاً تُتَّبع في اللغة، وهناك ما يستدعي الخروج على هذه الأصول لضرورة ما من الضرائر التي تعرض للإنسان في مقامات مختلفة.

فقد نشأ التفكير اللغوي العربي على مجموعة من القواعد القائمة على الاستقراء الناقص للكلام العربي، واستُخرجت من هذا الاستقراء مجموعةٌ من الأصول المقرَّرة جعلها سيبويه[1] (- ١٨٠هـ) في مفتتح كتابه، ووضعها تحت عناوين توحي أنه يتكلَّم على قواعد عامَّة تنتظم بها اللغة، ولا يجوز للمتكلم أن يخرج عليها؛ لأن ذلك يجعله خارج اللغة.

(*) باحث في علوم اللغة العربية وأستاذ في جامعة البعث بحمص.

(١) عندما نذكر سيبويه فإننا نتحدث عن آراء مجموعة من النحاة، وعلى رأسهم الخليل بن أحمد الفراهيدي (- ١٧٠هـ)، لأن لفظ سيبويه في الكتاب - كما يُقال معقود بلفظ الخليل، ويُضاف إلى ذلك ما أفادة سيبويه من مؤسسي النحو العربي. انظر: سيبويه، الكتاب، مقدمة المحقق، ج١، ص: ١٩ - ٢١ .

وقد تناولت هذه القواعدُ الأصولية أنواعَ الكلم فيما سمّاه سيبويه (العربية)، ومجاري أواخر الكلم[٢]، وعنى بذلك حركات الإعراب، وعلامات البناء، وأركان التركيب العربي القائم على المسند والمسند إليه.

ولاحظ سيبويه خصائص تتعلق بدلالات المفردات في العربية مما له صلة بسياق استعمالها أو معانيها الوضعية أو بنيتها، وذلك في باب (هذا باب اللفظ للمعاني)، وقد بيَّن فيه أن الأصل في اللغة أن تدلَّ كلُّ كلمة على معنىً خاصٍّ بها في أصل الوضع، وذكر أن من خصائص اللغة ما يقع فيها من ترادف، ومشترك لفظي، وما يعتري ألفاظها من تغيُّرٍ دلاليٍّ بتغيُّر بنيتها[٣].

وأضاف إلى ذلك مجموعة من الأصول التي يقوم عليها كلام العرب، والتي تُبيح للمتكلم أن يحذف الكلم من غير تعويض على خلاف الأصل مثل: (لم يَكُ، ولا أدرِ، وأشباه ذلك). كما تسمح له أن يحذف مع العوض، مثل: (زنادقة وزناديق، وفرازنة وفرازين، حذفوا الياء وعوَّضوا الهاء). أما الاستغناء فإنهم يقولون: (يدعُ ولا يقولون: وَدَعَ، استغنوا عنها بترك. وأشباه هذا كثير).

ولا ريب أن في هذه الأمثلة ما يثير الانتباه؛ فسيبويه، ودارسو اللغة العربية على اختلاف مذاهبهم وتوجُّهاتهم لم تكن نظرتهم إلى اللغة على أنها ألفاظ أو تراكيب ينفصل بعضها عن بعض، بل كانت هذه النظرة كلِّيةً ترى اللغة بناء يُكملُ بعضُه

(٢) المرجع السابق نفسه، ج١ ، ص: ١٣.

(٣) المرجع السابق نفسه، ج١ ، ص: ٢٤.

بعضًا، لذلك فإنّ ما أورده سيبويه من أمثلة لا تعني أن هذه القواعد خاصَّة بالألفاظ المفردة، بل إنها تنطبق أيضًا على التراكيب(٤)، وهذا ما يمكن أن نُفسِّر به عبارته التي يُردِّدُها كثيرًا، وهي: (وأشباه هذا كثير).

وأضاف سيبويه إلى هذه الأصول بعض القواعد الكلية التي يجب على المتكلم أن يتهدّى بها لكي يكون كلامه صحيحًا من حيث الصيغة والدلالة في آن معًا. وأفرد لذلك بابًا سماه (هذا باب الاستقامة من الكلام والإحالة) وأورد فيه أنواع الكلام أو الصياغات الكلامية التي تُعّدُ مقبولة من حيث الصيغة والدلالة، ولذلك فإنه جعل الباب يقوم على جانبي الصيغة الكلامية، جانب الصورة، وجانب المعنى، فما كانت صياغته صحيحة، وليس فيه نقض، فهو مستقيم، وما كانت دلالته مقبولة فهو حسن، وإلا كان مُحالاً؛ لأن بعضه ينقض بعضًا، ولذلك قابل بين المستقيم والإحالة التي تحمل دلالة صياغية، وأخرى معنوية(٥).

(٤) انظر على سبيل المثال ما أورده سيبويه عن عبارة (قال فلانة)، فرأى أنها في طول الكلام أحسن، مثل: (حضرَ القاضيَ امرأةٌ)، قياسًا على أن الحذف في طول الكلام أجمل، تطبيقًا للقاعدة القائلة: (كلما طال الكلام كان الحذف أجمل، وكأنه يصير بدلاً من شيء)، وذلك كالمعاقبة نحو (زنادقة وزناديق)، فتحذف الياء لمكان الهاء. انظر، سيبويه، الكتاب: ج١، ص: ٣٨ .

(٥) مسألة الحسن والقبح في الكلام تتكرَّر في كتاب سيبويه كثيرًا، وتثير تساؤلات عن المقصود بها، ويظهر أن ما عناه سيبويه بالحسن والقبح لا يخرج عن المعاني التي قرَّرها علماء الكلام بعده، وهي: صفة الكمال وصفة النقص، وملاءمة الغرض، وعلى هذا فإن ما يوصف بالحسن كامل، وما يوصف بالقبح ناقص. انظر : الكفوي، الكليات، القسم الثاني، ص: ٢٥٧ .

وقد نبَّه سيبويه في هذا الباب على أهمية السياق في الحكم على الدلالة، فالدلالة هنا لا تتعلق باللفظ المفرد، ولكنها تُستوحى من السياق الكلامي، ويدلّ على ما قدَّمناه ما أتى به من الأمثلة على أنواع الكلام، فقوله: (فأما المستقيم الحسن فقولك: أَتَيْتُكَ أَمْسِ، وسَآتيكَ غَدًا). فهاتان العبارتان مستقيمتان من حيث الصيغة النحوية، وحسنتان من حيث الدلالة، والسياق سبيل إلى الحكم عليهما بهاتين الصفتين، فقد اكتملت فيهما عناصر التركيب من فعل وفاعل ومفعول به، وفق الصيغة المعيارية المطلوبة، ولا نجد في الدلالة تناقضًا، فالأولى تضمَّنت فعلاً ماضيًا، وأتى فيها الظرف أمسِ ملائمًا له، على حين مُحِضَ الفعل المضارع في العبارة الثانية للمستقبل، وجاء الظرف غدًا ملائمًا له. ودعي مستقيمًا؛ (لأن ظاهره مستقيم اللفظ، والإعراب غير دالٍّ على كذب قائله.... غير أن الذي استعمله سيبويه في المستقيم، أن يكون مستقيم اللفظ والإعرابِ فقط، وعنى بالمستقيم اللفظِ والإعرابِ أن يكون جائزًا في كلام العرب؛ دون أن يكون مختارًا)[٦].

ووفق هذا المعيار النحوي والدلالي أورد سيبويه بقية الأمثلة[٧]. ويوضح هذه المسألة ما ذكره عن الكلام المستقيم القبيح، فقد ذكر مثالاً لذلك الجملتين الآتيتين: (قد زيدًا رأيتُ ، وكي زيدٌ يأتيك)، ووصف المستقيم القبيح بقوله: (وأما المستقيم القبيح فأنْ تضَعَ اللفظ في غير موضعه). فالعبارة مستقيمة من الوجهة النحوية،

(٦) السيرافي، شرح كتاب سيبويه، ج١ ، ص: ١٨٦.

(٧) سيبويه، الكتاب، ج١ ، ص: ٢٥ – ٢٦.

بمعنى أنها جائزة في كلام العرب، وليس فيها نقض، بمعنى أنها غير متناقضة معنويًّا، وإن كانت تأتي على قلةٍ في ضرورة الشعر، فقد وكي لا يليهما إلا الفعل، فإن اضطرَّ شاعرٌ فقدَّم الاسم، وقد أوقع الفعل على شيء من سببه لم يكن حدُّ الإعراب إلا النصب(٨)، وقبحها متأتٍّ من وضع الألفاظ في غير مواضعها.

أما القبح فيعني هنا النقص وعدم الكمال، وضعف المعنى، وذلك بسبب وضع اللفظ في غير موضعه، وهذا أدى إلى عدم وضوح المراد من الصيغة الملفوظة، ولذلك فإن هذا الخلل الذي وقع في هذه العبارة ووُصف بالقبح، سوف يكون مثالاً لما يقع من ضرائر دلالية في سياقات لغوية مختلفة، فهذه السياقات، وإن قُبِلت نحويًّا، ووُجد لها وجهٌ إلا أنها ناقصة لا تؤدي الغرض.

أما ما كان من الكلام مستقيمًا كذبًا فهو أمرٌ يرجع إلى استعمال الكلمة في سياق لغوي يجعل منها خارج الحقيقة، فالكلام بذلك لا يحتمل حسنًا أو قبحًا، بل هو أمر يغيِّر الدلالة بفعل السياق، فالكلام من هذه الوجهة مستقيمٌ نحويًّا، وليس فيه نقض معنوي، لكنه غير معبِّر دلاليًّا عن الواقع. ومثاله: (حملتُ الجبلَ، وشربتُ ماءَ البحرِ، ونحو ذلك)(٩).

---

(٨) المرجع السابق، ج١، ص: ٩٨ ، وج٣، ص: ١١٤ – ١١٥، وانظر السيرافي، شرح كتاب سيبويه، ج٣، ص: ٣٢٤ – ٣٢٥، وفيه أنهم أجازوا الفصل بين قد والفعل، وإن كان عدم الفصل يقع في الاختيار.

(٩) سيبويه، الكتاب، ج١، ص: ٢٦.

أما الكلام غير المقبول فهو ما سمّاه سيبويه (المحال)، وهو الكلام الذي ينقض آخرُه أوَّله، (فتقول: أتيتك غدًا، وسآتيك أمسِ)(١٠). وقد شرحه السيرافي بقوله: (ومعنى المحال أنه أُحيل عن وجهه المستقيم، الذي به يُفْهمُ المعنى إذا تُكُلِّم به هو الكلام الذي يوجب المتناقضات)(١١). والنوع الآخر من الكلام غير المقبول هو المحال الكذب، وهو الكلام الذي يقع فيه التناقض، كما يقع فيه الكذب، لأنه يدلُّ على خلاف ما يوجبه الظاهر.

ويمكن أن نقول: إن استقامة الكلام تعني صحّة الصيغة النحوية، وعدم وجود نقض في الكلام، فهو مصطلحٌ يحمل دلالة صورية ومعنوية في آنٍ واحد. أما الحسن والقبح فهما معياران لكمالِ الصيغة من حيث وضع الكلام في مواضعه التي قرَّرها علم النحو، ووضوح الدلالةِ نتيجةً لكمال الصيغة. والمحال: هو الكلام المتناقض غير المقبول، فإذا كان في الكلام كذب، فهو يعني أنه جاء على غير ما يكون عليه ظاهره، وهو نوع من تحوّل الدلالات.

وهذه القواعد الأصولية التي بيَّنها سيبويه تُعدّ موجِّهاتٍ عامةً لصياغة التركيب العربي، تنتظم تحتها مجموعة كبيرة من القواعد الفرعية، التي تؤول إليها، وحين ترد بعض الشواهد من شعرٍ وغيره لا تتَّسق وهذه القواعد كان لابدَّ من تأويل الكلام، ورَدِّه إلى القاعدة الكلية، ويكون ذلك بالنظر إلى السياق؛ لأن معيار

(١٠) المرجع السابق نفسه، ج١ ، ص: ٢٥.

(١١) السيرافي، شرح كتاب سيبويه، ج١ ، ص: ١٨٦.

التأويل (عدمُ نقض المعنى)، وهي عبارة تتكرَّر كثيرًا في الكتاب[١٢].

ومن أمثلة ذلك قول جرير:

جِئْني بِمِثْلِ بَني بَـدْرٍ لِقَـوْمِهِم أَوْ مِثْـلَ أُسْرَةِ مَنْظـورِ بـنِ سَـيَّارِ

ومثله قول العجاج:

يَذْهَبْنَ في نَجْدٍ وَغَوْرًا غائِرًا

كأنَّه قال: ويَسْلُكْنَ غورًا غائِرًا؛ لأن معنى يذهبن فيه يسلكن)[١٣].

فقدَّر المحذوف فعلاً لا يتعدى بحرف جرٍّ على أن يكون بمعنى الفعل المذكور فلا ينقض معنى الكلام، وقد استند في هذا التوجيه إلى القاعدة الكليَّة التي جعلها معيارًا للتوجيه، متنبهًا للسياق الذي ورد فيه الاسم المنصوب، وهو سياق الفعل؛ فرجع بالفعل إلى أصل معناه الذي أفاده من السياق اللغوي، ورأى أن مقصود الشاعر أن يعبر بقوله: (يذهبن فيه) عن معنى (يسلكن)[١٤].

وقد تحصَّلت لدى سيبويه بالنظر إلى هذه المعايير التي أوردناها مجموعة من القواعد يُحكم بها على الكلام، ويمكن أن نجملها بما يأتي:

- الإعراب الذي يُعَدُّ أهم قاعدة لغوية لا يصح تجاوزها.
- الإسناد الذي تقوم الجملة العربية على ركنيه اللذين لا يُغني أحدهما عن الآخر.

---

(١٢) سيبويه، الكتاب، ج١ ، ص: ٦٦ – ٦٧.

(١٣) المرجع السابق نفسه.

(١٤) وانظر تأويل البيت الأول، ومعنى قوله: (لأن حرف الجرّ لا يُضمر) في السيرافي، شرح كتاب سيبويه ، ج١ ، ص: ٣٩٧.

– استقامة الكلام نحويًّا، ووضع اللفظ في موضعه في الكلام ليكون حسن الدلالة.

– عدم نقض المعنى.

– الاستغناء بالشيء عن الشيء في اللفظ المفرد والكلام.

– التشبيه.

– القواعد الكلية التي توجّه الدارس إلى الصواب، وتُساق الصيغ الكلامية لتتَّسق معها بالتأويل وبالنظر إلى المعنى، وأصله، أو أصل الكلمة.

ولاحظ سيبويه، بعد أن استقرت لديه هذه الأصول الكلية أن للغة الشعر خصوصية تميزها عن الكلام، ولذلك عقد لهذه اللغة بابًا سماه (هذا باب ما يحتمل الشعر)، وقبل أن نبحث في هذا الباب نتوقف عند عنوانه، لأنه يفتح أمامنا الطريق إلى المقصود منه، وما يلفت الانتباه في العنوان قوله: (ما يحتمل الشعر).

فقد لاحظ أن الشعر يختلف عن الكلام فيخرج الشاعر على القواعد الأصولية التي قرَّرها اضطرارًا؛ واستنبط في هذا الباب مجموعة من الظواهر التي وجد أن الشاعر يضطرُّ إليها، وجمعها في قوله: (اعلم أنه يجوز في الشعر ما لايجوز في الكلام من صرف ما لا ينصرف، يشبهونه بما ينصرف من الأسماء؛ لأنها أسماء. وحذف ما لا يُحذف، يشبِّهونه بما قد حُذف واستُعمل محذوفًا)[١٥].

وأضاف إلى ذلك من بعدُ مجموعة من الظواهر الأخرى، تتعلَّق بالزيادة، وبلوغ الأصل بفكِّ التضعيف، وتثقيل الكلمة، واحتمال قبح الكلام بوضعه في غير موضعه لأنه مستقيم ليس فيه نقض، وجعل ما لا يجري في الكلام إلا ظرفًا

(١٥) سيبويه، الكتاب، ج١ ، ص: ٢٨.

بمنزلة غيره من الأسماء.غير أنه نبّه قارئ كتابه على أن (ما يجوز في الشعر أكثر من أن أذكره لك ههنا؛ لأن هذا موضع جمل، وسنبين ذلك فيما نستقبل إن شاء الله)[١٦]. وقد ذكر كثيرًا مما يُمكن أن يضطر إليه الشاعر في مواضع عديدة من كتابه.

وأوَّل من يصادفنا من الدارسين الذين تأثروا بقواعد سيبويه، ونهجوا نهجه في فهم الصيغ الكلامية العربية، وطريقة النظر إليها أبو سعيد السيرافي (- ٣٦٨ هـ) الذي وجد أننا نصف الكلام بالاستقامة (لأن ظاهره مستقيم اللفظ، والإعرابُ فيه غير دالٍّ على كذب قائله)؛ فهو كلام وضعت ألفاظه في مواضعها، (ولم يكن في لفظه خللٌ من جهة اللغة والنحو)[١٧].

ويقابل هذا النوع من الكلام ما سُمي المستقيم القبيح، وهو الذي يكون مستقيمًا من طريق النحو سالمًا من اللحن، ولكنه موضوعٌ في غير موضعه، وهذا الوضع الذي جاء عليه الكلام يُخِلُّ بمقصوده ودلالته.

ولخَّص السيرافي ما أتى به سيبويه من قواعد كلّية للغة والكلام، في مصطلح ستكون له أهميَّة كبيرة فيما بعدُ، وهو (معاني النحو)، فجعل هذه المعاني قائمة على الإعراب، ووضع الألفاظ في مواضعها، على أن تُعطى حريَّةُ الاختيار للمتكلم في تأليف الكلام بالتقديم والتأخير: (معاني النحو منقسمة بين حركات اللفظ وسكناته، وبين وضع الحروف في مواضعها المقتضية لها، وبين تأليف الكلام بالتقديم والتأخير وتوخّي الصواب في ذلك وتجنُّب الخطأ من ذلك)[١٨].

---

(١٦) المرجع السابق نفسه، ج١ ، ص: ٣٢.

(١٧) السيرافي، شرح كتاب سيبويه، ج١ ، ص: ١٨٦.

(١٨) التوحيدي، أبو حيان، الإمتاع والمؤانسة، ص: ١٠٩.

ولعل المعايير التي وضعها سيبويه في كتابه لتأليف الكلام، وما شرحه السيرافي من هذه القواعد، كل ذلك أَلَّف عند عبد القاهر الجرجاني (- ٤٧١ هـ) منهجًا في الحكم على الكلام جماليًّا، فتحوّل البحث من كونه بحثًا في صِحَّة التركيب إلى بحثٍ في جمال التركيب، وكأني بالجرجاني يُكمل عمل سيبويه، فهو يُعلِّل سبب كون الكلام مستقيمًا حسنًا بجعلِ هذا الكلام قائمًا على ماقرَّره علم النحو، وعلى توخِّي متكلِّمه معاني النحو، فجاء وفق ما يتطلَّبه النظم من معايير. أما الكلام المستقيم القبيح فهو الكلام الذي وقعت ألفاظه في غير مواضعها فاختلَّت دلالة السياق بسبب ذلك.

ومن يرجع إلى كتاب دلائل الإعجاز يجد أن ما أراده الجرجاني بالنظم ليس إلا وجوه أبواب النحو وفروقها، بمعنى ما يستطيع المتكلم أن يصوغه من الجمل الصحيحة تحت باب من أبواب النحو الكلية، والفروق الدلالية لكل تعبير. فهو يتحدث عن وجوه (الخبر)[١٩]، ويأتي بالصيغ الممكنة في التعبير عن هذا الباب، فيقول: (وذلك أنَّا لا نعلم شيئًا يبتغيه الناظم بنظمه غير أن ينظر في وجوه كل باب وفروقه، فينظر في الخبر إلى الوجوه التي تراها في قولك: (زيدٌ منطلقٌ)، و(زيدٌ ينطلق)، و(ينطلق زيدٌ) ، و(منطلقٌ زيدٌ)، و(زيدٌ المنطلق)، و(المنطلق زيدٌ)، و(زيدٌ هو المنطلق)، و (زيدٌ هو منطلقٌ).

(١٩) ويأتي الجرجاني بأمثلة على أساليب أخرى غير الخبر، فيذكر الشرط والجزاء، و(الحال). الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص: ٨١ – ٨٢.

فالجمل التي أتى بها ليست إلا وجوهًا للصيغ الكلامية يُتاح للمتكلم أن يُعَبِّر بها مخبرًا، مراعيًا ما بين كل صيغة وأخرى من الفروق الدلالية، فيستعمل منها ما يمكن أن يؤدي المعنى الذي يقصده بدقَّة، وهذا ما عناه بقوله: (فيعرفَ {الناظم} لكلٍّ من ذلك موضعه، ويجيء به حيث ينبغي له).

وما عناه بمعرفة الموضع ليس إلا الاستعمال الصحيح الدالَّ على المعنى المقصود، فلا يأتي بصيغة بدل أخرى، ولكن يأتي بالصيغة التي تدل على المعنى الذي يريده، وهذا ما أوضحه في كلامه على (الجمل التي تُسرَد)، حيث بيَّن أن على الناظم أن يعرف (موضع الفصل من موضع الوصل)، أي: متى يجب فصل الجمل ومتى يجب وصلها؟ وكذلك أشار إلى أن على الناظم أيضًا أن يعرف في حالة الوصل مواضع استعمال أحرف العطف، فيستعمل كلًّا منها في مكانه الصحيح، ووفق ما يقتضيه المعنى .

وهكذا الأمر فيما يتعلق بحروف المعنى، فيُنظر (في الحروف التي تشترك في معنىً، ثم ينفرد كل واحد منها بخصوصية في ذلك المعنى، فيضع {الناظم} كلًّا من ذلك في خاصِّ معناه، نحو أن يجيء بـ (ما) في نفي الحال،{و} بـ (لا) إذا أراد نفي الاستقبال.....).

ويمكن للناظم أن يتصرَّف (في التعريف، والتنكير، والتقديم، والتأخير، في الكلام كله، وفي الحذف، والتكرار، والإضمار، والإظهار). وهذه التصرفات تعني أن الناظم يستطيع أن يستعمل ما تتيحه اللغة لمتكلمها من وسائل يستطيع بها أن

يصوغ عباراته لتعبِّر عن معانيه المقصودة من غير أن يخرج على قواعدها المقررة، (فيصيبَ بكلٍّ من ذلك مكانه، ويستعمله على الصحَّة وعلى ما ينبغي له).

فإذا استطاع الناظم أن يضع كلامه في مواضعه، مراعيًا بذلك معاني النحو، كانت لنظمه المزية والفضل، وإن لم يفعل وُصِف نظمه بالفساد. (هذا هو السبيل، فلست بواجد شيئًا يرجع صوابه إن كان صوابًا، وخطؤه إن كان خطأً، إلى النظم، ويدخل تحت هذا الاسم، إلا وهو معنى من معاني النحو قد أصيب به موضعه، ووضع في حقِّه، أو عومل بخلاف هذه المعاملة، فأزيل عن موضعه، واستعمل في غير ما ينبغي له)[٢٠].

ومَن يدقق النظر فيما قاله الجرجاني فسيدرك أنه لم يخرج فيما قرَّره عما كان قد بيَّنه سيبويه والسيرافي من قواعد الكلام وطرائق المفاضلة بينها.

وقد أبان نظريته في النظم القائمة على مراعاة معاني النحو ومفهوم (المواضع) بأن نظر إلى الشعر المنظوم، الذي لا يختلف القوم في حسنه، فأبطل نظم هذا الشعر، ووضع ألفاظه في غير مواضعها، فتحوَّل إلى مجرد كلمات لا تدلُّ على معنى، وهذا ما فعله ببيت امرئ القيس المعروف:

قِفَا نَبْكِ مِنْ ذِكْرَى حَبيبٍ وَمَنْزِلِ بِسِقْطِ الِّلوى بَيْنَ الَّدخولِ فَحَوْمَلِ[٢١]

لقد كانت هذه هي القواعدالكلية والأصولية التي وضعها علماء اللغة والبلاغة لتمييز حَسَنِ الكلام من قبيحه، وقد صارت بعد ذلك قواعد للحكم على ما سُمي

(٢٠) المرجع السابق نفسه، ص: ٨٢ – ٨٣.

(٢١) الجرجاني، أسرار البلاغة، ص: ٢.

(ضرورة الشعر)، وقد ارتبطت دراسات العلماء للضرورة بالشعر جريًا وراء ما قرَّره سيبويه في قوله: (اعلم أنَّه يجوز في الشعر ما لايجوز في الكلام)[٢٢].

وعبارة سيبويه (يجوز في الشعر)، أدت إلى أن يقف اللغويون والنحاة من الضرورة في الشعر مواقف مختلفة، فهذا ابن فارس (-٣٩٥ هـ)، يحمل على ما سمي ضرورة شعرية، وينسبها إلى الخطأ، كما يحمل على أولئك الذين يحاولون تأويل ما جاء في الشعر من ضرورات، ويجادل من يجعل الضرورة بسبب الوزن، أو بسبب توجه الشاعر إلى المعنى فيتسمَّح بقبح الصياغة[٢٣].

بيد أن ابن جني (- ٣٩٢ هـ) يفهم الضرورة على خلاف ما فهمها ابن فارس، فهو - وإن أقرَّ بقبح الضرورة، وأنها نوع من الجور والتعسُّف - كان يرى أن ارتكاب الشاعر الضرورة (مؤذن بصياله وتخمُّطه، وليس بقاطع على ضعف لغته، ولا قصوره عن اختيار الوجه الناطق بفصاحته). وهكذا فإن هذا الشاعر (لأنسه بعلم غرضه وسُفور مراده لم يرتكب صعبًا، ولا جَشِم إلا أمَمًا وافق بذلك قابلاً له، أو صادف غير آنس به)[٢٤].

ورأى ابن جني أن الضرورة ليست بسبب ارتجال الشاعر؛ لأن القدامى من الشعراء والمحدثين يصبرون على الشعر ويلاطفونه، ويُحكمون صنعته، وكأنه يلمِّح بكلامه الذي سبق إلى أنها نوع من اختيار الشاعر[٢٥]، وليست إلجاءً إلى الشيء.

---

(٢٢) سيبويه، الكتاب،ج١ ، ص: ٢٦.

(٢٣) ابن فارس، ذمُّ الخطأ في الشعر، ص: ٢١.

(٢٤) ابن جني، الخصائص، ج٢ ، ص: ٣٩٣.

(٢٥) المرجع السابق نفسه، ج١ ، ص: ٣٢٤ – ٣٣٥.

وقد أبان أبو حيان (– ٧٤٥ هـ) هذه المسألة بقوله: (وإنما يعنون بالضرورة: أن ذلك من تراكيبهم الواقعة في الشعر المختصة به، ولا يقع في كلامهم النثري، وإنما يستعملون ذلك في الشعر خاصة دون الكلام، ولا يعني النحويون بالضرورة أنه لا مندوحة عن النطق بهذا اللفظ)[٢٦].وما قاله أبو حيان من أن مسألة الضرورة قاصرة على الشعر لا يوافقه عليه بعض الدارسين، فقد أشار ابن جني إلى أنها تقع في النثر أيضًا، وأورد على ذلك أمثلة متعدِّدة[٢٧]، كما أشار إلى الأمر نفسه ابن عصفور (– ٦٦٣ هـ) في ضرائر الشعر، وإن كان حصرها في النثر المسجَّع[٢٨]. وهذا ما يجعلنا نميل إلى أن مسألة الضرورة ليست قائمة على الإلجاء بقدر ما هي قائمة على الاختيار في بعض حالاتها.

والناظر في الضرائر التي أوردها الدارسون يمكنه أن يميِّز بين ما جاء ضرورة لفظية دعت إليها ضرورة الوزن، وما جاء ضرورة تقود إلى مسألة معنوية، وهذا ما يؤدي إلى ما نسميه (الضرورة الدلالية)، وقد أشار إلى ذلك القزاز القيرواني (– ٤١٢هـ) حين تحدث عن الضرورة فنبه على أنها تتعلق بالزيادة والنقصان، والاتساع في سائر المعاني، من التقديم والتأخير، والقلب

(٢٦) السيوطي، الأشباه والنظائر، ج١ ، ص: ٤٨٤ ، وانظر كلام ابن عصفور على مسألة الاضطرار في ضرائر الشعر، ص: ١٣.

(٢٧) ابن جني، الخصائص، ج١ ، ص: ٣٢٩.

(٢٨) ابن عصفور، ضرائر الشعر، ص: ١٤.

والإبدال، فربط بذلك بين الضرورة والمعنى[٢٩]. وفي كلتا الحالتين نجد أن الحكم على أن السياق أو اللفظ وقعت فيه الضرورة يبقى مرتهنًا بالتعليل الذي يقوم على تحكيم القواعد الكلية أو ما يتفرَّع عليها من القواعد.

ومن الضرورات اللفظية التي لا تؤثر في المعنى، ولكنها جاءت لتصحيح الوزن ما أورده سيبويه في باب (ما يحتمل الشعر) حيث قال: (وربما مدُّوا مثل مساجد ومنابر، فيقولون: مساجيد ومنابير، شبَّهوه بما جُمع على غير واحده في الكلام، كما قال الفرزدق:

تَنْفي يَداها الحَصى في كُلِّ هاجِرَةٍ نَفْيَ الدَّنانيرِ تَنْقادُ الصَّياريفِ)[٣٠].

ولكن هناك العديد من الأمثلة مما ورد عن علماء اللغة والنحو على أنه من الضرورة ما يدخل في مجال الضرورات التي تُحمل على أنها ضرورات دلالية؛ لأنها- وإن كانت في ظاهرها مسائل تتعلق بقضايا لغوية أو نحوية- تقود إلى مسائل دلالية.

من ذلك أن الشاعر حين يقع في الضرورة ينظر إلى السياق، فيحاول أن يخرج من الضرورة بما لا يؤثّر في المعنى، ويَحتمل كما قال سيبويه قبحَ الكلام حتى يضعه في غير موضعه جريًا وراء صحة المعنى[٣١]. مثال ذلك ما قاله أبوالأسود الدؤلي فيما ذكره سيبويه نقلاًعن عيسى بن عمر(-١٤٩هـ) :

---

(٢٩) القزاز القيرواني، ما يجوز للشاعر في الضرورة، ص: ٩٩.

(٣٠) سيبويه، الكتاب، ج١، ص: ٢٨.

(٣١) ذكر ابن جني في الخصائص ج١، ص: ٢١٧ اهتمام العرب بمعانيها، ونبه على ذلك.

فَأَلْفَيْتُــهُ غَــيْرَ مُــسْتَعْتِبٍ وَلا ذاكِــرَ[٣٢] اللهَ إِلَّا قَلــيلا

فقد ذكر أن الشاعر حذف التنوين من (ذاكر) بسبب التقاء الساكنين، ولم يحذفه استخفافًا ليعاقب المجرور، وشبه ذلك بقولهم: (رمى القوم)، ووصف هذا الحذف بأنه اضطرار[٣٣].

لكننا نتوقف عند الضرورة الثانية التي وقعت في البيت، وهي نصب لفظ الجلالة؛ لأن الوجه في هذه الصيغة الجرُّ، وقد أشار ابن هشامٍ إلى هذه المسألة، وعلَّل نصب لفظ الجلالة بقوله: (وإنما آثر ذلك على حذفه للإضافة لإرادة تماثل المتعاطفين في التنكير)[٣٤]. فكان المعنى أساس صياغة التركيب، واحتمل الشاعر الضرورة من أجله.

ويمكن أن نميز في هذا المجال بين ما تقع فيه الضرورة خارج السياق اللغوي، فتكون ضرورته متعلقة بالكلمة ذاتها من حيث بنيتها، وما يقع في الكلمات داخل السياق اللغوي، وهو أكثر ما وقع من الضرورات، وهذا ما يمكن أن نعدَّه من الكلام المستقيم القبيح الذي أشار إليه سيبويه، وتابعه على نظرته كثير من العلماء اللاحقين.

أما ما ورد من الضرورات خارج السياق اللغوي والمتعلق ببنية الكلمة فهو

(٣٢) قال ابن عصفور، ص: ١٠٥: يريد ولا ذاكرًا.

(٣٣) المرجع السابق نفسه، ج١، ص: ١٦٩.

(٣٤) ابن هشام، مغني اللبيب، ج٢، ص: ٧١٧.

مما ورد في باب الإلحاق[٣٥] الذي هو صناعة لفظية، فقد امتنع العرب من إلحاق بعض الأمثلة بالرباعي بسبب أن الزيادة فيها لمعنى، فاضطروا إلى تنكب الإلحاق صونًا للمعنى، وهذا يمكن أن نعدَّه من الضرورات التي لحقت بالكلمة خارج السياق ، وهو ضرورة دلالية. وقد ذكر ابن جني أن العرب امتنعوا من إلحاق (فاعـل)، و(أفعل)، و(فعَّل) بـ (دحرج)، وإن كانت بوزنه؛ لأن الزوائد في هذه المُثُل إنما جيء بها للمعاني[٣٦]؛ ولذلك (خشوا إن هم جعلوها ملحقةً بذوات الأربعة أن يُقدَّر أن غرضهم فيها هو إلحاق اللفظ باللفظ نحو شملل، وجهور، وبيطر، فتنكَّبوا إلحاقها بها، صونًا للمعنى، وذبًّا عنه أن يُستهلك ويسقط حكمه، فأخلُّوا بالإلحاق لما كان صناعة لفظية، وقرّوا المعنى)[٣٧].

أما الضرورة الدلالية في الكلمات داخل السياق فأمثلتها عديدة، ويمكن أن نذكر منها ما جاء على سبيل الاستعارة[٣٨]، فقد لاحظ اللغويون أن بعض

---

(٣٥) معنى الإلحاق في الاسم والفعل أن تزيد حرفًا أو حرفين على تركيبٍ؛ ليصير ذلك التركيب بتلك الزيادة مثل كلمة أخرى في عدد الحروف وحركاتها المعينة والسكنات، كلُّ واحد في مثل مكانه في الملحق بها، وفي تصاريفها : من الماضي والمضارع والأمر والمصدر والتكسير إن كان الملحق به اسمًا رباعيًّا، ومن التصغير والتكسير إن كان الملحق به اسمًا رباعيًّا لا خماسيًّا. انظر: الرضي الأستراباذي، شرح الشافية، ج١ ، ص: ٥٢.

(٣٦) انظر معاني هذه المثل في : ابن جني، الخصائص، ج١ ، ص: ٢٢٣.

(٣٧) ابن جني، الخصائص، ج١، ص: ٢٢٣ – ٢٢٤.

(٣٨) جعل السكاكي هذه المسألة من باب المجاز اللغوي الراجع إلى معنى الكلمة غير المفيد؛ لأنه نوع من إطلاق المقيد، السكاكي: مفتاح العلوم، ص: ٤٧٢.

الشعراء يبدلون كلمة دالة على عضو من أعضاء الحيوان بكلمة تدل على هذا العضو عند الإنسان، وكذلك العكس، وقد يستعملون اسم عضو خاصٍّ بحيوان ما لحيوان آخر، فتوقفوا عند هذه المسألة[٣٩].

وقد وجد بعض اللغويين أن من هذه الأسماء كالفم والشفة والأظافر ما هو عام ينطبق على كل الأجناس، ومنها كلمة (فم)، حيث ذكر يونس بن حبيب (- ١٨٢هـ) أنها لكلِّ شيء.[٤٠] وهو ما ذهب إليه الأصمعي (- ٢١٦هـ) الذي نصّ على أن الفم (قد يجوز في كلِّ شيء)[٤١]. وخصصوا كلامهم في بعض الأسماء، فنسبوا للإنسان أسماء، ولأنواع الحيوان أسماء أخرى، ويوحي كلام قطرب (- ٢١٠ هـ) والأمثلة التي أتى بها بأن هذه الأسماء يمكن أن يقوم بعضها مقام بعض[٤٢]، وكذلك ورد لدى الأصمعي ما ينص على جواز إقامة بعض هذه الأسماء مقام بعض، وذلك حين ذكر في باب الشفة أنه (ربما أُقيم بعض هذه الأشياء مقام بعض إذا اضطر الشاعر إلى ذلك)[٤٣]، وذلك بعد أن ذكر تسميات الشفاه الخاصة بكل حيوان، لكنه بعد ذلك أورد قول ذي الرُّمَّة:

أَكُنْ مِثْلَ ذي الألآفِ لُزَّت كُراعُه إلى أُختـه الأخـرى وَولّى صـواحبُه

(٣٩) انظر: ابن عصفور، ص: ٢٤٥.

(٤٠) قطرب، كتاب الفرق، ص: ٤٦.

(٤١) الأصمعي، كتاب الفرق، ضمن كتاب: رسالتان في اللغة، ص: ٥٦.

(٤٢) قطرب، كتاب الفرق، ص: ٤٦ – ٤٧.

(٤٣) المرجع السابق نفسه، ص: ٥٨.

وقال: (أراد وظيفه[٤٤]، فقال كُراع، والكراع : للشاء)[٤٥]. فأشار بهذه الأمثلة إلى جواز إقامة بعض هذه الأسماء مقام بعض في الشعر.

وقد ربط هؤلاء اللغويون بين إقامة اسم مقام آخر بضرورة الشعر من غير أن يبينوا طبيعة هذا الاضطرار، ولذلك توقف الأصمعي عند قول النابغة الذبياني:

وقُلتُ يا قَومُ إِنَّ اللَيْثَ مُنْقَبِضٌ عــلى بَراثِنِــهِ لِعَــدْوَة الــضاري

فقال: (وإنّما هذا اضطرار والأصل ما ذكرناه)[٤٦]. يشير بذلك إلى أن كلمة (بُرثُن) تطلق على ظُفر ما لم يكن من سباع الطير[٤٧].

بيد أن ثابت بن أبي ثابت[٤٨] ينص في كلامه على بعض هذه الأمثلة أنها استعارة، فقال: (وقد يُستعار الظُفر لكل شيء). (وقد يستعار الظُفر للطائر والسبع)[٤٩].

وكان مع هذا التوجه ابن دريد (- ٣٢١ هـ) في الجمهرة، فحمل هذه الأمثلة على الاستعارة، ولم يحملها على الضرورة، ولكنه ربط هذا النوع من الاستعارة بما يمكن أن نسميه الجانب الاجتماعي من هذه الاستعارات، فكان يذكر ما يتداوله

---

(٤٤) الوظيف في البعير مابين الخف إلى الركبة في اليد..

(٤٥) المرجع السابق نفسه، ص: ٥٩.

(٤٦) الأصمعي، كتاب الفرق، ص: ٦٣.

(٤٧) المرجع السابق نفسه، ص: ٦٢. قال أبو زيد: (البُرثُن مثل الإصبع، والمِخلب ظُفر البرثُن). ثابت بن أبي ثابت، كتاب الفرق، ص: ٢٤.

(٤٨) من علماء القرن الثالث، لا تُعرف سنة وفاته.

(٤٩) ابن أبي ثابت، ثابت، كتاب الفرق، ص: ٢٣.

الناس منها في كلامهم، ويأتي بشاهد على ذلك من الشعر، وكأن هذه الاستعارات لم تكن خاصَّة بالشعر وحده بل هي مما ألفه الناس في المجتمع. من ذلك[٥٠]: (يقولون للرجل إذا عابوه: أتانا حافيًا متشقق الأظلاف، قال الأخطل:

سَـأَمْنَعُها أو سَـأَجْعَلُ أَمْرَهـا إلى مَلِـكٍ أَظْلافُـه لَم تَـشَقَّقِ)

ويُقال للرجل إنه لعريض البطان، وليس له بطان: يراد به عريض الوسط، ويُقال: حرِّك خِشاشه فغضب، وإنما يُحرَّك خشاش البعير، فأراد أنه حرِّك ولا خشاش هناك، ويقال: أتانا فلان فغرَّز ذنبه فما يبرح، ولا ذنب له، وإنما يغرِّز أذنابه الجراد....).

ويثير انتباهنا في هذا المقام موقف السيرافي (– ٣٦٨ هـ) الذي تحدث عن هذه الاستعارات، وارتضاها معلِّلاً ذلك بأن وضع الاسم مكان الاسم على سبيل الاستعارة قد يجري مثله في الكلام (حتى لو أخرجه مخرج عن باب الضرورة لم يكن بالمخطئ)[٥١].

وقد وقف النقاد والبلاغيون من هذه الاستعارات موقفًا متحفِّظًا، بل موقفًا رافضًا[٥٢]. أما أهم من بحث مسألة هذه الاستعارات بلاغيًّا فهو عبد القاهر الجرجاني الذي وقف منها موقفين. الأول موقف المتحفِّظ فعدَّها من الاستعارات غير المفيدة، وجعل أساسها الذي تقوم عليه (اختصاص الاسم بما

(٥٠) ابن دريد، الجمهرة، ج٣ ، ص: ٤٨٩ – ٤٩٠.

(٥١) السيرافي، شرح كتاب سيبويه، ج١ ، ص: ٢٣٥.

(٥٢) يُنظر: عيار الشعر، ص: ١٠٢ – ١٠٣ ، والموازنة، ج١ ، ص: ٤٥ – ٤٦.

وضع له من طريق أريد به التوسع في أوضاع اللغة والتنوُّق في مراعاة دقائق الفروق في المعاني المدلول عليها، كوضعهم للعضو الواحد أسامي كثيرة بحسب اختلاف أجناس الحيوان نحو وضع الشفة للإنسان، والمشفر للبعير). وتصبح هذه الأسماء استعارات حين يستعمل الشاعر شيئًا منها في غير الجنس الذي وضع له، فينقل الاسم عن موضعه ويجوز به معناه.

لكنه وصف هذه الاستعارات بأنها قصيرة الباع، قليلة الاتساع. وأنها استعارة من جهة اللفظ، أي إنها تقوم على إبدال لفظ بلفظ من غير أن يكون لذلك علاقة بالمعنى. فقد علَّق على بيت الشاعر:

فَبِتْنا جُلوسًا لدى مُهرِنا نُنَزِّع مِنْ شَفَتَيْهِ الصَّفارا

بقوله: (فاستعمل الشفة في الفرس، وهي موضوعة للإنسان، فهذا ونحوه لا يفيدك شيئًا لو لزمت الأصلي لم يحصل لك، فلا فرق من جهة المعنى بين قوله: من شفتيه، وقوله: من جحفلتيه، لو قاله).

أما موقفه الثاني، فهو الموقف الذي نزعم أنه اعتمد فيه على ما ورد في الجمهرة لابن دريد، وعلى ما أورده السيرافي؛ فقد رأى أن بعض هذه الاستعارات أبعد غورًا من سابقتها، وهي استعارات من جهة المعنى، وما يؤكد ذلك في رأيه أنها قائمة على ما شاع في كلام العرب من هذه الاستعارات. (فمن ذلك قولهم: إنه لغليظ المشافر، وذلك أنه كلام يصدر في مواضع الذم، فصار بمنزلة أن يقال: كأن شفته في الغلظ مشفر البعير، وجحفلة الفرس، وعلى ذلك قول الفرزدق:

فَلَو كُنتَ ضبيًّا عَرَفْتَ قَرابَتي ولَكِنَّ زِنْجِيًّا غَليظُ المَشافِرِ)[٥٣]

(٥٣) يُنظر: الجرجاني، أسرار البلاغة، ص: ٢٢ – ٢٩.

والحقيقة أن هذه المواقف من هذه الاستعارات مبعثها لغوي، قائم على أنه لا يجوز وضع اللفظ في غير موضعه، من غيرنظرٍ إلى أن الشاعر، وهو يفعل ذلك فيرتكب هذه الضرروة، وجد أن إبدال هذه الأسماء بعضها ببعض يجعل كلامه أكثر تعبيرًا عن المعنى الذي قصده بأخصر عبارة، وهو يعلم أنه لم يخرج على قواعد اللغة، ودلالاتها؛ لأن مثل هذا الإبدال موجود في كلام العرب، فارتكب ضرورة دلالية من أجل المعنى الذي يسعى إليه، ويقصده. ولا شك أن هذه العبارات إذا دقّقَنا فيها لا تقوم على العيب وحده بل فيها ما يدلُّ على الملاطفة، والهزء والسخرية، والإشفاق إضافةً إلى العيب. وهذا ما نفهمه من قول الشاعر:

وَذَاتِ هِـدمٍ عـارٍ نواشِرُهـا تُـصْمِتُ بالمـاءِ تولَبًـا جَـدِعا

(فأجرى التولب على ولد المرأة وهو لولد الحمار في الأصل، وذلك لأنه يصف حال ضرٍّ وبؤس، ويذكرُ امرأة بائسةً فقيرة)(٥٤).

أما موقف النقاد من هذه الاستعارات ووصفها بالقبح فمردُّه – فيما نزعم – إلى أن الناقد يطلب من الشاعر أن يأتي بالمعاني الطريفة، والاستعارات المخترعة، وأن يبتعد عن كلام العامَّة.

أما الضرورات الدلالية التي تتعلق بالتركيب والسياق اللغوي فكثيرة جدًّا، منها ماله صلة بالتقديم والتأخير، وماله صلة بالفروق والفصول، والحمل على المعنى، والحمل على الموضع، والاستغناء، وكل ذلك يمكن إرجاعه إلى وضع الكلام في غير موضعه، فيصبح من الكلام المستقيم القبيح كما قال سيبويه.

(٥٤) المرجع السابق نفسه، ص: ٢٩.

وقد أبانت تعليقات الباحثين القدامى في هذه المسألة عن وعي عميق بالسياق الذي كان عمدتهم في هذا التحليل، وتعدُّ دراساتهم في هذا المجال منهجًا يُتَّبع في الدراسات السياقية. ولمّا كان المجال لا يسمح ببحث هذه الأمور كلها فإننا سوف نختار بعضها، ويمكن حمل ماعدا ذلك على ما ذكرناه.

ولعل بيت الفرزدق المشهور الذي يمدح فيه إبراهيم بن إسماعيل خال هشام بن عبد الملك الذي يقول فيه:

وما مِثْلُه في النَّاسِ إلا مُمَلَّكًا أبـو أُمِّـه حـيٌّ أَبـوه يُقارِبُـه

من أكثر الأمثلة التي ساقها اللغويون والبلاغيون للدلالة على استقامة اللفظ، والتواء المعنى بسبب عدم وضع اللفظ في مواضعه داخل السياق.

ومن اللغويين الذين عابوه السيرافي (– ٣٦٨ هـ) الذي نسبه إلى الضرورة؛ لأن (فيه ضروبًا من العيوب من التقديم والتأخير، وحق الكلام على ما ينبغي أن يكون عليه اللفظ)[٥٥]. وتلاه ابن جني(– ٣٩٢ هـ) الذي قال عنه: (ومراده فيه معروف، وهو فيه غير معذور)[٥٦].

وقد أثار هذا البيت حفيظة البلاغيين كالخفاجي[٥٧] (– ٤٦٦ هـ). بيد أن عبد القاهر الجرجاني (– ٤٧١ هـ) كان من أكثرهم إيضاحًا لعلل البيت، فقد بيَّن مشكلاته في الصياغة التي أثّرت في المعنى، وجعله مثالاً على سوء نظم الكلام، فقال: (فانظر

(٥٥) السيرافي، ج١ ، ص: ٢٤٤، وانظر القزاز القيرواني، مايجوز للشاعر في الضرورة، ص: ٣٠٩.

(٥٦) ابن جني، الخصائص، ج١ ، ٣٢٩ – ٣٣٠ .

(٥٧) الخفاجي، سر الفصاحة، ص: ١٠٥ .

أَيُتَصَوَّرُ أن يكون ذمُّك للفظه من حيث أنكرت شيئًا من حروفه أو صادفتَ وحشيًّا غريبًا، أو سوقِيًّا ضعيفًا، أم ليس إلا لأنه لم يرتب الألفاظ في الذكر، على موجب ترتيبها في الفكر، فكدَّ وكدَّر، ومنع السامع أن يفهم الغرض إلا بأن يُقدِّم ويُؤَخِّر، ثم أسرف في إبطال النِّظام، وإبعاد المرام، وصار كمن رمى بأجزاء تتألف منها صورة، ولكن بعد أن يُراجَع فيها بابٌ من الهندسة لفرط ما عادى بين أشكالها، وشدة ما خالف بين أوضاعها)[٥٨]. إن صياغة البيت على هذه الصورة أبهمت المعنى، وجعلت الضرورة من الضرائر الدلالية التي قادت إليها الصياغة غير الحسنة.

ومن الضرورات الدلالية التي أشار إليها الدارسون القدامى ما يتعلق بمنع صرف المنصرف، وأوردوا على ذلك عدة شواهد، منها قول ذي الإصبع العدواني:

وَمِمَّـــنْ وَلَـــدوا عامِـــ رُ ذو الطُّـولِ والعَـرْضِ

ففي هذا البيت ترك الشاعر صرف كلمة (عامر)، فاختلف النحاة في ذلك، وأوَّلوا البيت تأويلات شتى، إضافة إلى تأويلاتهم التي شملت مجموعة من المرويات الشعرية، وقامت على هذه الشواهد واحدة من مسائل الخلاف بين النحويين[٥٩]. وما يلفت الانتباه في هذا الأمر أن الخلاف الذي كان مبتدأَه صناعةٌ نحوية صِرْفٌ تحوَّل إلى خلاف حول المعنى، فتحولت المسألة إلى ما نسميه الضرورة الدلالية.

وكان موقف الكوفيين في هذه المسألة معتدًّا بالرِّوايات التي وردت، وفيها

(٥٨) الجرجاني، أسرار البلاغة، «طبعة ريتر»، ص: ٢١.

(٥٩) انظر هذه المسألة في: الأنباري، الإنصاف، المسألة: ٧٠، ص: ٤٩٣.

هذه الضرورة. أما البصريون فأوَّلوا هذه المسألة تأويلاً معنويًّا بغية التخلص من الضرورة النحوية، ولكنهم ذهبوا في ذلك إلى الضرورة الدلالية.

ولذلك رفض الكوفيون أن يكون المقصود من (عامر) القبيلة، لأنه كان سيقول: (ذات الطول وذات العرض). وقد تأول البصريون الكلام على خلاف ذلك، فقالوا: (وأما عامرُ ذو الطول وذو العرض، فإن عامرًا أبو القبيلة، فيجوز أن يعني بلفظه القبيلة، فلا يصرف. ثم إنه يردُّ الكلام إلى لفظه فيصرف. كما قال ﷻ: ﴿أَلا إِنَّ ثَمُودًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلا بُعْدًا لِثَمُودَ﴾ [هود: ٦٨] فصرف الأول، وترك صرف الثاني، على قراءة أكثر القرَّاء، فصرف الأول على لفظ أبي القبيلة، وترك صرف الثاني؛ لأنه أُريد بلفظه القبيلة نفسها)[٦٠].

وقد جعلوا ذلك من باب الحمل على المعنى[٦١]، وهو كما يقولون كثير في كلامهم[٦٢]، ومنهم من جعل ذلك نوعًا من التنقل من معنى إلى معنى، وهو كما يقولون: إنه أيضًا كثير في كلامهم[٦٣]. وردَّ الكوفيون ذلك بأنهم لا ينكرون الحمل على المعنى ولا التنقل من معنى إلى معنى، ولكن الحمل على اللفظ والمعنى أولى من

(٦٠) السيرافي، شرح كتاب سيبويه، ج١، ص: ١٩٣.

(٦١) يذهب بعض اللغويين إلى أن الحمل على المعنى نوع من الضرورة، انظر: القزاز القيرواني، ما يجوز للشاعر في الضرورة، ص: ٣١٤.

(٦٢) الأنباري، الإنصاف، ص: ٥٠٦.

(٦٣) نفسه، ص: ٥٠٩.

الحمل على المعنى دون اللفظ، وجري الكلام على معنى واحد أولى من التنقل من معنى إلى معنى(٦٤). فالشاعر في هذا البيت وفق رأيهم وقع في الضرورة، أما البصريون فحملوا الكلام على الضرورة الدلالية ليستقيم الكلام نحويًّا.

خاتمة: الضرورة الدلالية - كما لاحظنا - مصطلح قد يبدو لأول وهلة غريبًا؛ ولكنه موجود في كثير من العبارات، وربما قادت إليه ضرورة الشعر بسبب وزنه وقافيته، ولكن الشاعر يتجاوز ضرورة الشعر، لكي يصوغ كلامه وفق مقتضيات المعاني التي يريدها، فتتحوَّل على يديه ضرورة الشعر إلى ضرورات دلالية قائمة في كثير من الحالات على مبدأ الاختيار، فضرورة الشعر، وإن كان فيها نوع من الإلجاء، وهي ليست كذلك كما ورد عند أبي حيان، فإن الضرورة الدلالية من اختيار الشاعر في غالب الأحيان.

المصادر والمراجع

١- الآمدي، أبو القاسم الحسن بن بشر، **الموازنة**، تحقيق: السيد أحمد صقر(ج١)، دار المعارف، القاهرة، ط٤ ، ١٩٩٢.

٣- الأصمعي، أبو سعيد عبد الملك بن قريب، **الفرق**، ضمن (رسالتان في اللغة)، تحقيق: د. صبيح التميمي، مكتبة الثقافة الدينية، ط٢ ، ١٩٩٢ م.

٤- الأنباري، كمال الدين أبو البركات، عبد الرحمن بن محمد بن أبي سعيد. **الإنصاف في مسائل الخلاف**. تحقيق، محمد محيي الدين عبد الحميد. المكتبة التجارية الكبرى. القاهرة. ط ٤ ، ١٩٦١ م.

(٦٤) نفسه، ص: ٥١٠ - ٥١١ ، وقارن ذلك بما لدى ابن عصفور في : ضرورة الشعر، ص: ١٠١ – ١٠٥.

٥- ابن أبي ثابت، ثابت اللغوي، **كتاب الفرق**، تحقيق: د. حاتم صالح الضامن، مؤسسة الرسالة ، بيروت.

٦- الجرجاني، عبد القاهر. **دلائل الإعجاز**. تحقيق: محمود محمد شاكر. مكتبة الخانجي. القاهرة.١٩٨٤ م.

٧- **أسرار البلاغة**، تحقيق: محمد رشيد رضا، دار المعرفة، لبنان، ١٩٨٢ م. وهي الطبعة المعتمدة في البحث مالم نشر إلى طبعة أخرى.

٨- **أسرار البلاغة**، تحقيق: هـ - ريتر، مكتبة المتنبي، القاهرة ١٩٧٩م.

٩- التوحيدي، أبو حيان، **الإمتاع والمؤانسة**، تحقيق: محمد حسن محمد حسن إسماعيل، دار الكتب العلمية، ط١، ٢٠٠٢م.

١٠- ابن جني، أبو الفتح عثمان. **الخصائص**، تحقيق: محمد علي النجار. دار الهدى. بيروت. ط٢.

١١- **المنصف**، تحقيق: محمد أحمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٩م.

١٢- الخفاجي، ابن سنان، **سر الفصاحة**، تحقيق: د. داوود غطاشة الشوابكة، دار الفكر، ط١، ٢٠٠٦ م.

١٣- ابن دريد، أبو بكر محمد بن الحسن الأزدي، **جمهرة اللغة**، دار صادر، مصورة عن الطبعة العثمانية، ١٣٤٥ هـ.

١٤- الزمخشري، جار الله أبو القاسم محمود بن عمر، **أساس البلاغة**، تحقيق: عبد الرحيم محمود، دار المعرفة، لبنان، ١٩٨٢ م.

١٥- السكاكي، يوسف بن يعقوب، **مفتاح العلوم**، تحقيق: د. عبد الحميد الهنداوي، دار الكتب العلمية، ط١ ، ٢٠٠٠ م.

١٦- السيرافي، أبو سعيد، **شرح كتاب سيبويه**، تحقيق: أحمد حسن مهدلي، وعلي سيد علي، دار الكتب العلمية، لبنان، ط١ ، ٢٠٠٨م.

١٧- سيبويه، أبو بشر عثمان بن قنبر، **الكتاب**، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، عالم الكتب، بيروت.

١٨- السيوطي، جلال الدين، **الأشباه والنظائر**، تحقيق:د. عبد الإله نبهان، مطبوعات مجمع اللغة العربية، دمشق.

١٩- ابن طباطبا، محمد بن أحمد، **عيار الشعر**، تحقيق: د. طه الحاجري ود. محمد زغلول سلام، المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة، ١٩٥٦ م.

٢٠- ابن عصفور الإشبيلي، أبو الحسن علي بن مؤمن بن محمد بن علي. **ضرائر الشعر**، تحقيق: السيد إبراهيم محمد. دارالأندلس، ط١ ، ١٩٨٠ م.

٢١- ابن فارس، أبو الحسين أحمد، **ذم الخطأ في الشعر**، تحقيق: د. رمضان عبد التواب، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٨٠ م.

٢٢- قطرب، أبوعلي محمد بن المستنير، **كتاب الفرق**، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ط١ ، ١٩٨٧ م.

٢٣- القزاز القيرواني، أبو عبد الله محمد بن جعفر. **ما يجوز للشاعر في الضرورة**. تحقيق: د. رمضان عبد التواب، ود. صلاح الدين هادي. دار العروبة، الكويت، ودار الفصحى، القاهرة.

٢٤- الكفوي، أبو البقاء أيوب بن موسى، **الكليات**، تحقيق: د. عدنان درويش، و محمد المصري، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق، ط٢ ، ١٩٨٢م.

٢٥- ابن هشام، جمال الدين، **مغني اللبيب**، تحقيق: د. مازن المبارك، ومحمد علي حمد الله. دار الفكر، بيروت.

٢٦- ابن يعيش، موفق الدين يعيش بن علي، **شرح المفصل**، عالم الكتب، بيروت، مكتبة المتنبي، القاهرة. طبعة مصورة.

التراث الحكائيّ وقصص الأطفال المعاصرة
كتاب (أخبار الأذكياء) أنموذجًا

د. أحمد صوّان(*)

شكّل التراث مادّة خصبة لأمم الأرض شرقًا وغربًا[1]، فراحت تنهل منه عندما توجّهت في الكتابة إلى أطفالها، وفي التراث العربي حكايات كثيرة جدًّا تُمتِع وتُفيد، وتحتوي على مضامين قيِّمة وشائقة، إذ نجد فيه حكايات عن الأذكياء والحمقى

(*) باحث في الأدب والتراث من سورية.

(١) تعدّدت تعريفات التراث ودلالاته وأهميته، وممن وقف عند هذا المصطلح الدكتور محمد عابد الجابري، فرأى أنّ التراث يشير إلى التركة الفكرية والروحية التي تجمع بين العرب؛ لتجعل منهم خلفًا لسلف، وهو - في الوعي العربي المعاصر - عنوان على حضور الأب في الابن، وحضور السلف في الخلف، وحضور الماضي في الحاضر، إنه المضمون الحي في النفوس، الحاضر في الوعي. ينظر: التراث والحداثة، دراسات ومناقشات: د. محمد عابد الجابري، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ١٩٩١م، ص٢٤. وقد فصّل الدكتور محمد حسن عبد الله القول في أهمية التراث وأثره في الحاضر والمستقبل، فأشار إلى أنّ الاهتمام بالتراث والعناية به هو اهتمام بالشخصية التاريخية للأمة العربية، وتأكيد لتميّزها للوقوف على إيجابياتها والدعوة إليها، وتعديل لمسارها فيما قصّرت فيه، وهذا يعني أنّ وضوح الماضي هو في ذاته وضوح الحاضر والآتي، وأن تغذية الجذور هي الطريق إلى إنضاج الثمار. ينظر: التراث في رؤية عصرية: د.محمد حسن عبد الله، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، د.ت، ص٢٥.

والبخلاء، وعن جُحا وأشعب وأضرابهما في كتب متنوعة في أبوابها؛ ككتب التاريخ والسِّيَرِ والتفسير والأدب والحيوان وغيرها، وثمة كتب تناولت قصصًا وأخبارًا مخصّصة، ككتاب أخبار الأذكياء لابن الجوزي، وكتاب البخلاء للجاحظ.

إنّ توجّه كُتّاب قصص الأطفال خاصة، وأدباء الأطفال عامة نحو التراث له غايات نبيلة، وفوائد جمّة، تتمثّل في شدّ الطفل إلى تراثه، وإمتاعه، وتقديم نماذج ناجحة ليحاكيها، وإكسابه خبرة، والاهتمام بتراث الأمة ليس بدعًا لا نظير له، إذ السُّنّة المطّردة أنّ أمم الأرض تهتم بتراثها؛ لأنه ينبوع لا ينضب للفكر.

وفي تراثنا كثير ممّا يصلح للأطفال، وكثير من هذا الصالح من التراث في حاجة إلى تغيير وتعديل؛ ليكون أكثر ملاءمة، فالمراد إذن اختيار حكايات مناسبة للأطفال أوّلًا، ثمّ إعمال مشرط الأديب الخبير فيها ثانيًا، وبذلك تصير مناسبة للأطفال عامّة، أو لمرحلة عمرية محدّدة، وموافقة لأهداف قصة الطفل التي تنقل إليه خبرة وحكمة بأسلوب جاذب، وتعرض نماذج ومواقف يتعلم منها كيف يُحسن التصرف، وكيف ينجح، وأنّ الشر عاقبته وخيمة، وغير ذلك، وهذا متوفر في قصص تراثية كثيرة تصلح أن تقدّم للأطفال(٢).

(٢) للوقوف على مزيد من التفصيل ينظر: جماليات القصة الحكائية للأطفال في سورية: محمد قرانيا، اتحاد الكتّاب العرب، دمشق، ٢٠٠٩، ص٩ وما بعدها. تقول د. نبيلة إبراهيم: «والواقع أنه ينبغي أن يُقدّم للطفل في كلّ مرحلة قدر كبير من تراثه، بل إنه ينبغي أن يكون هذا التراث هو المنبع الأساسي الذي يستقي منه نماذج البطولة»، ينظر: البطل والبطولة في قصص الأطفال: د. نبيلة إبراهيم، بحث ضمن الحلقة الدراسية الإقليمية لعام ١٩٨٣بعنوان: (كتب الأطفال في الدول العربية والنامية)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٤، ص٥٣.

ولايقف الأمر عند كثرة الحكايات ووفرتها في تراثنا، ولا عند موضوعها الشائق فحسب[٣]، بل يُنظر إليها من جوانب عدّة أُخرى، لتُحَقّق إضافة جديدة في مشاعر الطفل ورغباته، ولتأخذ بيده إلى عوالم جديدة مدهشة ومفيدة، ومن هنا كان من المناسب البحث في التراث عن حكايات مثيرة تشدّ الطفل وتُعالج قضايا إنسانية عميقة ذات أسلوب فنّي، وتكون ناجحة في تناولها الشخصيّات، وتتحرّك في زمان ومكان مُتّفقين مع سائر عناصرها، تروم انسجامًا لا تفكُّكًا، وتُقرّب أحداثًا وتُبعد أخرى بمهارة وعمق.

ومن ينظر في القصة العربية الطفلية يجد أنها سعت إلى الإفادة من كثير ممّا ورد في تراثنا الحكائيّ[٤]، وكان لقصة الطفل في سورية نصيب من هذا التراث الحكائي[٥]، ذلك أنه يمكننا الوقوف على نماذج متعدّدة اختلفت في الإفادة من هذا الموروث الحكائي الثرّ، ويؤكّد هذا أنّ هذا المنجم الحكائيّ سيبقى فاعلًا في

(٣) جُحا في أدب الأطفال، قيم تربوية غائبة: محمد بسام ملص، مجلة الفيصل، الرياض، ع٢٢٩، ١٩٩٥، ص١٠١.

(٤) ينظر على سبيل التمثيل جهود عبد التواب يوسف، وقد تحدّث عن تجربته في التعامل مع التراث في الكتابة للطفل العربي في كتابه الطفل العربي والأدب الشعبي، ينظر: الطفل العربي والأدب الشعبي: عبد التواب يوسف، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، ١٩٩٢، ص١٤١ ومابعدها.

(٥) ينظر على سبيل التمثيل جهود الدكتور سمر روحي الفيصل، وقد تحدّث عن تجربته في تقديم التراث للأطفال في كتابه ثقافة الطفل العربي، ينظر: ثقافة الطفل العربي: د. سمر روحي الفيصل، اتحاد الكتّاب العرب، دمشق، ١٩٨٧، ص ١٤٥ ومابعدها.

الحاضر، نظرًا لنقاط التقاطع واللقاء الكثيرة بين التراث والواقع، ولاسيما أنّ القصة الطفلية بوصفها حاملة رسالة فكرية وتربوية تنشد التأثير في الطفل وإيصال مقولة محدّدة(٦).

بيد أنّ ما سبق لا يعني أنّ الاهتمام بهذا الموروث بلغ غايته، وأنّه نال الاهتمام الذي يستحقه؛ ففي التراث نصوص حكائية كثيرة لم يستفد منها الأطفال بعد، تصلح أن تكون مادّة أوّليّة لقصصهم المعاصرة، فتُصاغ بلغة مناسبة، وأساليب فنّيّة تُواكب العصر، بحسب ما يحتاج إليه كلّ نصّ منها من تغيير قليلٍ أو كثير(٧).

ومن هذه الحكايات التراثية ما ورد في كتاب «أخبار الأذكياء» لابن الجوزي، إذ حوى كثيرًا من تلك النصوص، فما كتاب أخبار الأذكياء؟

كتاب أخبار الأذكياء:

ألّف هذا الكتاب عَلَم من أعلام العرب، هو أبو الفرج عبد الرحمن بن الجوزي القرشي البغدادي، من علماء القرن السادس الهجري (٥١٠-٥٩٧هـ)،

(٦) تُعدّ القصة من أشدّ ألوان الأدب تأثيرًا في نفوس الأطفال، وكثير من القيم والمفاهيم تنتشر بوساطتها قبل أيّ وسيلة أخرى، وبها يتعلّمون وينمون. ينظر: الطفل وأدب الأطفال: د. هدى قناوي، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٩٤، ص١٦٧.

(٧) وقف د. عبد الرؤوف أبو السعد على نماذج من التراث العربي ممّا يصلح أن يُقدّم إلى الأطفال؛ كقصص الأمثال والوصايا وأيام العرب وأبطالهم وكرمائهم وحكمائهم وقصص الحيوان وغير ذلك، ينظر: الطفل وعالمه الأدبي: د.عبد الرؤوف أبو السعد، دار المعارف، القاهرة،١٩٩٤، ص١٠٣-١٢٧.

ومن مؤلفاته: زاد المسير، وتذكرة الأديب، والوجوه والنظائر، وصفة الصفوة، وصيد الخاطر، وأخبار الحمقى والمغفلين وغيرها(٨).

وكتاب أخبار الأذكياء يضمّ ثلاثة وثلاثين بابًا، أورد المؤلِّف في كل باب منها طائفة من الأقوال والأفعال التي تنمّ على ذكاء أصحابها، وتضمّن الكتاب نوادر وقصصًا وطرائف كثيرة، وقد عقد بابًا لفضل العقل وماهيته، وبابًا لمعنى الذهن والفهم والذكاء، وبابًا لعلامات الذكي، وأبوابًا نقل فيها من أخبار الأنبياء والصحابة والتابعين والقضاة والوزراء والحجّاب، والعُبَّاد والعلماء والشرطة واللصوص والعامة وغيرهم ما يدل على الفطنة والذكاء، وقد أفرد مساحة للحديث عن فُطَناء الصبيان، وما ذُكر عن الحيوان ممّا يشبه ذكاء الآدميين، وما يصلح من قصص هذا الكتاب ليكون مادّة للأطفال كثير جدًّا، وسأكتفي فيما يأتي بعرض نماذج منها:

النماذج:

١- قال الشعبي: أُخْبِرتُ أنّ رجلًا صاد قنبرةً، فلمّا صارت في يده قالت: ما تريد أن تصنع بي؟ قال: أذبحكِ وآكلك، قالت: ما أُشْفي من مرضٍ ولا أُشْبعُ

(٨) ينظر في ترجمته: سير أعلام النبلاء: شمس الدين محمد بن أحمد الذهبي، دار الفكر، بيروت، ١٩٩٧م، ١٥٤، ص٤٨٣، و: الأعلام: خير الدين الزركلي، دار العلم للملايين، بيروت، ط .١، ١٩٩٢م، ج٣، ص٣١٦-٣١٧، و: أخبار الأذكياء: أبو الفرج بن الجوزي، تحقيق: محمد مرسي الخولي، المكتب الشرقي للنشر والتوزيع، القاهرة، ١٩٧٠، مقدمة المحقّق، ص أ - ح.

من جوع، ولكن أعلمّكَ ثلاثَ خِصالٍ خيرٌ لكَ مِن أكلي، أمّا واحدة: أُعَلّمكَ وأنا في يدك، والثانية على الشجرة، والثالثة على الجبل، فقال: هاتِ الواحدة، قالت: لا تَلهفنَّ على ما فاتك، قال: فلما صارت على الشجرة قال لها: هاتِ الثانية، قالت له: لا تُصَدّقْ بما لا يكون أن يكون، فلمّا صارت على الجبل، قالت له: يا شقيُّ! لو ذبحتَني أخرجتَ من حوصلتي دُرَّتَيْنِ، في كلّ واحدة عشرون مِثقالًا، قال: فعضّ على شفتيه وتَلَهَّف، ثمّ قال لها: هاتِ الثالثة، قالت: أنتَ قد نسيتَ اثنتين، فكيف أحدِّثُك بالثالثة؟ ألم أقل لك لا تلهفنّ على ما فاتك، ولا تُصدّق بما لا يكون أن يكون؟ أنا وريشي ولحمي لا أكون عشرين مثقالًا، قال: وطارت فذهبت(٩).

٢- قالوا: وكان رجل في صحراء، فَعَرَض له الأسد، فهرب منه، فوقع في بئر، فوقع الأسد خلفه، فإذا في البئر دب، فقال له الأسد: منذ كم أنت ههنا؟ قال: منذ أيام، وقد قتلني الجوع، فقال الأسد: أنا وأنت نأكل هذا وقد شبعنا، فقال الدبّ: فإذا عاودنا الجوع فما نصنع؟ وإنّما الرأي أن نَحْلِف له أنّنا لا نؤذيه ليحتال لخلاصِنا وخلاصِه، فإنّه أقدرُ على الحيلة مِنّا، فحلفا له، فأخذ في التحيُّل، فَلاحَ له ضوءٌ، فَنَقَب، فخرج به إلى فضاء، فتخلَّص وخلَّصهما(١٠).

٣- حدثنا بعض إخواننا أنّه كان ببغداد رجلٌ يطلب التلصُّص في حداثته ثم تاب فصار بزّازًا، قال: فانصرف ليلةً من دكانه وقد غَلَّقَهُ، فجاء لصٌّ محتال متزيٍّ

(٩) أخبار الأذكياء، مصدر سابق، ص٢٥٣.

(١٠) السابق، ص٢٥٧.

بزيّ صاحب الدكان، في كُمِّه شمعة صغيرة ومفاتيح، فصاح بالحارس، فأعطاه الشَّمعة في الظلمة، وقال: أشعلها وجئني بها، فإنَّ لي الليلة في دُكاني شُغْلًا، فمضى الحارسُ يشعلُ الشمعة، وركَّب اللصّ المفاتيح على الأقفال، ففتحها ودخل الدُّكانَ، وجاء الحارسُ بالشمعة فأخذها من يده فجعلها بين يديه، وفتح سَفَطَ الحساب وأخرج ما فيه، وجعل ينظر في الدفاتر ويُرِي بيده أنه يحسبُ، والحارس يتردّد ويطالعه ولا يشكُّ في أنّه صاحب الدكان إلى أن قارب السحر، فاستدعى اللصُّ الحارسَ، وكلَّمه من بعيد، وقال: اطلب لي حَمّالًا، فجاء بحمّال، فحمل عليه أربع رزم مثمنة، وقفل الدكان وانصرف ومعه الحمّال، وأعطى الحارس درهمين، فلما أصبح الناس جاء صاحبُ الدكان ليفتح دكانه، فقام إليه الحارس يدعو له ويقول: فعل الله بك وصنع كما أعطيتني البارحة الدرهمين، فأنكر الرجلُ ما سمعه، وفتح دكانه فوجد سيلانَ الشمعة وحسابَه مطروحًا وفقْدَ الأربع رُزَم، فاستدعى الحارسَ، وقال له: من كان حمل الرُّزم معي من دكاني؟ قال: أما استدعيتَ منّي حمّالًا فجئتُك به؟ قال: بلى، ولكن كنتُ ناعسًا وأريد الحمّال فجئني به، فمضى الحارسُ فجاء بالحمّال، وأغلق الرجل الدكان، وأخذ الحمال معه ومضى، فقال له: إلى أين حملت الرزم معي البارحة؟ فإني كنت منتبذًا، قال: إلى المشرعة الفلانية، قال: اطرحني إليها، فطرحه، قال: من حملها معه؟ قال: فلانٌ الحمّال، فدعا به، فقال له: امْشِ بين يديّ، فمشى فأعطاه شيئًا واستدلَّه برفق إلى الموضع الذي حَمَل إليه الرُّزَم، فجاء به إلى باب غرفة في موضع بعيد من الشطِّ قريب من الصحراء فوجد الباب مُقفلًا، فاستوقف الحمّال وفشَّ القفل ودخل، فوجد الرزم بحالها، وإذا في البيت بَرَّكَان معلَّقٌ على حبل، فلفّ

الرزم فيه، ودعا بالحمال فحملها عليه وقصد المشرعة، فحين خرج من الغرفة استقبله اللصُّ فرآه وما معه فأَبلس، فاتبعه إلى الشطِّ، فجاء إلى المشرعة، ودعا الملاحَ ليعبر، فطلب الحمّال من يَحُطّ عنه، فجاء اللصّ فحطّ الكساءَ كأنه مجتازٌ متطوِّع، فأَدخل الرزم إلى السفينة مع صاحبها، وجعل البَرَّكَان على كتفه، وقال له: يا أخي، أستودعك الله، قد ارتجعتَ رُزَمَكَ فدع كسائي، فضحك وقال: انزلْ، فلا خوف عليك، فنزل معه واستتابه ووهب له شيئًا وصرفه ولم يُسئ إليه(١١).

٤- حُدِّثْتُ أنّ بعضَ التُّجار قَدِم من خُراسان ليحُجّ، فتأهّب للحج، وبقي معه من ماله ألفُ دينار لا يحتاج إليها، فقال: إنْ حملتُها خاطرت بها، وإنْ أودعتُها خفتُ جَحْدَ المُودِع، فمضى إلى الصحراء، فرأى شجرةَ خَرْوَع فحفر تحتَها ودفَنَها، ولم يَره أحدٌ، ثمّ خرج إلى الحجّ، وعاد فحفر المكان، فلم يجد شيئًا، فجعل يبكي ويَلْطُم، فإذا سُئل عن حاله قال: الأرضُ سَرَقتْ مالي! فلما كثُر ذلك منه قيل له: لو قصدتَ عَضُدَ الدولة، فإنّ له فطنة، فقال: أَوَ يعلم الغَيب؟ فقيل له: لا بأْس بقصده، فَقَصَدَه فأخبره بقصّته، فجمع الأطباء وقال: هل داويتم في هذه السنة أحدًا بِعُرُوق الخَرْوَع؟ فقال أحدُهم: أنا داويتُ فلانًا وهو من خَوَاصِّه، فقال: عليَّ به، فقال له: هل تداويتَ هذه السنة بِعُرُوق الخروع؟ قال: نعم، قال: من جاءك به؟ قال: فلانٌ الفَرَّاش، قال: عليَّ به، فلمّا جاء قال: من أين أخذتَ عُرُوق الخَرْوع؟ فقال: من المكان الفلاني، فقال: اذهب بهذا معك فَأَرِهِ المكانَ الذي أخذت منه، فذهب معه صاحبُ المال إلى تلك الشجرة وقال: من هذه

(١١) السابق، ص٢٠٠ -٢٠١ .

الشجرة أخذتُ، فقال الرجل: ههنا - والله- تركتُ مالي، فرجع إلى عَضُد الدولة، فأخبره، فقال: للفرّاش: هَلُمَّ المالَ، فتلكّأ، فأوعده، فأحضر المالَ(١٢).

٥- قال محمد بن ناصر: قَدِم رجلٌ على بعض السَّلاطين وكان معه عاملُ أرمينية منصرفًا إلى منزله، فمرّ في طريقه بِمَقْبَرَةٍ، وإذا قبرٌ عليه قُبَّةٌ مبنية مكتوبٌ عليها: هذا قبرُ الكلب، فمن أَحبّ أن يعلم خبره، فليمضِ إلى قرية كذا وكذا، فإنّ فيها من يُخبره. فسأل الرجل عن القرية، فدلّوه عليها، فقصدها وسأل أهلها فدلُّوه على شيخ قد جاوز المئة فسأله، فقال: كان في هذه الناحية مَلِكٌ عظيمُ الشأن، وكان مشتهرًا بالنزهة والصيد والسفر، وكان له كلبٌ قد ربّاه لا يفارقه، فخرج يومًا إلى بعض مُنتزهاته، وقال لبعض غلمانه: قُل للطّباخ يُصلح لنا ثَرْدَة لبنٍ فقد اشتهيتُها، فأصلحوها، ومضى منتزهَهُ، فَوَجَّه الطّبّاخ، فجاء بِلبن وصنع له ثردة عظيمة، ونَسِيَ أن يُغَطّيَها بشيء، واشتغل بطبخ أشياءَ أُخر، فخرج من بعض شقوق الحيطان أفعى فَكَرَعَ في ذلك اللبن، ومَجَّ في الثَّرْدَة مِن سُمِّه والكلب رابض يرى ذلك كلَّه، ولو كان في الأفعى حيلةٌ لدفعها، وكان هناك جاريةٌ طِفلةٌ خرساءُ زَمِنَة قد رأت ما صنع الأفعى، ووافى الملك من الصّيد في آخر النهار، فقال: يا غلمان! أَوَّل ما تُقَدِّمون إليَّ الثردة، فلمّا وُضِعت بين يديه أومأتِ الخرساءُ إليه فلم يفهم ما تقول، ونبح الكلب وصاح، فلم يلتفت إليه، وَلَجَّ في الصِّياح فلم يَعلم مُراده، فَأُخِذ ورُمِيَ إليه بما كان يُرمى في كلّ يوم، فلم يقربْه، ولَجَّ في الصياح، فقال للغِلمان: نَحُّوه عنَّا فإنّ له قصة، ومدّ يده إلى اللّبن، فلمّا رآه الكلب يريد أن يأكل طَفَرَ إلى وسط المائدة، وأدخل فمه في الغَضَارة وكَرَعَ من اللبن

(١٢) السابق ص٥٥- ٥٦.

فسقط ميتًا، وتناثر لحمُه، وبقي الملك مُتَعجِّبًا منه ومِن فِعله، فأَوْمَأَت الخرساءُ إليهم ففهموا مُرادَها بما صنع الكلب، فقال الملك لنُدمائه وحاشيته: إنّ مَن فداني بنفسه لَحَقيقٌ بالمكافأة، وما يحملُه ويدفنُه غيري، فدفنه وبنى عليه قُبَّة، وكتب عليها ما قرأْتَ(١٣).

وهذه وقفة عند القصة الأخيرة:

عناصر القصة وصوغها:

أولًا: عناصر القصة:

أ ـ الشخصيات:

يقع على عاتق القارئ تجميعُ ملامح الشخصية وصفاتها المبثوثة في أثناء السرد(١٤)، وينطلق في ذلك مما يقوله النص من بدايته إلى نهايته، ليركّب هذه الشخصية مجدَّدًا؛ ولما كانت هذه الدراسة تتوجّه في هذه الحكاية وأمثالها إلى المتلقي الطفل، وهو متلقّ خاص من حيث لغته وإدراكه ونفسيته، لزم توخّي الحذر واستحضار خصوصيته حين التوجّه إليه بحكايات من التراث، ولاسيما أن تكون معالم الشخصية التي لها قيمة كبرى في مقولة الحكاية واضحة، ولها علاقة وثيقة بسائر عناصرها.

تعدّدت الشخصيات في هذه القصة، وتنوّعت؛ فكانت بشرية: كالرَّجل، والشيخ، والملك، والفتاة الخرساء، والأعوان، والطباخ. وحيوانية: كالأفعى

(١٣) السابق، ص٢٤٣– ٢٤٤.

(١٤) بنية النص السردي من منظور النقد الأدبي: د. حميد لحمداني، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء وبيروت، ط٣، ٢٠٠٠ ص ٥٠.

والكلب. وهذا التعدّد مؤذن بترشّحها لمرحلة الطفولة المتأخرة[١٥]، إذ إنّ هذا العدد يُعدّ كبيرًا في القصص الموجهة إلى المرحلتين السابقتين.

وقد رُسمت الشخصيات رسمًا واضحًا ومقنعًا؛ إذ لا خلاف بين صفاتها في القصة وما هو معروف عنها في الواقع وفي خبرة الطفل[١٦]، فصوّرت العجوز مصدرًا للأخبار والمعلومات، والملك غنيًّا يأمر وينهى ويذهب إلى الرحلات والصيد، والطفلة الخرساء تخفق حينًا في إفهام الآخرين بحركاتها وتصيب حينًا آخر، والأفعى

(١٥) تعددت تقسيمات مراحل الطفولة في العصر الحديث، ومنها:

١- الطور الواقعي المحدد بالبيئة، وهو بين (٣ - ٥) سنوات، يحاول فيه الطفل أن يكتشف البيئة المحيطة به، وخياله فيها إيهامي مرتبط بها، ويميل إلى الاعتقاد الوهمي بأنّ الجماد يتكلّم ويحسّ ويرى ويسمع، والحيوانات كذلك، وانتباه الطفل في هذه المرحلة قصير مداه.

٢- طور الخيال الحر، وهو بين (٦ - ٩) سنوات، يتوق الطفل فيه إلى تخيل شيء آخر وراء الظواهر الطبيعية الواقعية التي خبرها في بيئته، فيجنح إلى الخيال الحر الواسع الذي تظهر فيه الملائكة والجنيات والساحرات والعمالقة والأقزام، وانتباه الطفل في هذه المرحلة يطول عن سابقه.

٣- طور المغامرة والبطولة، وهو بين (٩ - ١٢) سنة، يبتعد الطفل فيه عن الأمور الخيالية إلى حدّ ما، ويُعنى بالحقيقة الواقعية، ويميل إلى قصص المغامرات والشجاعة والعنف والتعرض للهلاك، ويجب أن تكون القصة ذات دوافع خيّرة وشريفة وسامية، ولا يقتصر الأمر على تقديم بطولة الأشخاص الحقيقيين، كخالد بن الوليد وطارق بن زياد وصلاح الدين الأيوبي، بل تُقدّم القصص التي مزجت بين الحقيقة والخيال، كقصص عنترة بن شداد وأبي زيد الهلالي والسندباد البحري وغيرها. ينظر: أدب الأطفال: د.عبد الرزاق جعفر، اتحاد الكتّاب العرب، دمشق، ١٩٧٩م، ص٤٩-٥١، و: الطفل وأدب الأطفال، مرجع سابق، ص١٥٠-١٦٣.

(١٦) تكون القصة معقولة ومحتملة الوقوع عندما تتصرّف شخصيّاتها كما تتصرف شبيهاتها إذا وضعت تحت تأثير الظروف نفسها. ينظر: أدب الأطفال، فلسفته، فنونه، وسائطه: هادي نعمان الهيتي، وزارة الإعلام، بغداد، ١٩٧٨، ص١٤٣.

مخيفةً شريرةً قاتلة ترمز إلى الموت، والكلب حارسًا أمينًا يرمز إلى الوفاء والتضحية.

قدّمت هذه الحكاية الحَيَوان (الأفعى والكلب) وهو يقوم بأعماله الحقيقية في بيئته، وبذلك يتعلّم الطفل كثيرًا من طبائع الحيوانات وأعمالها التي لا يستغني عن معرفتها في حياته، ويلمّ من خلالها بفوائدها وخطورتها عليه(١٧).

وقد قُدّمت الشخصيات في سياق الحدث، وعرفها المتلقي من الخارج، ولم تُصوّر من الداخل على وجه العموم، وذلك يقرّبها من الحكاية أو المادة الأولية(١٨)، ولم يعترِ شخصيات القصة تغيّر في مواقفها، فبقيت على طابع واحد في سلوكها وتأثيرها فيما حولها، وكانت غير متناقضة في تصرّفاتها وأقوالها، وهذا يجعلها مسطّحة(١٩) واضحة غير معقّدة، ولذلك لن يجد الطفل مشقّة في فهمها(٢٠).

(١٧) الطفل وأدب الأطفال، مرجع سابق، ص١٩٦-١٩٧.

(١٨) في القصة وفنّيتها، مفاهيم وقراءات: د.عبد المجيد زراقط، مركز الغدير للدراسات والنشر، بيروت، ٢٠١٠، ص ١٧٩.

(١٩) الشخصية المسطّحة شخصية ثابتة ولها بُعد واحد، ويمكن التنبّؤ بسلوكها بسهولة، ينظر: قاموس السرديات: جيرالد برنس، ترجمة: السيد إمام، ميريت للنشر والتوزيع، القاهرة، ٢٠٠٣، ص٧٠، وثباتها ليس عيبًا فنيًّا، فمن المواقف ما يحتاج إلى ثبات الشخصية، ويجب أن تكون واضحة محددة مرسومة بدقة، تلتزم سلوكًا محددًا معروفًا بحيث لا تُنسى أبدًا، ينظر: النص الأدبي للأطفال: د. سعد أبو الرضا، مكتبة العبيكان، الرياض، ٢٠٠٥، ص ١٧٧-١٧٨.

(٢٠) يشير خلدون الشمعة إلى أنّ الأطفال أخلاقيون بطبعهم، وهم ينظرون إلى الخير والشر من خلال اللونين الحاسمين: الأبيض والأسود، فليس هناك من رمادي غائم بينهما، ومن الصعوبة الكبيرة عليهم إدراك شخصية قصصية تحمل خصائص الطيبة والفساد في وقت واحد. ينظر: الجذور المعرفية والإبداعية لأدب الأطفال: خلدون الشمعة، مجلة الموقف الأدبي، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ع٩٥، ١٩٧٩، ص١٨.

ب ـ الزمان والمكان:

كانت الإشارات الزمنية في القصة قليلة كقوله: «فخرج يومًا»، وقوله: «في آخر النهار»، وقوله: «في كل يوم»، وقد راعى السارد سرد الأحداث كما حدثت؛ إذ غلب على سرد أحداثه نظام السرد التقليدي المُرتّب زمنيًّا[٢١] عمومًا، وهو أدعى لمتابعة المتلقّي الطفل، وأبعد عن تشتّت فكره.

أمّا الأمكنة التي كانت مسرحًا لأحداث القصة فواضحة مألوفة يعرفها الطفل، ويستطيع استنتاج تصوّر لها لا يعيقه عن متابعة السرد، فثمة منزل، ومقبرة، وقرية، ومتنزّه، فهي تُشكّل في مجملها فضاءً للحكي متواشجًا لصيقًا به.

ج ـ اللغة والأسلوب:

يستطيع الطفل أن يفهم لغة أعلى من لغته، وأسلوبًا أرقى من أسلوبه بقليل، ولعلّه من الأفضل إغناء لغته بإضافة عدد قليل من الألفاظ الجديدة في كل قصة يقرؤها، وبذلك ترقى لغته ويقوى أسلوبه[٢٢]، وفي هذه الحكاية المختارة السليمة في لغتها نرى أنّ عددًا غير قليل من ألفاظها أعلى من مستوى الطفل اللغوي؛ لأنها لم تُكتب له أصلًا، لذلك تحتاج إلى شرح وتوضيح لإزالة غموضها أو غرابتها، وذلك بشرحها في حاشية، أو بذكر معناها بين قوسين بعد ورودها مباشرة، ولعل الأفضل في هذه الحالة أن يستبدل بها كلمة مألوفة فتغدو مناسبة له، وبذلك نضمن عدم تشتّت فكره، من مثل: ثردة لبن، كرع، مجّ،

---

(٢١) يُعرّف الترتيب الزمني أنّه مجموعة العلاقات القائمة بين الترتيب المفترض لوقوع الأحداث في الواقع، وترتيب حدوثها في السرد، ينظر: قاموس السرديات، مرجع سابق، ص١٤٠.

(٢٢) أدب الأطفال: د. عبد الرزاق جعفر، مرجع سابق، ص ٥٩.

رابض، لجّ، طفر، الغضارة، حقيق، وأمثالها، ولا سيما أن تراكيب هذه الحكاية تراكيب سليمة متآلفة واضحة لا تعسر عليه، وذلك كلّه يوقظ حواسّ الطفل المتلقي ويثيره ويجذبه كي يندمج بالقصة بما توحيه صورها إليه، فينتفع بها.

ومن المناسب أيضًا تعديل بداية الحكاية:

«قال محمد بن ناصر: قدم رجل على بعض السلاطين، وكان معه عامل أرمينية منصرفًا إلى منزله، فمر في طريقه بمقبرة..»، لتصير– على سبيل المثال– على النحو الآتي:

«مرّ رجل مسافر في طريقه بمقبرة ...».

وهذا أدخل في القصة، ويجنّب الطفل غموضًا وتشتّتًا قد يحولان بينه وبين متابعة قراءته، وهذا المقترح حذفه لا شيء مرتبط به في داخل السرد، ويحسن أيضًا معاملة الأفعى معاملة المؤنث خلاف ما ورد في القصة؛ لأنه الشائع والأسهل للطفل، ولا سيما أنه وجه صحيح.

ثانيًا: صوغ القصة:

تصاغ القصة عمومًا في مراحل ثلاث: ١– مقدمة ٢– عقدة ٣– حلّ[٢٣]:

١– المقدمة:

وهي تمهيد قصير للأحداث، ومدخل يشترط فيه التشويق[٢٤] وجذب انتباه

(٢٣) السابق، ص٥٦–٥٧.

(٢٤) يقول الدكتور سمر روحي الفيصل: «إنّ حكاية الأطفال لا تكون جيّدة ما لم توفّر للطفل التشويق وإثارة الفضول القرائيّ، وليست هناك طرائق محددة لبثّ التشويق في الحكاية، إلا أنّ الصراع شيء ضروري لتوفير التشويق في الحكاية، تليه في الأهمية إحاطة الحوادث بشيء من الغموض، وبقدر من المفاجآت...». ثقافة الطفل العربي، مرجع سابق، ص١٣٦.

القارئ، وعدم الإسراف فيه، والقصة التي بين أيدينا حقّق التمهيد لها ما سبق؛ ففي بدايتها عرف المتلقي أنّ هناك قبرًا لكلب، وفوقه قبة عليها كتابة تدعو من أراد أن يعرف خبر هذا الكلب أن يذهب إلى قرية معينة، فثمّ الجواب، فالفضول والتشويق إلى معرفة قصة الكلب وسبب بناء قبة عليه قد تحقّقا لدى الرجل الذي مرّ بالقبر، ولدى المتلقي على السواء، وقد لجأ السارد إلى التلخيص(٢٥) خشية الإطالة، فبعد قراءة الرجل ما على القبة مباشرة سأل عن القرية، فدلّوه عليها فقصدها، وسأل أهلها، فدلوه على شيخ قد جاوز المئة فسأله فأجابه، وهو أسلوب يُسرّع وتيرة الأحداث بذكر موجز عمّا حدث، وكان لجوء السارد إلى تقنية التلخيص مناسبًا للمتلقي الصغير أكثر من لجوئه إلى تقنية القفز(٢٦).

٢- العقدة:

وهي مشكلة تبرز في مجرى القصة، وتحتاج إلى حلّ، وبحُسْن سبكها يثير القاصُّ رغبة القرّاء في تتبّعها والتفكير في حلول مناسبة، وفي هذا المثال بدأ الشيخ يسرد الخبر إلى أن وصل إلى صنع الطبَّاخ ما أمر به الملك، وتركه الإناء بلا غطاء،

(٢٥) يعرّف التلخيص أنّه تقنية يلجأ إليها السارد ليسرّع وتيرة الأحداث، وهو من السرعات السردية الأساسية، ويحدث عندما يتفق نصّ سردي قصير نسبيًّا وزمن مرويّ طويل نسبيًّا، ينظر: قاموس السرديات، مرجع سابق، ص ١٩٣.

(٢٦) القفز - ويُسمّى أيضًا الحذف - من السرعات المعيارية للسرد، ويكون عند عدم وجود كلمات أو جمل مع مواقف وأحداث تكون قد وقعت في القصة، ينظر: قاموس السرديات، مرجع سابق، ص ٥٥-٥٦.

وهذا يشعر بقرب حدوث شيء، ثم تزداد الأمور سوءًا، ويتدرج التأزّم حتى لا يشعر القارئ بالملل، إذ تضع الأفعى سُمًّا في القِدْر، ويأتي الملك بعد رحلة صيد شاقة جائعًا، فيطلب الطعام الذي أمر به، فيقدَّم إليه، وهنا تحاول الطفلة الخرساء أن تخبره فتخفق، ويحاول الكلب بنباحه أن يخبره أيضًا، فلا يُؤبه له، ويكرر نباحه، فيصرفونه رغبًا ثم رهبًا، والتوتر يزداد وتبلغ القصة ذروتها عندما يمد الملك يده إلى القدر المسمومة ليأكل منها، وصار قاب قوسين أو أدنى من الهلاك.

فالعقدة وُفِّيت حقّها الفنّي، فعُقِدت شيئًا فشيئًا، حتّى وصلت إلى درجة مشكلة، ثمّ حُلّت(٢٧).

٣- الحل:

يقفز الكلب بسرعة كبيرة إلى وسط المائدة، ويشرب من اللبن، فيسقط ميتًا من فوره، وسط تعجب الملك من فعله ووفائه، وهنا تعيد الطفلة الخرساء ما أرادته بإشارتها فيفهمون مرادها، ويُعْلي الملك شأن الوفاء بتكريم المرء صاحبَه، وذلك بحمله بنفسه ودفنه بيديه، وهذه النهاية لم تستغرق مساحة طويلة في الحكاية، وقد أعقبت أحداثًا سابقة، وآذنت بحالة من الاستقرار، والمتلقي ينتظرها(٢٨)؛ لذلك فإنّ الإطالة فيها والإسهاب في دقائقها مظنّة تهلهل الحكاية،

(٢٧) الأسلوب التعليمي في كليلة ودمنة: محمد علي حمد الله، دار الفكر، دمشق، ط٢، ١٩٧٠، ص٩٦.

(٢٨) قاموس السرديات، مرجع سابق، ص ٥٨.

فما كان يشدّ المتلقّي بات معروفًا، وليس من الطبيعي الاستغراق في تفصيلات لا تهمّه، ولاسيّما بعدما صار التوتّر خفيفًا والهدف واضحًا(٢٩).

إنّ هذه الحكاية تُمثّل أنموذجًا لما يُمكن تقديمه إلى المتلقّي الطفل في عصرنا، ونظائرها في التراث العربي كثير، وهي تُحاكي قصة الطفل اليوم من جوانب عدّة؛ من حيث طولها والحركة التي فيها، والتشويق الذي يسيطر عليها؛ ليثير رغبة الطفل في انتظار تحقّق مقولة: (وماذا بعد ذلك؟)، ومن حيث موضوعها الذي شارك في بطولته فيه الحيوان برمْزَيْه الجيّد والسّيّء، ولمشاركة الحيوان فيما يُقدّم إلى الأطفال لها أثر إيجابيّ وجاذب.

تحدو الباحث رغبة في بعث حكايات كثيرة في التراث العربي الأصيل، لم تجد طريقها إلى النور حتّى الآن، وليس منبع هذه الرغبة إحياء التراث القديم لمزيّة قِدَمِه فحسب، وإنّما لقيمتها وغِناها وأثرها، وهذه الحكايات مبثوثة في كتب التراث الأدبية وغيرها؛ ككتب التراجم والسير والتاريخ والرقائق، وهي – أي الحكايات– على درجات في مناسبتها لطفل اليوم، فمن حكاية تحتاج إلى تغيير غير يسير قبل تقديمها له، إلى حكاية لا تحتاج إلى تغيير كبير، كالحكاية التي وقف عندها هذا البحث، وكيفما كان الأمر في تقديم الحكايات التراثية اليوم فمن الأهمية بمكان تقديمها بوعي، وهو أمر لا غنى عنه.

---

(٢٩) يعرّف الهدف بأنّه السبب الذي من أجله تُروى القصة، والموضوع الأساسي الذي تهدف إليه، ينظر: قاموس السرديات، مرجع سابق، ص١٥٠.

المصادر والمراجع

١- **أخبارالأذكياء**: أبو الفرج بن الجوزي، تحقيق: محمد مرسي الخولي، المكتب الشرقي للنشر والتوزيع، القاهرة، ١٩٧٠.
٢- **أدب الأطفال**: د.عبد الرزاق جعفر، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ١٩٧٩.
٣- **أدب الأطفال**، فلسفته، فنونه، وسائطه: د.هادي نعمان الهيتي، وزارة الإعلام، بغداد، ١٩٧٨.
٤- **الأسلوب التعليمي في كليلة ودمنة**: محمد علي حمد الله، دار الفكر، دمشق، ط٢، ١٩٧٠.
٥- **الأعلام**: خير الدين الزركلي، دار العلم للملايين، بيروت، ط .١، ١٩٩٢.
٦- **بنية النص السردي من منظور النقد الأدبي**: د. حميد لحمداني، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء وبيروت، ط٣، ٢٠٠٠.
٧- **التراث في رؤية عصرية**: د.محمد حسن عبد الله، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، د.ت.
٨- **التراث والحداثة**، دراسات ومناقشات: د. محمد عابد الجابري، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ١٩٩١.
٩- **ثقافة الطفل العربي**: د. سمر روحي الفيصل، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ١٩٨٧.
١٠- جماليات القصة الحكائية للأطفال في سورية: محمد قرانيا، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ٢٠٠٩.
١١- **سير أعلام النبلاء**: شمس الدين محمد بن أحمد الذهبي، دار الفكر، بيروت، ١٩٩٧م.
١٢- **الطفل العربي والأدب الشعبي**: عبد التواب يوسف، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، ١٩٩٢.
١٣- **الطفل وأدب الأطفال**: د. هدى قناوي، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٩٤.
١٤- **الطفل وعالمه الأدبي**: د.عبد الرؤوف أبو السعد، دار المعارف، القاهرة،١٩٩٤.
١٥- **في القصة وفنّيتها**، مفاهيم وقراءات: د.عبد المجيد زراقط، مركز الغدير للدراسات والنشر، بيروت، ٢٠١٠.
١٦- **قاموس السرديات**: جيرالد برنس، ترجمة: السيد إمام، ميريت للنشر والتوزيع، القاهرة، ٢٠٠٣.
١٧- **كتب الأطفال في الدول العربية والنامية**، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٤.
١٨- **النص الأدبي للأطفال**: د. سعد أبو الرضا، مكتبة العبيكان، الرياض، ٢٠٠٥.

المجلات:

١- **الفيصل**، الرياض، ع٢٢٩، ١٩٩٥.
٢- **الموقف الأدبي**، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ع٩٥، ١٩٧٩.

مصطلحات نقدية عند أبي عبيدة معمر بن المثنى

أ. ناصر الجباعي(*)

كان أبو عبيدة معمر بن المثنى واحداً من علماء مدرسة البصرة في القرن الثاني وأوائل الثالث للهجرة، وفي ذلك العصر ازداد إقبال العلماء على دراسة الظواهر اللغوية والأساليب البلاغية التي وُجدت في القرآن الكريم والشعر العربي. فألَّف أبو عبيدة (ت٢١١هـ) كتاب المجاز، وقد ذكر سببَ تأليفه الكتاب أنه سُئل عن معنى قوله ﷻ: ﴿طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُؤُوسُ الشَّيَاطِينِ﴾ [الصافات: ٦٥]. فأجاب السائل، ثم لمَّا رَجَع إلى البصرة عَمِل كتابَه الذي سَمّاهُ المَجازَ.

وقد ضمَّنَ هذا الكتاب مصطلحاتٍ نقديةً استقرت فيما بعد عند النُّقاد الذين جاؤوا من بعده، ولكن يبقى له فضل التقدُّم في مجال النقد الأدبي، مع أن كثيراً من الباحثين ينظرون إليه على أنه راويةٌ ولغويٌّ فحسب.

ولذلك وجدتُ من المستحسن أن أعرض في هذا البحث بعضَ ما أُثر عنه من مصطلحات وإشارات نقدية، نظراً لقيمته التاريخية، ولأنه يُسهم في توضيح رحلة بعض المصطلحات في علم النقد.

(*) باحث في الأدب والتراث من سورية، ومدرِّس في الجامعات الليبية سابقًا.

أولاً- السابق والمُصَلِّي:[١]

أشارَ القدماءُ مِنْ النُّقاد إلى سَبقِ بعضِ الشعراءِ إلى معانٍ، أخذَها اللاحقونَ عنهم، وكانَ لأبي عُبيدة إسهامٌ في بَيانِ هذه المصطلحاتِ، ومن الذين عَرَضَوا لها الحاتمي في كتابه حلية المحاضرة الذي أفرد فصلاً بعنوان السابق والمصلي.

وأوّل هؤلاء الشعراء: **ابن خذام**، قال الحاتمي: وحكى أبو عبيدة أنَّ ابن خذام كان يصحب امرأ القيس بن حجر الكِنْدي وأنَّه أوّل من وصف الدّيار. وهو القائل: [من البسيط]

لآلِ هنـــدٍ بجنبَـــي نَفْنَـــفٍ دارُ لم يمـــحُ جِـــدّتَها ريـــحٌ وأمطـــارُ[٢]

وقال الآمدي[٣]: « ابن حذام الذي ذكره امرؤ القيس في شعره، هو أحد مَنْ بكى الديار قبل امرئ القيس، ودرس شعرُه، قال امرؤ القيس[٤]: [من الكامل]:

عُوجَا عَلَى الطّللِ المُحِيلِ لأنَّنا نَبْكِي الـدِّيارَ كَمَا بَكَى ابنُ حُـذَامِ

ذكر ذلك أبو عبيدة، وقال: قال لنا أبو الوثيق:من ابن حذام؟ فقلنا:لا نعرفه. فقال: رجوت أن يكون علمه بالأمصار. فقلنا: ما سمعنا به. فقال: بلى قد ذكره امرؤ القيس، وبكى على الدّيار قبله فقال [من الطويل]:

كـأَنّي غَـدَاةَ الخبـتِ يَـومَ تَحَمَّلـوا لَـدَى سَـمُرَاتِ الحَـيِّ نَـاقِفُ حَنْظَـلِ »

(١) اعتمدت في المصطلحات على ما ورد في حلية المحاضرة للحاتمي. ينظر: معجم الأدباء: ١١/ ١٥٨ وتاريخ بغداد: ١٣/ ٢٥٢. والمُصلّي من خيل السباق: الذي يَتلو السابق.

(٢) حلية المحاضرة: ٢/ ٣٠.

(٣) المؤتلف والمختلف: الآمدي:١٠٩، روى هذا الاسم بصور مختلفة.[خَذَام، حَذَام، حمام، الحُمام].

(٤) ديوان امرئ القيس:١١٤.

ومَنْ ينظر في ديوان امرئ القيس يجد البيت المذكور(٥) هو رابع أبيات المعلقة وبالرواية ذاتها، فإن لم يكن امرؤ القيس قد أخذ البيت فإنَّه أخذ المعنى الذي تَناوله مَنْ بعده. وذكر امرؤ القيس أنَّه مسبوق ببكائه على الدِّمنِ و الدِّيارِ، وأنَّه يبكي كما بكى ابنُ حَذَام مِنْ قبلِهِ، ويحتذيه امرؤ القيس بقوله وفعله، ولولا إشارة امرئ القيس هذه لدَرَسَ ذكرُ هذا الشاعر.

وجاء كتاب الديباج(٦): « قال أبو عبيدة: فاتفقوا على أنَّ أشعرَ الشُّعراءِ في الجاهليةِ امرؤ القيس بن حُجْرٍ الكِنْدِيُّ، والنابغة زياد بن معاوية الذبياني، وزهير بن أبي سُلمى المُزِّي. فقال بعضهم: أشعر الثلاثة امرؤ القيس بن حُجرٍ هو أوّلُهم وهو الذي فتحَ لهم الشِّعرَ، فاستوقفَ وبَكَى في الدِّيارِ وذكرَ ما فيها، ثم قال: (دع ذا) رَغْبَةً منه عن المَنْسَبَةِ فقالَ: فَتَبعَت الشّعراءُ أَثَرَهُ في هذا».

يفتتح أبو عبيدة كتابه الديباج بهذا الخبر، وينقله عنه ابن قتيبة، وفيه إجماع على تقديم امرئ القيس على شعراء طبقته وغيرها من شعراء العربية. ثم قال(٧):« وهو أوّل مَنْ شبَّه الخيل بالعصا واللِّقْوَة والسبعَ [والظباء] والطَّيرَ [فتبعه الشعراءُ] فشبهوها بهذه الصفات، فكان مَا شبَّهَ بالعَصَا قوله(٨): [من الطويل]:

بِعِجْلِزَةٍ قَدْ أَتْرَزَ الجَرْيُ لَحْمَها كُمَيْتٍ كَأَنَّهَا هِرَاوَةُ مِنْوَالِ

(٥) ديوانه:٩.

(٦) الديباج: ٣. انظر:الشعر والشعراء:ابن قتيبة: ١٢٨.حيث أورد عن أبي عبيدة خبر تقديم امرئ القيس معللاً، مع اختلاف يسير.

(٧) كتاب الديباج: ٤. الشعر والشعراء:١٢٨ وما بين حاصرتين منه.

(٨) ديوانه:٣٧.

ومَا شبَّه باللِّقْوَةِ، وهي العُقَابُ، قوله[٩]:[من الطويل]:

كَـأَنِّي بِفَتْخـاءِ الجَنَـاحَيْنِ لِقْـوَةٍ عَـلَى عَجَـلٍ منهـا أُطَـأْطِيُ شِـمْلالِ

وما شبَّهَ بالسّباعِ قوله[١٠]: [من الطويل]

لَـهُ أَيْطَـلا ظَبْـيٍ وسَـاقَا نَعَامَـةٍ وأَرْجُـلُ سِرْحَـانٍ وَ تَقْرِيـبُ تَتْفُـلِ

وقال أبوعبيدة: هو أول من قيّد الأوابد، ومن شبه الثغر بشوك السيال فقال:[١١] [من الطويل]

منابِتُـهُ مِثـلُ الـسدوسِ ولَوْنُـه كـشوكِ الـسَّيالِ وهـو عـذبٌ يُفِـيضُ

وهو أول مَن قال (وعَادَى عِدَاء) فاتّبعه الناسُ. وهو أول مَن شَبَّهَ الحمارَ، وشَبَّه الطللَ بوحي الزبور. ومما انفردَ بِهِ قوله في العُقاب[١٢]: [من الطويل]

كَـأَنَّ قُلُـوبَ الطَّـيْرِ رَطْبـاً ويابِـسًا لـدَى وَكْرِهَـا العُنَّـابُ والحَشَفُ البَـالي

وقد تبعه الناس في هذا الوصف، واحتذوه، ولم يجتمعْ لهم مَا اجتمعَ لَهُ ».

ومن ينظر في شعر امرئ القيس يجد هذه العبارة (قيد الأوابد) قد وردت في قوله[١٣]: [من الطويل]

وقَـد أغتَـدِي والطَّـيرُ في وُكُنَاتِهـا بِمُنْجَـرِدٍ قَيْـدِ الأوَابِـدِ هَيكَـلِ

(٩) ديوانه:٣٨.

(١٠) ديوانه:٢١.

(١١) ديوانه: ١٧٨. منابته: أي منابت الثغر.والسدوس: الطيلسان، شبه اللّثات به.والسَّيال: شجر، يقال: نبت له شوك أبيض أشبه بالأسنان، واحدته سيالة. ويفيض: يبرق.

(١٢) ديوانه: ٣٨.

(١٣) ديوانه:١٩.

وفي قوله[١٤]: [من الطويل]

وقَـدْ أغتَـدِي والطَّـيْرُ في وُكُنَاتِهـا ومَـاءُ النَّـدَى يَجْـرِي عَـلَى كُـلِّ مِـذْنَبِ

بِمُنْجَـرِدٍ قَيْـدِ الأَوَابِـدِ لاَحَـهُ طِـرَادُ الهَـوَادِي كُـلَّ شَـأْوٍ مُغَـرِّبِ

فقد وردت عبارة (قيد الأوابد) في قصيدتين للشاعر.

ويريد أبو عبيدة بقوله: (وعادى عداء) قولَ امرئ القيس[١٥]: [من الطويل]:

فعَـادَى عِـدَاءً بَـيْنَ ثَـوْرٍ ونَعجَـةٍ دِرَاكـاً ولَمْ يُنـضَحْ بِـمَاءٍ فَيُغْـسَلِ

ومن ينظر في ديوان امرئ القيس يجد تشبيه الطللَ بوحي الزبور جاء في قوله[١٦]: [من الطويل]

لِمَـنْ طَلَـلٌ أَبْـصَرْتُهُ فَـشَجَانِي كَخَـطِّ زَبـورٍ في عَـسِيبٍ يَـمَانِ

وفي قوله: [من الطويل]:

قِفَا نَبْكِ مِنْ ذِكْـرَى حَبِيبٍ وعِرْفَـانِ ورَسْـمٍ عَفَـتْ آياتُـه منـذُ أزمَـانِ

أَتَتْ حِجَجٌ بَعدِي عَليهَا فأصبَحَتْ كَخَـطِّ زَبـورٍ في مَـصَاحِفِ رُهْبَـانِ

يشير أبو عبيدة إلى تشبيه الطلل بوحي الزبور، وقد ورد هذا التشبيه في قصيدتين من ديوان الشاعر.

هذه الأمثلة التي رُويت عن أبي عبيدة إنّما يريد بها تأكيد سَبق امرئ القيسِ إلى ما ذكره من ابتداء القصائد، وتفرده بجمالية تشبيهات، كان له فضل السبق بها، فاتّبعَهَا الشعراءُ من بعده، و لا غرابة في هذا لأنَّه هو من فتحَ بابَ الشعرِ للشعراءِ فاتبعوه.

---

(١٤) ديوانه:٤٦.

(١٥) ديوانه:٢٢.

(١٦) ديوانه: ٨٥ و٨٩.

وقال الحاتمي[١٧]: « قال أبو عبيدة: ومما سبق إليه زهيرُ بن أبي سُلمى ولم يُنازعه فيه منازع قوله [١٨]: [من الوافر]

فـإنَّ الحـقَ مَقطعُـهُ ثَـلاثٌ يَمـينٌ أَو نفَـارٌ أَو جِـلاء

يريد أنَّ الحقوق إنَّما تصح بواحدة من هذه الثلاث: يمين، أو محاكمة، أو حجة واضحة.

وكان عمر بن الخطاب ﷺ، إذا أُنشدَ هذا تعجَّبَ من معرفته بمقاطع الحقوق». وأورد أبو العباس ثعلب هذا البيت شاهداً على الأبيات المرجلة[١٩]. وأورده أبو هلال العسكري شاهداً على صحة التقسيم[٢٠].

وقال ابن رشيق[٢١]: «وقيل:إنَّ عمر بن الخطاب كان يتعجب من قول زهير: فإنَّ الحق، وسمِّي زهيرٌ قاضيَ الشعراء بهذا البيت». وجعل أسامة بن منقذ البيت من شواهد التقسيم[٢٢].

ويظهر تماسك ألفاظ البيت ومعانيها بحيث لا يمكن الفصل بينها ولهذا جعله ثعلب من شواهد الأبيات المرجلة، وجعله علماء البلاغة والنقد شاهداً على صحة التقسيم.

وقال الحاتمي[٢٣] «قال أبوعبيدة: ومما سبق إليه زهير، فأُخذَ منه قوله[٢٤]: [من البسيط]

هـو الجَـوَادُ الـذي يُعْطِيـكَ نَائِلَـه عَفـواً ويُظلَـمُ أَحيَانَـاً فَـيَظَّلِمِ

(١٧) حلية المحاضرة:٢٤٥.

(١٨) شعر زهير بن أبي سلمى:١٣٨.

(١٩) قواعد الشعر:أبو العباس ثعلب:٨٤.

(٢٠) الصناعتين:٣٥١.

(٢١) العمدة: ابن رشيق:١٣٦.

(٢٢) البديع في نقد الشعر: ٦٢.

(٢٣)حلية المحاضرة:٢/ ٢٤٥.

(٢٤) ديوانه:١٠٤.

يقول: يُسْأَلُ مَا لا يقدر عليه، فيتحمله. فَأخذَهُ كُثَيِّر فقال[٢٥]: [من الطويل]:

رَأَيْتُ ابنَ ليلى يَعْتَري صُلْبَ مَالِهِ مَسَائِلُ شَتَّى من غَنِيٍّ ومُصْرِمِ

مَسَائِلُ إنْ تُوجَدْ لَدَيْك تَجُدْ بِهَا يَدَاكَ، وَإنْ تُظْلَمْ بها تستظلمِ

ومِما سبقَ إليه زهيرٌ[٢٦]:[من الطويل]

فلَمّا وَرَدنَ المَاءَ زُرقَاً جِمَامُهُ وَضَعْنَ عِصِيَّ الحَاضِرِ المُتَخيَّمِ

فَأخذَهُ الطّرماحُ فقالَ: [من الطويل]

فألقَتْ عَصاهَا واسْتَقَرَّتْ بِهَا النَّوَى كَما قَرَّ عَيْناً بالإيابِ المُسَافِرُ

فَأخَذَهُ الآخرُ فقالَ[٢٧]: [من الطويل]

فألقَتْ عَصا التَّسيارِ عنهَا وخَيَّمَتْ بِأرجَاءِ عَذْبِ المَاءِ بيضٌ مَحافِرُهْ ».

وقد ذَكَرَ الحاتمي قولَ أبي عبيدةَ وشواهدَهُ عَلَى تقدمِ زهير، ثم ذكر أخذَ الشعراءِ لهذه الأبيات.

وقال ابن قتيبة[٢٨]: « قال أبو عبيدة: الأعشى هو رابع الشعراء المتقدمين... ومما سبق إليه فَأُخِذَ منه قوله[٢٩]: [من الطويل]:

كَأنّ نَعامَ الدّوِّ، بَاضَ عَليهمُ إذا رِيعَ يَوماً للصّريخِ المُنَذَّرِ

وقال سلامةُ بن جندل، وهو جاهلي[٣٠]: [من الطويل]:

كَأنّ نَعامَ الدّوِّ، بَاضَ عَليهمُ بِنِهْيِ القِذَافِ أو بِنِهْيِ مُخَفِّقِ

(٢٥) ديوانه: ٣٠١.

(٢٦) ديوانه: ١٣.

(٢٧) البيان والتبيين: ٣/ ٤٠. نسب البيت إلى مضرس الأسدي.

(٢٨) الشعر والشعراء: ابن قتيبة:١/ ٢٦٣.حلية المحاضرة: ٢/ ٢٤٦.

(٢٩) ديوان الأعشى: ١٩١.

(٣٠) ديوانه: ١٦٧. شبه البياض على رؤوسهم ببيض النعام في امليساسه وصفائه.

وأخذه زيدُ الخيلِ، وقال[٣١]:[من الطويل]:

كَأنّ نَعامَ الدّوّ، بَاضَ عَليهمُ وَأَعينُهم تَحْتَ الحَديدِ خَوازِرُ».

وقال أبو علي[٣٢]: «قال أبو عبيدة: ومما سبق إليه الأعشى قوله[٣٣]: [من الطويل]:

وفي كُلِّ عَامٍ أَنْتَ جَاشِم غَزْوَةٍ تَشُدُّ لأَقصَاها عَزيمَ عَزَائِكا

مُوَرِّثَةٍ مَالاً وفي الأصلِ رِفعةً لِمَا ضَاعَ فيها مِنْ قُروء نِسائِكا

قال أبو عبيدة: وأخذَهُ النابغةُ وشرحَهُ، فقالَ[٣٤]: [من الكامل]:

شُعَبُ العِلافياتِ بينَ فُرُوجِهِم والمُحصَنَاتُ عَوازِبُ الأطهَارِ

أخذَهُ خداشُ بن زهير فقال[٣٥]: [من الكامل]

أفبَعدَ مَقْتَلِ مَالك بن زهير ترجو النّسَاءُ عَوَاقِبَ الأطهَارِ

فأخذَه الأخطلُ فقالَ[٣٦]:[من البسيط]:

قَومٌ إذا حَارَبُوا شَدُّوا مَآزِرَهُم دُونَ النّسَاءِ وَلَو بَاتَتْ بِأَطْهَارِ

فأخذَهُ الآخرُ فقالَ[٣٧]: [من الطويل]:

إذا هَمَّ بالأعداءِ لم يُثنِ عَزمَه حَصَانٌ عليها لُؤلؤٌ وشُنُوفُ

(٣١) شعر زيد الخيل الطائي:١٨١.

(٣٢) حلية المحاضرة:٢/ ٢٤٦.

(٣٣) ديوانه:٩١.

(٣٤) ديوانه: ١٠٣.

(٣٥) ديوانه:٣٣.

(٣٦) ديوانه:٣٣.

(٣٧) ديوان الحطيئة:١٧٠.

فأخذَهُ أشجعُ السلمي فقالَ(٣٨): [من المتقارب]:

إذا هَـــمَّ بـــالأمرِ لم يُثنِـــهِ هجـــوعٌ ولا شَـــادِنٌ أَفْـــرَعُ

فأخذَهُ الحطيئةُ فقالَ(٣٩): ويُعزى لكثيّر: [من الطويل]

إذا مـا أرادَ الغـزوَ لَم يُـثنِ هَمَّـه كَعَابٌ عَليها نَظْمُ دُرٍّ يَزينُهَا ».

تشير الأخبار المتقدمة إلى أنَّ أبا عبيدة جعل الأعشى رابع الشعراء المتقدمين، وقد كان للأعشى السبق في تشبيهات، ومعانٍ أخذها من بعده الشعراء.

وجاء في الشعر والشعراء(٤٠): «قال أبو عبيدة: طرفة أجودهم واحدة، ولا يلحق بهؤلاء البحور، يعني امرأ القيس، و زهيراً، والنابغة..... ومما سبقَ إليه طرفةُ فأُخِذَ منه قوله يذكر السفينة(٤١): [من الطويل]

يَشُقُّ حَبابَ المَاءِ حَيْزُومُها بِهَا كَمَا قَسَمَ التُرْبَ المُفَايِلُ بِاليَدِ

أخذه لبيد فقال(٤٢): [من الوافر]

تَـشُقُّ حَمائِـلَ الـدَّهْنَا يَـدَاهُ كَـمَا لَعِـبَ المُقَـامِرُ بالفِيَـالِ

وأخذه الطرماح فقال(٤٣): [من الكامل]

وغَدا تَشُقُّ يَـدَاهُ أوسَـاطَ الرُّبَـا قَـسْمَ الفِيَـالِ تَـشُقُّ أوسَـطَه اليَـدُ

(٣٨) الشعر والشعراء:٢٦٣.

(٣٩) ديوان كثير عزة: والرواية فيه:

إذا مـا أرَادَ الغـزوَ لَم يُـثنِ عزمَـه حَـصانٌ عَليهـا نَظْـمُ دُرٍّ يُزينُهَـا.

(٤٠) الشعر والشعراء: ابن قتيبة:١٩٠. وفي حلية المحاضرة:٢/ ٢٤٨ .

(٤١) ديوانه:٨.

(٤٢) ديوانه:٨٠.

(٤٣) ديوانه:٦.

ومما سبق إليه أيضاً قوله(٤٤): [من الرمل]

ومَكـــانٍ زَعِـــلٍ ظُلْمَانُـــهُ كَالمِخَاضِ الجُرْبِ في اليومِ الخَصِرْ

قَـــدْ تَبَطنْـــتُ وتَحْتِـــي سُرُحٌ تَتَّقِـــي الأَرْضَ بِمَثلُـــومٍ قَعِـــرْ

أخذه عدي بن زيد،ولبيد، فقال عدي(٤٥): [من الرمل]

وَمَكـــانٍ زَعِـــلٍ ظُلْمَانُـــهُ كَرجالِ الحبش تَمْشِي بالعمدْ

قـد تبطنـت و تحتـي جـسرة عـبر أسـفارٍ كَمِخـرَاقٍ وَحـدْ

أخذه لبيد فقال(٤٦): [من الوافر]

وَمَكـــانٍ زَعِـــلٍ ظُلْمَانُـــهُ كَحَزيـقِ الحبـشيَّيْنِ الزُجَـلُ

قـد تبطنـت و تحتـي جـسرة حَـرجٌ في مِرفَقَيْهَـا كالفَتَـلْ

ومما سبق إليه أيضاً قوله(٤٧): [من الطويل]

ولولا ثَلاثٌ هُـنَّ مِـنْ عِيْشَةِ الفَتَى وَجَدِّكَ لَمْ أَحْفِلْ مَتَى قَامَ عُـوَّدِي

فَمِـنْهُنَّ سَـبْقِي العَـاذِلاتِ بِـشَرْبَةٍ كُمَيْـتٍ مَتَى مَا تُعْـلَ بِالمَـاءَ تُزْبِـدِ

وكَـرِّي إِذَا نَـادَى المُـضَافُ مُجَنَّبـاً كَسِيدِ الغَضَا ذي الطخيـة المتـورد

وتَقْصِير يَومَ الضغن والدَّجْنُ مُعْجِبُ بِبَهْكَنَـةٍ تَحْـتَ الطـراف المُعَمَّـدِ

وأخذه عبد الله بن نهيك إساف الأنصاري فقال(٤٨): [من الطويل]

---

(٤٤) ديوان طرفة: ٦٠. والزعل: النشيط، المِخاض: الحوامل من الإبل شبه النعام بها.

(٤٥) ديوان المعاني: أبو هلال العسكري: ٢/ ١٣٤. البيت الأوّل فقط.

(٤٦) ديوانه:٨٠.

(٤٧) ديوانه: ٣١.

(٤٨) العقد الفريد:٣/ ٤٨٣ و/ ٦/ ٢٤٢، ومعاهد التنصيص:١/ ٣٦٦. وفي الجزء السادس من العقد، ومعاهد التنصيص قدم البيت الرابع على الثالث.

ولولا ثَلاثٌ هُنَّ مِنْ عِيْشَةِ الفَتَى وَجَدِّكَ لَمْ أَحْفِلْ مَتَى قَامَ رَامِسُ
فَمِنْهُنَّ سَبْقِي العَاذِلاتِ بِشَرْبَةٍ كَأَنَّ أَخَاهَا مطلع الشمس نَاعِسُ
ومنهن تجريد الكواعب كَالدُّمَى إذا ابتُزَّ عَنْ أكَفَالِهُنَّ الملابِسُ
ومنهن تقريط الجواد عنانه إذا استبق الشخص الخفي الفوارسُ

إنّما يريدُ أبو عبيدة سبقَ طرفة بهذا التشبيه الذي أخذه الشعراء منه.

تُظهر النصوص السابقة أنَّ أبا عبيدة ذكرَ سَبْقَ الشعراءِ إلى معانٍ أو تشبيهات ابتدعوها، فكان لهم فضلَ السبق، وهم من أوائل شعراء العصر الجاهلي، ومن أصحاب المعلقات، ثم تداولَ ذلك غيرُ المبتدعِ، فبعضُ الشعراءِ أخذَ المعنى، وأعادَ صياغتَهُ، ومنهم مَن أخذَ البيتَ بتمامِهِ ولم يغير سوى لفظ القافية ليناسب قصيدته. وينتمي أولئك الشعراء إلى عصور أدبية مختلفة فمنهم الجاهلي، والمخضرم، الإسلامي.

ثانيًا- التخلص:

ويُراد به: انتقال الشاعر وخروجه من غرض إلى آخر. فقد روى أبوعلي الحاتمي:[٤٩] «عن أبي عبيدة قال: أحسن تخلُّصٍ للعرب تخلَّصتْ به من بكاء طللٍ، ووصف إبلٍ وتحمل أظعانٍ، وتصدُّع جيران، بغير (دع ذا، وعَدّ عمَّا ترى) قول زهير[٥٠]: [من البسيط]

إنَّ البخيلَ مَلُومٌ حَيثُ كَانَ وَلَـ ـكِنَّ الجَوادَ عَلَى عِلاتِه هَرِمُ

وقول الأعشى يمدح الأسود مخاطباً ابنته[٥١]: [من الخفيف]

لا تَشَكَّيْ إليَّ وانتَجِعِي الأسْـ ـوَدَ أهْلَ النَّدَى وأهلَ الفَعَالِ

وقوله[٥٢]: [من الخفيف]

(٤٩) حلية المحاضرة:١/ ٢١٧.
(٥٠) ديوانه:٢١٣.
(٥١) ديوانه:٧.
(٥٢) ديوانه:٢١٣.

فعَـلَى مِثْلِهَـا أَزُورُ بَنِـي قَيْـ ـسٍ إذا شَطَّ بالحَبيبِ الفِرَاقُ

وقوله[٥٣]: [من الكامل]

نَحْوَ ابن سلمى حَارثٍ قَطعتْ عَرْضَ النِّجادِ مطيَّتي تَضَعُ

وَرِثَ السيادةَ عن أوائله فأتمَّ أحسنَ ما هُمُ صَنَعوا

وقول حاتم الطائي[٥٤]:[من الكامل]

إنْ كنتِ كارِهَةً مَعِيشَتَنا هَاتَا فَحُلِّي في بَنِي بَدْرِ

وقول ذي الرُّمَّة، يمدح هلال بن أحوز:[٥٥] [من البسيط]

حَنَّتْ إلى نِعَمِ الدَّهْنَا فَقُلتُ لَهَا أُمِّي هِلالاً عَلَى التَّوفِيقِ والرَّشَدِ

يُبيِّن النَّصُ أنَّ أبا عبيدة قد حدَّد مصطلح التخلص، وذكرَ أمثلةً عَلَى أحسن مَا تخلصَ بِهِ الشعراءُ، وإذا نظرنا في بعض ما قاله القدماء من بعده عن التخلص نجد أبا العباس ثعلب (ت٢٩١هـ) قد أفرد باباً في قواعد الشعر بعنوان حُسن الخروج، وكلامه يكاد يكون مطابقاً لما ورد عن أبي عبيدة. وكذلك فعل ابن طباطبا الذي أفرد باباً مستقلًّا للتخلص، وذكر أمثلة من شعر الأعشى بعضها سبق أن ذُكِرَ عن أبي عبيدة. وممن ذكر حُسن التخلص أسامة بن منقذ(٥٨٤ هـ) الذي قال في كتابه البديع[٥٦]: «... اعلم أنَّ التخلصَ والخروجَ يُستحبُ أنَ يكونَ في بيتٍ واحدٍ،... وأحسن الخروج عند العرب قول زهير – البيت».

(٥٣) عيار الشعر: ابن طباطبا: ١٨٥.

(٥٤) ديوانه:١٤٣.

(٥٥) ديوانه: ١/ ١٧٥.

(٥٦) البديع في نقد الشعر:أسامة بن منقذ: ٢٨٨.

وقد أردف ابن منقذ لفظ التخلص بلفظ الخروج وهما متطابقان، ومثَّل لذلك ببيت زهير السابق.

وقال ابن أبي الأصبع:(٥٧) «... وأمَّا في الشعرِ فَأتم الناسِ براعة في التخلصِ وأوّل مَنْ أحسَنَ في ذلك من القدماء في غالب ظني زهير حيث قال –البيت–». فابن أبي الأصبع يفرد باباً في كتابه بعنوان براعة التخلص يذكر ما أورده المتقدمون، ويأتي ببيت زهير شاهداً له، ولا يتعدى مَا نُقِلَ عن أبي عبيدة في هذا المصطلح.

ثالثاً– أشعر الشعراء واحدة:

جاء في كتاب الديباج(٥٨): «واتفقوا على أنَّ أشعرَ الشعراءِ في الجاهليةِ واحدةً: طرفةُ بن العبد، والحارثُ بن حلزة، وعمرُو بن كلثوم. قال: ونظيرهم في الإسلام: سويد بن أبي كاهل اليشكري». أشارَ أبو عبيدة إلى أشعر الشعراء واحدة في العصر الجاهلي، ثم أتبعهم بأمثالهم من الشعراء الإسلاميين.

وقال ابن سلَّام الجمحي في حديثه عن الطبقة الرابعة من فحول الشعراء الجاهليين(٥٩): «فأمّا طرفة فأشعر الناس واحدة، وهي قوله (٦٠): [من الطويل]

لِخَوْلَـةَ أطْـلالٌ بِبُرقَـةِ ثَهْمَـدِ وَقَفْتُ بِها أبْكِي وأبكِي إلى الغَدِ

ويليها أخرى مثلها، وهي(٦١): [من الرمل]

---

(٥٧) تحرير التحبير: ٤٣٤.

(٥٨) الديباج:أبو عبيدة: ٧و١٠.

(٥٩) طبقات فحول الشعراء: ١٣٨.

(٦٠) ديوانه: ٦، ويروى الشطر الثاني:تلوح كباقي الوشم في ظاهر اليد.

(٦١) ديوانه:٥٠، والرواية فيه:

أَصَـحَوْتَ اليَـوْمَ أَمْ شَـاقَتْكَ هِـرْ وَمِـنَ الحُـبِّ جُنُـونٌ مُـسْتعرْ

أَصَحَوتَ اليَومَ أَمْ شَاقَتْكَ هِـرْ وِمِـنَ الحُـبِّ جُنُـونٌ مُـسْتَقِرْ ».

فقد قدَّمَ ابنُ سلامٍ طرفة على شعراء الواحدة بل جعله أشعرهم.

وفي الطبقة السادسة من شعراء الجاهلية عند ابن سلام نجد «أربعة رهط لكل واحد منهم واحدة أولهم: عمرو بن كلثوم».(٦٢) وذكر بعده الحارث بن حلزة، وعنترة بن شداد، وسويد بن أبي كاهل. وهؤلاء الشعراء قد ذكرهم أبو عبيدة في الخبر السابق عدا عنترة بن شداد، وذكر ابن سلام قصائد هؤلاء الشعراء، وعند ذكر عنترة قال(٦٣): « وله قصيدته: [من الكامل]

يَـا دَارَ عَبْلَـةَ بِـالجِوَاءِ تَكَلّمِـي وعِمِي صَبَاحَاً دَارَ عَبْلَةَ واسْـلَمِي

وله شعر كثير إلا أنَّ هذه نادرة فألحقوها مع أصحاب الواحدة. وسويد بن أبي كاهل... وله قصيدته التي أوّلها(٦٤): [من الرمل]:

بَـسَطَتْ رَابِعَـةُ الحَبْـلَ لَنَـا فَوَصَـلْنَا الحَبْـلَ مِنْهَـا فـانقَطَعْ

وله شعر كثير و لكن برزت هذه على شعره ».

نجد ابن سلام يذكر قصائد هؤلاء الشعراء ويثني عليها، وهي القصائد التي عرفت بالمعلقات. أما قصيدة سويد فهي في اختيارات المفضَّل الضَّبي.

وجاء في الشعر والشعراء(٦٥): «قال أبو عبيدة: طرفة بن العبد أجودهم واحدة». فابنُ قتيبةَ نقل خبرَ تَقديمِ طرفةَ بن العبد عن أبي عبيدة، وهو الخبر الذي جاء في كتاب الديباج.

(٦٢) طبقات فحول الشعراء: ١٥١.

(٦٣) طبقات فحول الشعراء: ١٥٢.

(٦٤) المفضليات:١٩٠.

(٦٥) الشعر والشعراء: ابن قتيبة:١/ ١٩٠.

وجاء في العمدة: «ويروى عن أبي عبيدة أنَّه قال:... وأمّا أصحاب الواحدة فطرفة أوّلهم ». ثم ذكر الشعراء الذين تقدم ذكرهم، وأضاف:[٦٦] « ومنهم عمرو بن معديكرب، صاحب[٦٧]: (أَمِنْ رَيْحَانَةَ الدَّاعِي السَمِيعُ)، والأسود بن حمران الجعفي، صاحب المقصورة:[٦٨] (هَلْ بَانَ قَلبُكَ مِنْ سُلَيْمَى فَاشْتَفَى؟)، والأسود بن يعفر: صاحب[٦٩]: (نَامَ الخَلِيُّ فَمَا أُحِسُّ رُقَادِي). وله شعر كثير، إلا أنَّه لا ينتهي إلى قصيدته هذه».

يظهر من النصوص السابقة أنَّ أبا عبيدة استعمل مصطلح شعراء الواحدة، إن لم يكن هو مِنْ أَوَّلِ وَاضعيه، وذكر عدداً من الشعراء يُعدُّون من أصحاب الواحدة. وقد أخذ عنه ابن سلام وابن قتيبة. ثم جاء ابن رشيق بعد أبي عبيدة بما يزيد على قرنين ونصف من الزمن فأخذ عن أبي عبيدة أيضاً وأضافَ شعراءَ زيادة على مَا ذكره.

رابعاً- الاجتلاب والاستلحاق:

قال الحاتمي في حديثه عن الاجتلاب و الاستلحاق: «فأما جرير فعيَّرَ به الفرزدقَ في قصيدته التي هجاه فيها، وهجا الراعي وبني نمير. قال أبو عبيدة: وكان جرير يسميها (الدّعامة) فقال[٧٠]: [من الوافر]

سَتَعْلَمُ مَنْ يَكونُ أباهُ قَيْناً ومَنْ كَانَتْ قَصَائدُهُ اجْتلابَا

(٦٦) العمدة:٢٢٠.

(٦٧) ديوانه: ١٤٠. وتمام البيت: يؤرقني وأصحابي هجوع.

(٦٨) المؤتلف والمختلف:٤٧. قال في ترجمته: الأسعر الجعفي الفارس المشهور الذي يقول في قصيدته المشهورة. وذكر بيتين على الوزن والروي، لعل الشطر السابق من هذه القصيدة. وفي سمط اللآلئ: ١/ ٩٤، يرجح الميمني أنَّه أول الأصمعية رقم (٤٤) فقد أورد منها البكري خمسة أبيات.وكذلك في هامش العمدة:٢٢٠.

(٦٩) المفضليات: ٢١٥، وتمام البيت: والهم محتضر لدى وسادي.

(٧٠) ديوانه: ٨١٤.

ومَا أَرَاهُ أَرَادَ بالاجتلابِ هَاهنا إلاّ السرق والانتحال».[٧١]

فالحاتمي يذكر هنا آراء بعض العلماء في هذا المصطلح، ثم يورد رأي أبي عبيدة الذي يصرح بأنَّ الاجتلابَ ما هو إلاّ السرقُ وانتحال الشاعر شعرَ غيره.

وقال ابن رشيق في العمدة: «والاصطراف: أن يعجب الشاعر ببيت من الشعر فيصرفه إلى نفسه، فإن صرفه إليه على جهة المثل فهو اجتلاب واستلحاق، وإن ادَّعَاهُ جملةً فهو انتحالٌ، ولا يقال منتحلٌ إلاَّ لمن ادَّعَى شعراً لغيره، وهو يقول الشعر». وأضافَ ابنُ رشيق: «وأمّا قول جرير للفرزدق وكان يرميه بانتحال شعر أخيه الأخطل بن غالب - البيت – فإنما وضع الاجتلاب موضع السرق والانتحال لضرورة القافية ».[٧٢]

فالاصطراف عند ابن رشيق هو مَا أُخِذَ على سبيلِ التمثيلِ والإعجابِ، وقيَّدَ الانتحالَ بأنْ يكونَ الآخذُ شاعراً، وقوله هذا مطابق لقول أبي عبيدة في بيت جرير السابق.

خامساً- شوارد الأمثال:

قال الحاتمي[٧٣]: « وأشرد ما قيل في الحض على طلب الغنى قول كعب بن سعد الغنوي[٧٤]: [من البسيط]

اعصِ العَوَاذِلَ وارمِ اللَّيلَ عَنْ عُرُضٍ بِـذِي سَـبِيْبٍ يُقَـاسِي لَيْلَـهُ خبَبَـا
حَتَّـى تمـوَّلَ مـالاً أو يقـاَلَ فتـى لاقى التَّـي تَـشْعَبُ الفِتيـانَ فَانْـشَعَبَا

(٧١) حلية المحاضرة:٢/ ٥٨.

(٧٢) العمدة: ١٠٣٩- ١٠٤٢.

(٧٣) حلية المحاضرة:١/ ٢٨٢.

(٧٤) الأصمعيات: ٥٣. البيتان: الرابع و الثاني عشر، من الأصمعية رقم (٥٣) منسوبة إلى سهم بن حنظلة الغنوي، معجم الشعراء:٣٤١. وتبعهما بعبارات شبيهة بقول أبي عبيدة دون ذكر سند. وفي الحماسة البصرية قال: سهم بن حنظلة الغنوي: وتروى لكعب الغنوي:١/ ٨٤.

وكان أبو عبيدة يسمي هذين البيتين دُرتي الغواص لأنَّ الدّرّةَ إذا أصابَهَا الغواصُ لم يُصبْ مثلَهَا، حَتَّى يُنفقَ في طلبها أضعافَ ثمن التي أصابَ. وهذان البيتان قتلا خلقاً كثيراً، كان أحدهم ينفض رأسه يتمثل بهما ثم يخرج يطلب أن يتموَّل فيقتل ألف قبل أن يتمول واحد».

ذكر الحاتمي الأبيات ثم ذكر رأي أبي عبيدة فيما يحملانه من معانٍ جعلت الفوارس تتمثل بهما في الحضِّ على طلب الغنى.

وأشرد مَثَلٍ قيل في البغي قول المتلمس[٧٥]: [من الطويل]

أَحارِثَ إنَّا لو تساطُ دِمَاؤنا تَزَايَلنَ حتَّى لا يَمَسَّ دَمٌ دَمَا

حكى ذلك أبو عبيدة وزعم أنَّه أشرد مَثَلٍ قيل في البغي.[٧٦]

وقال ابن قتيبة في حديثه عن المتلمس: «ومن إفراط قوله: البيت-يقول:إنَّ دماءهم تنماز من دماء غيرهم، وهذا ما لا يكون».[٧٧]

جعل ابن قتيبة البيت شاهداً على الإفراط، ويريد الشاعر أنَّ دماءهم لا يمكن أن تختلط، وهذا محالٌ لأنَّ طبيعة الخلق لا تتوافق مع ما ذهب إليه. وفي نور القبس، قال أبو عبيدة[٧٨]:هذا أشد بيت قيل في النفي.

وقال البغدادي في قول الشاعر: [من الوافر]

« فلو أنّا على جُحْرٍ ذُبِحْنَا جَرَى الدَّميانِ بِالخَبَرِ اليَقِينِ

أراد بالخبر اليقين ما اشتهر عند العرب، من أنَّه لا يمتزج دم المتباغضين. وهذا

(٧٥) ديوان المتلمس:١٦.

(٧٦) حلية المحاضرة: ١/ ٢٩٢ ويظهر من النصوص الآتية أنها الرواية الصواب؛ لأنها توافق المعنى، وليس [البغي] كما جاء في الحلية.

(٧٧) الشعر و الشعراء:١٨٠.

(٧٨) نور القبس:١١٢.

تلميح في غاية الحسن، أي لَمَا امتزجا وعُرف ما بيننا من العداوة. قال ابن الأعرابي: معناه لم يختلط دمي ودمه، من بغضي له وبغضه لي، بل يجري دمي يمنة ودمه يسرة. ويوضحه قول المتلمس...».(٧٩)

وقال الحاتمي: «وأشردُ مثلٍ قِيلَ في اعتدادِ بني العَمِّ، والكَفِّ عن مُقَابلتِهم عَلَى فعلهم، قوله - المتلمس - أيضاً(٨٠):

وما كنت إلاَّ مثلَ قاطع كَفّهِ ... بِكَفٍّ لَهُ أُخْرَى، فأصبَحَ أَجْذَمَا
يَدَاهُ أَصَابَت هذه حَتْفَ هذهِ ... فلم تَجِد الأَخرى عَليها تَقَدُّمَا
فلما استقاد الكف بالكفِّ لم يجد ... لَهُ دَرَكَاً في أنْ يَبِينَ فَأَحْجَمَا
فَأطرقَ إطراقَ الشُّجَاعِ، ولو يرى ... مُسَاغَاً لِنَابَيْهِ الشُّجَاعُ لَصَمَّمَا

قال أبو عبيدة: يريد أنَّه فيما صنع به أخواله بمنزلة من قطع إحدى يديه بالأخرى، فلو هجاهم وكَافَأَهُم كانَ بمنزلةِ مَنْ قطعَ يَدَهُ بِيَدِهِ، فيبقى أجذمَ».(٨١)

ومعنى هذه الأبيات ينطبق على الحياة الاجتماعية التي يحياها العرب، وما تستوجب من تماسك بين أفراد الأسرة الصغيرة والأسرة الكبيرة التي هي القبيلة. ويظهر أنَّ أبا عبيدة كان معجباً بقصيدة المتلمس هذه؛ وبما تشتمل عليه من الحكمة والأمثال السائرة، وإن نقلت المصادر رأيه في الأبيات المتقدمة.

سادساً- الاستحسان:

ورد في حلية المحاضرة(٨٢): « قال أبو العباس: قال الأثرم عن أبي عبيدة: أحسن بيت قيل في الشجاعة قول عباس بن مرداس السلمي:(٨٣) [من الوافر]

(٧٩) خزانة الأدب:٧/ ٤٨٧.

(٨٠) ديوانه: ٢٦.

(٨١) حلية المحاضرة:١/ ٢٩٣.

(٨٢) حلية المحاضرة:١/ ٣٥٢.

(٨٣) ديوان العباس بن مرداس: ١١٠.

أشــدُّ عَــلَى الكتيبــةِ لا أُبَــالِي أَحَتْفِـي كَـانَ فيهـا أَمْ سِـوَاهَا؟

قال وأحسن بيت قيل في الإقدام قول كعب بن مالك الأنصاري:(٨٤) [من الكامل]

نَصِلُ السُّيوفَ إذا قصرن بخَطونِا قُـدُماً، ونُلْحِقُهـا إذا لم تَلحَـقِ

قال وأحسن بيت قيل في الصبر عند الجزع قول عمرو بن الإطنابة (٨٥): [من الوافر]

وقولي كُلَّمَا جَشَأَتْ وَجَاشَـتْ مَكَانَـكِ تُحْمَـدِي أَو تَـسْتَرِيحِي

وقول قطري بن الفجأة (٨٦): [من الوافر]

فأَنَّـكِ لَـو سَـألتِ بَقـاءَ يَـومٍ عَلَى الأَجَلِ الـذي لَـكِ لَمْ تُطَـاعِ».

يظهر أنَّ هذا الخبر اشتمل على أكثر من صفة، وأنَّ شعراءه من عصور مختلفة.

وقال ابن عبد ربه في أحسن اعتذار:(٨٧)

« قال أبو عبيدة معمر بن المثنى: ما اعتذرَ أحدٌ مِن الفرَّارين بأحسنَ مما اعتذر به الحارث بن هشام حيث يقول:

اللهُ يَعلـمُ مَـا تَركـتُ قِتَـالَهُمُ حتَّـى رمـوا مُهْـرِي بِأَشْـقَر مُزْبِـدِ

وَعَلِمْـتُ أَنِّي إنْ أُقَاتـلْ وَاحِـداً أُقتَلْ وَلا يَضُرُرْ عَـدُوِّي مَشْهَدِي

[وَشَمِمْتُ رِيحَ الموتِ مِنْ تِلقَائهم في مَـأْزِقٍ والخَيـلُ لَمْ تَتَبَـدَّدِ]

فَـصدفتُ عَـنهمْ والأَحِبَّـةُ فـيهمُ طَمَعَاً لهـم بِعِقَـابِ يَـومٍ مُرْصَـدِ».

وأضاف العسكري:« وهذا أوّل من اعتذر من هزيمة رُوِيَتْ عن العرب».(٨٨)

---

(٨٤) ديوانه:١٩٥.

(٨٥) معجم الشعراء:٢٠٤.

(٨٦) وفيات الأعيان:٤/ ٩٤.

(٨٧) العقد الفريد: ١/ ١٤١، وفي الصناعتين: ٤١٤.دون ذكر السند، وما بين الحاصرتين زيادة على ما ورد في العقد.

(٨٨) الصناعتين:٤١٤.

فابن عبد ربه أسند خبر حسن الاعتذار إلى أبي عبيدة، ونقله أبو هلال العسكري قائلاً إنَّه أوَّل مَنْ اعتذر عن هزيمة.

أحسن ما قيل في وصف الدرع:

جاء في الأنوار عن أحسن ما قيل في وصف الدّرع(٨٩): «قال أبو عبيدة أحسن ما قيل في صفة الدروع: (٩٠) [قول كعب بن زهير]:

وَبِيضٍ مِن النَّسجِ القَدِيمِ كَأنَّها نِهَاءُ نَقِيعٍ مَاؤُه مُتَرَافِعُ

تُصفِّقُها هُوجُ الرِّياحُ إذا جَرَتْ وَتُعقِبُهَا الأَمطارُ والمَاءُ رَاجِعُ

وللجميح الأسدي:(٩١)

مُدَّرَعًا رَيْطَةً مُضَاعَفَةً كَالنِّهْيِ وَقَّى سِرَارَهُ الرِّهَمُ

ولمعقر بن قيس(٩٢):

وخَيْلٍ قَدْ دَلَفْتُ لَهَا بِخَيلٍ عَليها الشُّمْطُ مِنْ أَولادِ عَبْسِ

عَلَيهم كُلُّ سَابِغَةٍ دِلاصٍ كَأنَّ قَتيرَهَا حَدَقُ ابنِ عِرْسِ

(٨٩) الأنوار ومحاسن الأشعار: الشمشاطي:١/ ٦٩. و مثل هذه العبارة في ديوان المعاني: أبو هلال العسكري: ٢/ ٦٢.

(٩٠) شرح ديوان كعب بن زهير:٢٥٨.والنهاءُ:جمع نهي، وهو الغدير حيث يتحير فيه السيل فيوسع.

(٩١) المفضليات:١٠٧، [الريطة هاهنا: الدرع، شبهها بالرَّيْطَةِ لصفاء حديدها، والمُضَاعفة: التي نسجت حلقتين حلقتين، ثم شبهها بالنهي، وهو مُطمأن من الأرض، له حاجز يمنع الماء أن يفيض منه، والسرار: خير موضع من الوادي. والرهم: جمع رهمة وهي: المطرة الضعيفة. وقوله: وَقَّى أصابها من المطر ما كفاها، وإذا كثر الماء في النهي كان أشد لصفائه].

(٩٢) لم أعثر على البيتين في غير هذا الموضع.

ولعبد الله بن سلام(٩٣):

وَلَمْ تَـرَ يحيـى فوقـه تُبَّعِيَّـةٌ تَرُدُّ غِرارَ السَّيفِ والسَّيْفُ قَاضِبُ

تَقَارَبَ فيها السَّردُ حَتَّى كَأَنَّمَا تَخَازرُ فيهـا بـالعُيُونِ الجَنَـادِبُ

هذا البيت حسنُ المعنى، لأنَّ أكثر من وصف الدروع شبهها بحدق الجراد، والجنادب ضرب منها، ولم يرض هذا حتَّى قال: تخازر، والتخازر: تصغير العين. فجعلها مثل عيون الجراد المصغرة، وهذا إغراق في الوصف».

ذكر أبوعبيدة أحسنَ ما وصفت به الدرع ثم علل حسن البيت الأخير منها معتمداً على الصورة الشعرية التي في البيت. ولعَّل فيما تقدم بيانًا لدور أبي عبيدة معمر بن المثنى في وضع المصطلح النقدي عن العرب، فقد أُسندت إليه أخبارٌ تؤكد هذا الدور، ورُويَت أخبارٌ أخرى دون ذكر السند، وتَبَّينَ مِن مقارنة النصوص أنَّها تعود إليه، ولم يتوقف عند شعراء عصر من العصور الأدبية من العصر الجاهلي حتَّى زمانه.

المصادر والمراجع

- **الأشباه والنظائر في أشعارالمتقدمين**: الخالديان، تحقيق: محمد يوسف، مطبعة لجنة التأليف والترجمة، مصر١٩٥٨م.
- **الأصمعيات**: الأصمعي، تحقيق:أحمد محمد شاكر/ عبد السلام محمد هارون، ط٣، دار المعارف،مصر،١٩٦٤ م.
- **الأنوار ومحاسن الأشعار**: أبو الحسن علي بن محمد بن المطهر العدوي، المعروف بالشمشاطي، تحقيق: د. السيد محمد يوسف، راجعه: عبد الستار أحمد فراج، الكويت، ١٩٧٧م.

(٩٣) الأشباه و النظائر في أشعار المتقدمين:الخالديين:١/ ١٥٦ البيت الثاني،في قصيدته التي يرثي فيها يحيى بن عمر العلوي.

- **البديع**:عبد الله بن المعتز، شرح محمد عبد المنعم خفاجي،مطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر،١٣٦٤ هـ/ ١٩٤٥م.
- **البديع في نقد الشعر**: أسامة بن منقذ، تحقيق: د. أحمد أحمد البدوي وآخرون، مطبعة مصطفى الحلبي.
- **البصائر والذخائر**: أبو حيان التوحيدي، تحقيق: د. وداد القاضي، ط ١، دار صادر، بيروت، ١٩٨٨ م. ٦/ ١٩٦.
- **تاريخ بغداد**: الخطيب البغدادي، دار الكتب العلمية، بيروت.
- **تحرير التحبير**: ابن أبي الأصبع،تحقيق:د.حفني محمد شرف، القاهرة،١٤١٦ هـ/ ١٩٩٥م.
- **حلية المحاضرة**: أبوعلي محمد الحسن بن المظفر الحاتمي، تحقيق: د.جعفر الكتاني، وزارة الثقافة و الإعلام، العراق، ١٩٧٩م.
- **الحماسة البصرية**:علي بن حمزة البصري،تحقيق: مختار الدين أحمد، ط٣، عالم الكتب، ١٩٨٣م.
- **خزانة الأدب**:عبد القادر بن عمر البغدادي، تحقيق: عبد السلام هارون، ط٢، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٤٠٨ هـ/ ١٩٨٨م.
- **ديوان الأخطل**، شرح:مجيد طراد،ط١، بيروت،١٤١٦ هـ/ ١٩٩٥م.
- **ديوان الأعشى الكبير**، تحقيق: محمد حسين،مكتبة الجماميز، مصر،١٩٥٠ م.
- **ديوان امرئ القيس**: تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط٥، دار المعارف، مصر، تاريخ الإيداع،١٩٩٠م.
- **ديوان بشار بن برد**: نشر محمد الطاهر بن عاشور، راجعه: محمد شوقي أمين، القاهرة، ١٣٧٦هـ/ ١٩٥٧م.
- **ديوان الحطيئة (شرح ابن السكيت)**: تحقيق: نعمان محمد أمين طه، ط. ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧ م.
- **ديوان دريد بن الصمة**، جمع و تحقيق: محمد خير بقاعي، تقديم: د.شاكر الفحام، دار قتيبة، تاريخ المقدمة١٩٨١م.

- **ديوان ذي الرُّمَّة**، تحقيق:د.عبد القدوس أبو صالح، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق،١٣٩٣هـ/ ١٩٧٣م.
-ديوان سلامة بن جندل،تحقيق:د.فخر الدين قباوة، ط١، حلب، ١٣٨٧هـ/ ١٩٨٦م.
-ديوان طرفة بن العبد (صنعة الأعلم)، تحقيق: لطفي الصقال/ درية الخطيب، ١٣٩٥ هـ/ ١٩٧٥ م.
-**ديوان العباس بن مرداس**، جمع وتحقيق:د.يحيى الجبوري،دار الجمهورية،بغداد،١٩٦٨م.
- **ديوان القطامي**: تحقيق: د.إبراهيم السامرائي/ أحمد مطلوب، ط١، دار الثقافة، بيروت،١٩٦٠م.
- **ديوان كثير عزة**، جمع: د.إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت ١٣٩١هـ/ ١٩٧١م.
- **ديوان كعب بن مالك الأنصاري**، تحقيق: د.سامي مكي العاني، ط٢، عالم الكتب، بيروت، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م.
- **ديوان لبيد بن ربيعة العامري**، تحقيق:د.إحسان عباس، الكويت،١٩٦٢م.
- **ديوان المتلمس الضبعي**، تحقيق:حسن كامل الصيرفي، الشركة المصرية للطباعة والنشر، ١٣٤٠هـ/ ١٩٧٠م.
- **ديوان المعاني**: أبو هلال العسكري،مكتبة القدسي، القاهرة.
- **ديوان النابغة الذبياني (صنعة ابن السكيت)**، تحقيق: د.شكري فيصل، دار الفكر، تاريخ المقدمة: ١٣٨٨هـ/ ١٩٦٨ م.
- **شرح ديوان كعب بن زهير (صنعة السكري)**: دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٣٦٩هـ/ ١٩٥٠م.
- **شعر زهير بن أبي سلمى(صنعة الأعلم الشنتمري)**، تحقيق د: فخر الدين قباوة، دار الآفاق الجديدة، بيروت،١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م.
- **شعر زيد الخيل الطائي**، جمع وتحقيق:أحمد مختار البزرة، ط١، دار المأمون للتراث، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م.

- **الشعر والشعراء**: ابن قتيبة، تحقيق: أحمد محمد شاكر، ط٢، دار الحديث، القاهرة، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٨م.
-**كتاب الصناعتين**: أبو هلال العسكري،تحقيق:علي محمد البجاوي، ومحمد أبو الفضل إبراهيم، ط ٢، دار الفكر العربي، تاريخ الإيداع: ١٩٧١م.
- **العقد الفريد**: ابن عبد ربه، شرح وضبط: أحمد أمين وآخرون، ط٢، القاهرة، ١٣٧٦هـ/ ١٩٤٨م.
- **العمدة**: ابن رشيق القيرواني، تحقيق: محمد قرقزان، ط١، دار المعرفة، بيروت، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م.
- **فصل المقال في شرح كتاب الأمثال**: أبو عبيد البكري، تحقيق: د. إحسان عباس/ د.عبد المجيد قطامش، بيروت، ١٣٩١هـ/ ١٩٧١م.
- **قواعد الشعر**: أبو العباس ثعلب، تحقيق: د. رمضان عبد التواب، ط٢، القاهرة، مكتبة الخانجي، ١٩٩٥م.
- معاهد التنصيص: عبد الرحيم بن أحمد العباسي، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، عالم الكتب، بيروت، ١٩٤٧م.
-المصون في الأدب: أبوأحمد الحسن بن عبد الله العسكري، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، الكويت، ١٩٨٤ م.
- معجم **الأدباء**: ياقوت الحموي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان.
-**معجم الشعراء**: أبو عبيد الله محمد بن عمران المرزباني، تصحيح: كرنكو، مطبوع مع المؤتلف والمختلف: الآمدي، ط ٢، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٩٨٢م.
- **المفضليات**: المفضل الضبي، تحقيق:عبد السلام محمد هارون، ط٣، دار المعارف، مصر، ١٩٦٤ م.
- **المؤتلف والمختلف**: الآمدي، مطبوع مع معجم الشعراء.
- **نقد الشعر**: قدامة بن جعفر، تحقيق: كمال مصطفى، ط١، مكتبة الخانجي، مصر، ١٣٦٧هـ/ ١٩٤٨ م.
- **نور القبس**: يوسف بن أحمد بن محمود اليغموري، تحقيق: رودلف زلهايم، فيسبادن، ١٣٨٤هـ/ ١٩٦٤م.

... حتى إذا ...

د. مكي الحسني(*)

سأتحدث عن هذا «التركيب» - حتى إذا - حين يأتي في سياق الجملة، لا في بدايتها. وقد ورد كثيرًا في القرآن الكريم (٤٠ مرة) وفي كلام العرب وشعرائهم.

(حتى) في هذا التركيب حرف للابتداء تضمَّن معنى الغاية. و(إذا) ظرف متضمّن معنى الشرط، [والفعل الذي يليه هو فعل الشرط] وهو متعلق بجواب الشرط [الظاهر غالبًا والمحذوف أحيانًا للعِلْم به]. وحين يرد هذا التركيب يكون الكلام قبله معبِّرًا عن حدثٍ دام مدةً **إلى أن** وقع فعل الشرط (المذكور بعد إذا). ولمّا حدث فعل الشرط حدث جواب الشرط. وفيما يلي بعض الأمثلة.

١- قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ **حَتَّى إِذَا** هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولا...﴾ [غافر: ٣٤].

المعنى: **دام** الشك في قلوبكم إلى أن هلك يوسف. ولمّا هلك قلتم (جواب الشرط) لن يبعث الله من بعده رسولاً.

٢- قال تعالى: ﴿فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا...﴾ [الكهف: ٧١].

المعنى: انطلق العبد الصالح (الخضر) وسيدنا موسى من موضع التقائهما، **ودام انطلاقهما** إلى أن ركبا في السفينة (فعل الشرط). ولمّا ركبا في السفينة خرقها (جواب الشرط) العبدُ الصالح.

(*) عضو مجمع اللغة العربية بدمشق.

٣- وفي السورة نفسها: ﴿فَانْطَلَقَا **حَتَّى إِذَا** لَقِيَا غُلاماً فَقَتَلَهُ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْساً زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئاً نُكْراً﴾

المعنى: انطلقا و**دام انطلاقهما** إلى أن لقيا غلامًا (فعل الشرط) فقتله الخضر (الفاء عاطفة للتعقيب). ولمّا قتل الغلامَ قال له موسى (جواب الشرط): أقتلت نفسًا...

٤- وفي التنزيل العزيز:﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ **حَتَّى إِذَا** فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ، مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الآخِرَةَ...﴾ [آل عمران:١٥٢]. تتحدث هذه الآية عن مشهدٍ من مَشاهد غزوة أُحُد.

المعنى: لقد صدقكم الله وعده حين كنتم تقتلون المشركين بإذنه (بإرادته) **واستمر** معكم النصر إلى أن فَشِلْتم (فعل الشرط) أي جَبُنْتُم وتنازعتم وعصيتم. ولمّا حدث هذا، حدث جواب الشرط، وهو هنا **محذوف** تقديره **انقسمتم فريقين**: فريق يريد الدنيا والغنائم، وفريق يريد الآخرة وثوابها، فتخلَّف وعدُ الله ومنعكم النصر!

٥- قال ذو الرُّمَّة:

قومٌ يُوارون عما في صدورهُمُ **حتى إذا** استمكنوا كانوا هم الدَّاءَ

٦- قال تعالى: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَراً حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا﴾ [الزمر: ٧١].

سَوْقُ الذين كفروا إلى جهنم دام مدةً إلى أن جاؤوها (فعل الشرط)، ولمّا حدث هذا، حدث جواب الشرط: فُتحت أبوابها...

٧- وفي السورة نفسها: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَراً حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ۞ وَقَالُوا الْحَمْدُ للهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ...﴾ [الزمر: ٧٣- ٧٤]. هنا أيضًا سَوق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمرًا دامَ مُدةً إلى أن جاؤوها (فعل الشرط)، ولما حدث هذا، وبعد ترحيب خَزَنة الجنة بهم، حدث جواب الشرط، وهو هنا **محذوف تقديره**: دخلوها! وقالوا الحمد لله...

الإبانة في تفصيل ماءات القرآن

وتخريجها على الوجوه التي ذكرها أرباب الصناعة(*)

د.عبد الإله نبهان(**)

- الكتاب:

(ما) من الأدوات التي كثُر استعمالها في العربية كثرة مفرطةً قياسًا إلى غيرها، فقد بلغت مرات استعمالها حسب «معجم الأدوات والضمائر في القرآن الكريم» ٢٥٣٠ مرة وبلغت في كتابنا هذا «الإبانة» مع استدراكات المحقق ٢٦٢١ مرة، فلا عجب أن خصص لها بعض علمائنا كتبًا مستقلة كما خصصوا للاّمات. وقد ذكر الباقولي ذلك في مقدمة كتابه فقال: «اعلم أن الناس قد اشتجروا في ماءات القرآن، وأخذ كل واحد ممن يتعاطى هذا الشأن طريقةً غير طريقة صاحبه وقسمها كل واحد منهم تقسيمًا يخالف تقسيم قرينه. فمن ذلك ما هو متداخل

(*) الكتاب: صنعة جامع العلوم أبي الحسن علي بن الحسين الأصبهاني الباقولي، المتوفى سنة ٥٤٢ هـ، حققه واستدرك ما فاته من الماءات وخرّج ما فيه وشرحه وناقشه وكتب حواشيه ووضع فهارسه: الدكتور محمد أحمد الدالي. صدر الكتاب عن وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالكويت ١٤٣٠ هـ - ٢٠٠٩ م.

(**) عضو مجمع اللغة العربية بدمشق

وما هو مكرر. وقد بلغ بواحد منهم أن قسمه وخرّجه ثلاثين وجهًا...» ثم ذكر المحقق مَنْ صنَّف في ماءات القرآن ممن عرفهم أو أصاب لهم ذكرًا، من غير ما قصْدٍ إلى الإحصاء ولا الاستقصاء فكان منهم:

– أبو حاتم سهل بن محمد السجستاني تـ ٢٥٥ هـ. ذكره الجعبري.

– ابن خالويه، الحسين بن أحمد تـ ٣٧٠هـ. جعل (ما) خمسة وعشرين قسمًا، وهذا الكتاب أحال عليه ابن خالويه في كتبه.

– ابن لال، أحمد بن علي الهمذاني تـ ٣٩٨ هـ أو قبلها. له كتاب «ماءات القرآن» ذكره مترجموه.

– أبو الفرج حمد بن علي الهمذاني تـ بعد ٤٠٠ هـ. ذكره الجعبري في غايات البيان.

– أبو الفضل محمد بن جعفر الخزاعي الجرجاني تـ ٤٠٨ هـ. ذكره الجعبري في غايات البيان.

– أبو العلاء الحسن بن أحمد العطار الهمذاني تـ ٥٩٦ هـ. له «الكشف والبيان عن ماءات القرآن» منه نسخة بدار الكتب المصرية.

– أبو الحسن علي بن عبد الكريم الواسطي المعروف بخُريم تـ ٦٨٩ هـ. له «ماءات القرآن» انتهت منه إلينا نسخ...

– أبو علي الحسين القزويني... قال المحقق: لعله أبو الحَسَن علي بن أحمد القزويني ٣٨١ هـ.

– إبراهيم بن عمر الخليلي الجعبري تـ ٧٣٢. كتابه «غايات البيان في ماءات القرآن» مطبوع.

قلت: ذكر الزَّبيدي في تاج العروس (ما) أن الإمام أبا الحسن أحمد بن فارس بن زكريا تـ٣٩٥ هـ ألَّف في أنواعها رسالة مستقلة ونقل الزَّبيدي منها عدة نقول. وابن فارس هذا ممن ألَّف في لامات القرآن الكريم فيكون قد ألّف في ماءاته أيضًا.

هذا، وقد انتقد الباقولي في مقدمته ذاك الذي قسّم أوجه «ما» ثلاثين وجهًا فقال: «وإذا تأملت ذلك علمت أنه حاد عن الصواب، وذلك لقلّة علمه بقواعد سيبويه. وهذا الشأن لا يتأتّى إلا لمن بحث عن مكنونات قاعدته، والعلم بنكته وإشاراته».

فالباقولي أراد أن يضبط مواقع «ما» في جمل كليّة قبل أن ينتقل إلى استعراضها واحدة واحدة في فرش السور: «ونحن نبيّن لكَ نُبذًا من هذا، ونعلّمك جُملاً من هذا الأصل، ثم نبيّن بعد ذلك على ترتيب السور حرفًا حرفًا».

ذهب الباقولي إلى أنّ «ما» يأتي في الكلام على عشرة أوجه: خمسة منها أسماء وخمسة منها حروف. وسنسردها من غير أن نعرّج عما ورد بشأنها من خلاف.

فأما الأسماء فمنها:

١ – «ما» التعجّب، نحو قوله: ما أحسنَ زيدًا.

٢ – «ما» بمعنى الذي، ويقال له الموصول، وقوم يسمّونه خبريًّا، وهما واحد.

٣– أن يكون «ما» بمعنى الشرط والجزاء، ويجزم المضارع نحو قوله: ﴿وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ﴾[البقرة: ٢٧٢].

٤– أن يكون «ما» موصوفًا كما في قوله ﴿هَذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ﴾[قّ: ٢٣] وهذا موضع خلاف. أو أن تكون نكرة في الخبر بمنزلة شيء وذلك بعد «نِعْم وبئْس» كقوله: ﴿إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ﴾[البقرة: ٢٧١] أي فنعم شيئًا هي.

٥- أن يكون «ما» استفهامًا، نحو قوله ﴿مَاذَا يُنْفِقُونَ﴾ [البقرة: ٢١٥].

وأما الحروف فمنها:

١- «ما» التي تكفّ الحروف عن العمل، وذلك نحو «إنّما» و«أنما» و«كأنّما» و«ليتما» قال تعالى:﴿إِنَّمَا اللهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ [النساء ٤: ١٧١].

٢- أن يكون «ما» صلةً في الكلام زيادةً للتأكيد كقوله: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ﴾ [آل عمران: ١٥٩] كأنه قال: فبرحمةٍ من الله لِنْتَ لهم.

٣- أن يكون «ما» مع الفعل بعده بتأويل المصدر بمنزلة «أنْ» كقوله: ﴿بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ [البقرة: ١٠] أي بكذبهم.

٤- أن يكون «ما» بمعنى النفي كقوله: ﴿مَا هَذَا بَشَراً﴾ [يوسف: ٣١] و﴿ مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ﴾[يـس١٥].

٥- «ما» في نحو قولهم: أجلسُ ما دام زيد جالسًا، والتقدير: أجلسُ مدة جلوس زيد.

فـ «ما» هذه حرفٌ عند قوم واسمٌ عند آخرين لِمَا كان بمعنى المدّة.

بعد ذلك يبدأ الاستقراء الشامل لمواضع «ما» في القرآن الكريم تحت ما يُسمّى بـ «فَرْش السُّورَ» ويعبّر عنه في كتب القراءات بـ «فَرْش الحروف». «والفَرْش مصدر فرش: نشر، وهو إما أن تتكرر فيه الكلمة ويقع الخلاف في كل موضع وقعت فيه أو أكثر المواضع، أو لا تتكرر. فالأول يُضبط الخلاف فيه في أول موضع وقعت فيه تلك الكلمة ويضمّ إليها ما يشبهها، ثم تُعاد كلّها أو أكثرها في محالّها للإيضاح وعدم مشقة المراجعة وتنبيهًا للقارئ لئلا يذهل، ويُغتفر

التكرار لمزيد الفائدة وتفصِيل المجمل، على أنّ التفصيل بعد الإجمال ليس تكرارًا... والثاني وهو الذي لا يتكرر، يُورد منشورًا على حسب الترتيب القرآني كالسابق، مع توجيه كل قراءةٍ تَلَوْها، مفتتحًا كل سورة بعدد آيها مع ذكر الخلاف في ذلك...»[1] وصحيح أن كتاب الباقولي ليس في القراءات، إلا أن كتابه هذا بُني على المنهج الذي بُنيت عليه، فقد أتى بالإجمال أولاً وهو الذي استعرضناه، ثم بدأ بفرش السور مستعرضًا الماءات الواردة فيها واحدةً بعد أخرى، ذاكرًا معناها معرّجًا على بعض التفصيلات الإيضاحية ولكن بإيجاز، وبدأ بالسورة الثانية (البقرة) لأن فاتحة الكتاب ليس فيها (ما).

كانت (ما) الأولى في سورة البقرة ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾[البقرة: ٣] قال: («ما»بمعنى الذي، ﴿ورزقناهم﴾ صلتُه، والعائد إليه محذوف أي: وممّا رزقْناهموه. لابدّ من ذلك لأن «رَزَق» يتعدّى إلى مفعولين، قال: ﴿وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقاً حَسَناً﴾[النحل: ٧٥] فعدّاه إلى مفعولين: الهاء، وقوله: ﴿رِزْقاً حَسَناً﴾ ليس بمصدر، لقوله: ﴿فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ﴾[النحل: ٧٥] والإنفاق من العين لا من الحَدث.

وقد يعلّق الباقولي على «ما» بكلمة واحدة كما فعل في قوله: ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ [البقرة: ٩] .

قال: نافية. وفي قوله ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾[البقرة: ١١] قال: كافة. ولكنه قد يستطرد في مواضع حيث يشتجر الخلاف ويخرج عن بحثه في «ما» كما فعل لدى الآية ﴿فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ﴾ [البقرة: ١٧] قال: فاعلم أن «لمّا» على ثلاثة أقسام:

(١) الدمياطي: أحمد بن محمد. إتحاف فضلاء البشر: ١٤٧ – المطبعة العامرة – ١٢٨٥ هـ.

الأول: أن تجيء بمعنى «حين » نحو قوله ﴿ فلّما أضاءت ﴾ وكذلك كل كلمة «لمّا» إذا وقع بعدها الفعل الماضي كان بمعنى «حين» وكان اسمًا منصوبًا مضافًا إلى الفعل بعده، وينصبه جوابُه.

والثاني: أن يكون «لمّا» بمعنى «لم» ويجزِمُ الفعلَ بعده، نحو قوله: ﴿وَلَمَّا يَأْتِكُمْ﴾[البقرة: ٢١٤] ﴿وَلَمَّا يَعْلَمِ اللهُ﴾[آل عمران: ١٤٢] إلاّ أنّ «لم» نفيُ «فَعَلَ» مطلقًا، و«لمّا» نَفْيُ «قد فعل»: إذا قال القائل: قام زيد، ثم نفيت = قلتَ: لم يقم، وإذا قال: قد قام زيدٌ = فنفيه: لمّا يقم.

والثالث: أن يكون «لمّا» بمعنى «إلاّ» وذلك في القَسَم، نحو: نَشَدْتُكَ الله لمّا فعلتَ، أي إلاّ فعلتَ. وقالوا في قوله ﴿إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾ [الطارق:٤] فيمن شدّد = [أي: إلاّ عليها حافظٌ]. وأمّا طريقة أبي عليّ [الفارسي] فغير هذا في قوله ﴿ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ﴾، وفي قوله: ﴿وَإِنَّ كُلاًّ لَمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ﴾[هود: ١١١] ﴿وَإِنْ كُلٌّ لَمَّا جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ [يس:٣٢]
﴿وَإِنْ كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [الزخرف: ٣٥] وسيأتيك هناك...

هذا التفصيل كلّه في لمّا، وعندما وصل إلى «ما» في قوله «ما حوله» قال: موصولة. غير أن هذه الاستطرادات محدودة، وقد وردت في مواضع تستدعي الإيضاح أو تكون «ما» فيها تحتمل غير ما وجهٍ حسب تقدير المعنى كما ورد في تعليقه على «ما» في قوله ﴿أَلا إِنَّ للهِ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ وَمَا يَتَّبِعُ

الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ شُرَكَاءَ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ﴾ [يونس:٦٦] قال: قالوا فيه [أي في ما] ثلاثة أقوال:

الأول: أن يكون موصولاً، ويكونَ مُعبّرًا به عن الأصنام، والتقدير: ﴿إِنَّ للهِ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ﴾ والآلهة التي يدعونها شركاءَ. فـ «ما» نصبٌ عطفٌ على «مَنْ» و﴿يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ﴾ صلتُه، والعائد من الصلة إلى الموصول محذوفٌ. و ﴿شُرَكَاء﴾ إمّا أن يكون مفعولاً ثانيًا لـ ﴿يَدْعُونَ﴾ لأنّه يكون بمعنى ﴿يُسَمُّوْن﴾ ويجوز أن يكون﴿شُرَكَاءَ﴾ حالاً من الضمير العائد إلى الموصول.

الثاني: ويجوز أن يكون قوله ﴿وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ﴾ نفيًا، ويكون قوله: ﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ﴾ نفيًا مكررًا تأكيدًا للأول على تقدير: وما يتّبع الذين يدعون من دون الله شركاءَ إلا الظنَّ، فلمّا طال الكلام كُرّر بلفظ آخر وقال: ﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ﴾.

الثالث: ويجوز أن يكون «ما» استفهامًا، والتقدير: أيَّ اتباعٍ يتّبع الذين يدعون من دون الله شركاءَ وأيَّ طريق يسلكون ؟ فيكون «ما» منصوبًا بـ «يتّبع». فهذه ثلاثة أوجه.).

هذا، ولا يخلو الكتاب من الاستشهاد بالشعر وقد جاء ذلك في نحوٍ من أربعين موضعًا، وإنما يستشهد به لإيضاح معنى أو إيضاح إعراب كما فعل عندما عرض لقوله تعالى: ﴿مَا زَادُوكُمْ إِلاَّ خَبَالاً﴾ [التوبة: ٤٧] قال: نفيٌ. و﴿خَبَالاً﴾ منصوب لأنه مفعول ثانٍ لقوله ﴿زَادُوكُمْ﴾ لأن «زاد» يتعدّى إلى مفعولين، فإذا انقضى مفعوله الأول كان مفرّغًا للمفعول الثاني. ويشبه ذلك قولُ النَّمِر:

ويــأمرني ربيعــةُ كــلَّ يــومٍ لأشْرِيها وأقتنيَ الـدَّجاجا

وما يُغني الدجاجُ الـضيفَ عنّي وليس بنافعي إلا نِـضاجا

وكنّا قديمًا ذكرنا أنّ المفعول الثاني محذوف، أي ما زادوكم قوةً إلا خبالاً، لكن يُوقعون خبالاً أي فسادًا.

وقد استطرد في مواضع استطرادًا فقهيًّا، حيث يتطلب الفقه تدخّل النحو، ففي حديثه عن (كلّ) وأنها للعموم قال: فإذا قلت: كلّ رجلٍ في الدار فله درهمٌ، وفيها عشرة رجال = استحقّوا الدرهم لعموم كل... فقول الرجل لنسوانه: «كل امرأةٍ تدخل الدار فهي طالق» يوجب وقوع الطلاق عليهنّ إذا دخلن كلّهنّ لأنّ «كل» للعموم. وإذا قال: «كلما دخلت امرأةٌ الدارَ طَلَقتْ، فدخلتْها واحدةٌ مرةً طَلَقتْ، ولو دخلتها ثانية = طَلَقَتْ طَلْقةً ثانيةً، ولو دخلتها ثالثةً = طَلَقَتْ طلْقةً ثالثةً، لأن التقدير: كلَّ وقتٍ دخولها طَلَقتْ، ثم يتابع موضحًا ما يترتب على المسألة الأولى مبيِّنًا الفرْق بين «كلّ» و«كلّما» فقولك: كلّ امرأةٍ تدخل الدارَ فهي طالق: إذا دخلتها مرةً طَلَقَتْ، وإن دخلتها ثانية لم تطلُق، بخلاف «كلَّما»، لأنّ «كلاًّ» يوجب تعميم الاسم، و«كلّما» يوجب تعميم الفعل، فهذا معنى قول الفقهاء: إن «كلَّما» حرف تكرارٍ فافهمه، فهذا مساغه في جميع التنزيل.

وهكذا يستعرض الباقولي عشرات الآيات وكل واحدةٍ فيها (ما) ويعلّق عليها بكلمة واحدة كأنْ يقول: نفي، موصولة، استفهام، كافة، من غير أن يضيف شيئًا، إلى أن يرى أن عليه أن يتريث لمناقشة إعراب أو تعليق على شاهد

كما فعل لمّا وصل إلى قوله: ﴿وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ﴾ [إبراهيم ١٤: ٢٢] قال:... وكذا «وما أنتم بمصرخيَّ» نفي أيضًا، والبيت الذي أنشده الفراء في كسر الياء من قوله «بمصرخيِّ» بيتٌ جيدٌ بالغ، ليس كما ردّه أبو إسحاق [الزجّاج]، وهو للأغلب العجْلي في قصيدةٍ يذكرُ فيها مسيلمةَ الكذّاب، وأوّلها:

أقبــل في بُــرْدَيْ مَعَــافِرِيِّ

[بين اختلاط الليل والعشيِّ]

إلى أن بلغ قوله:

مــاضٍ إذا مــا هــمَّ بالْمُـضِيِّ

وكان الزجّاج قد أورد هذا الرجز في معاني القرآن ٣: ١٣٠ وقال: وهذا الشعر مما لا يلتفت إليه، وعملُ مثل هذا سهلٌ، وليس يُعرف قائل هذا الشعر من العرب، ولا هو مما يحتجّ به في كتاب الله ﷻ «فردّ عليه الباقولي بأن الرجز للأغلب العجلي، فهو غير مجهول القائل، بل إن قائله ممّن يحتج بشعرهم.

التحقيق:

اعتمد المحقق الفاضل في تحقيقه مخطوطتين للكتاب لم ينته إلينا غيرُهما، الأولى تحتفظ بها مكتبة جامعة ليدن بهولاندة ضمن مجموع، وتقع في عشرين ورقة، والثانية محفوظة بدار الكتب التونسية بتونس، وهي ملحقة بنسخة كتاب «كشف المشكل» وعدة أوراقها خمسون ورقة، وفصّل المحقق القول في وصف

كلٍ من النسختين المذكورتين بما لا مزيد عليه، ووازن بينهما موازنة تفصيلية، ثم أورد نص الكتاب مضبوطًا مرقّمًا، فكل آية فيها (ما) لها رقم متسلسل، وقد ذكر المحقق استدراكاته ضمن التسلسل لكنه خصّه بترقيم داخلي، ففي الرقم ٢١٨٧ يذكر إلى جانبه (م ١٨٦) أي المستدرك رقم ١٨٦ وبلغت مستدركاته على الماءات ٢١٨ موضعًا. وأغنى المحقق الكتاب بتعليقاته وإحالاته، بحيث جعل الكتاب بهذه التعليقات كتابًا قائمًا بذاته، غير محتاج إلى مراجعة غيره، وجعله بإحالاته منطلقًا للبحث في غيره على هداية وبيّنة، فهو في كل مسألة يحيل أولاً على كتب المؤلِّف (الباقولي) المطبوعة ككشف المشكلات والاستدراك وشرح اللمع والجواهر، ويحيل على الأصول من كتب النحو والتفسير ومعاني القرآن، وقد جاءت تعليقاته وإحالاته وتخريجاته بما يتجاوز حجم الكتاب الأصلي ضعفين أو ثلاثة أضعاف، وقد يسجّل اعتراضه على المؤلف في مواضع ولا يدع الأمور على ظلعها، فمثلًا توقّف عند قول المؤلف لدن قوله تعالى ﴿وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً﴾ [الأحزاب: ٢٣] قال المؤلف: نفيٌ، وينتصب ﴿تَبْدِيلاً﴾ بأنه مفعول به دون المصدر، لأنّ المصدر في هذا ينتصب تأكيدًا لما ثبتَ قبله، وهنا ما قبله منفيّ، فكيف يؤكَّد ؟

قال المحقق:

«كذا قال، وهو ذهول وتخليط. فقوله: ﴿تَبْدِيلاً﴾ مصدر مؤكِّد لعامله المنفيّ ﴿وَمَا بَدَّلُوا﴾ كما كان مؤكِّدًا لعامله المثبت في قوله: ﴿وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلاً﴾ [الإسراء ١٧: ١٠٦] ولا اختلاف بين النحاة – فيما أعلم – أن المصدر يؤكد عامله المثبت

والمنفيّ، ومنهم مَنْ أورد هذه الآية شاهدًا للمصدر المؤكِّد لعامله. ومفعول بدّلوا محذوف. والمعنى: وما غيّروا العهد الذي عاهدوا ربّهم عليه تغييرًا.

عن تفسير الطبري ١٩: ٦٧ وانظر روح المعاني ٢١: ٣٢٩، والتحرير والتنوير ٢١: ٣٠٨.

وأمّا ما لا يجوز عندهم في هذا الباب فأن يكون المصدر مثبتًا مؤكدًا لعامله المنفيّ، فلا يجوز: «ما سعيت إلا سعيًا» لأن المصدر المؤكد بمنزلة تكرير العامل، فقولك: «قمت قيامًا» كأنك قلت: قمت قمت، وقولك: ما سعيتُ إلاّ سعيًا معناه: ما سعيت إلا سعيت. فنصّوا على أن التفريغ لا يكون في المصدر المؤكِّد لأنه لا فائدة فيه. انظر شرح الكافية ١ / ٢: ٧٥٢ والارتشاف ٣: ١٣٥٣، ١٥٠٢ والبحر ٨: ٥١ والتمهيد ٥: ٢١٢٩ و ٣: ١٢٣٣ والهمع ٣: ٩٨، ٢٥٢. وانظر كلامهم في قوله تعالى: ﴿إِنْ نَظُنُّ إِلاَّ ظَنًّا﴾[الجاثية: ٣٢] في كشف المشكلات ١٢٣٣ والمصادر المذكورة ثمة، فقيل: المعنى: إلا ظنًّا ضعيفًا، فهو مصدر مختص حُذفت صفته، وقيل غير ذلك.

وعلى هذا النمط ترد تعليقات المحقق المطوّلة، أما تعاليقه الموجزة فقد تأتي في سطر واحد. وقد تأتي في عدة أسطر، وقد يكون التعليق مجرد إحالات يُراد بها التوثيق.

صنع المحقق للكتاب اثنين وعشرين فهرسًا خصص الأخير لذكر مصادر التحقيق ومراجعه، وقد أضاف السيد المحقق إلى الفهارس المعروفة فهرس

الأساليب والنماذج النحوية واللغوية، وفهرس مسائل العربية وفهرس اللغة وفهرس الوقف والابتداء والفواصل القرآنية، وفهرس خط المصحف (وهجائه ورسمه) وفهرس البلاغة، وفهرس مسائل الفقه، وفهرس المصطلحات، وفهرس شوارد الفوائد، المنثورة في حواشي التحقيق في مسائل من علم العربية واللغة والتفسير. هذا، إضافةً إلى مقدمة ضافية صدّر بها الكتاب تحدَّث فيها عن جامع العلوم وآثاره وكتاب الإبانة. لقد كان إنجاز تحقيق هذا الكتاب ثمرة عمل استغرق ستة أعوام وثلاثة أشهر تخللتها فترات انقطاع كما نص المحقق على ذلك، فلا عجب أن جاء الكتاب مع مقدمته وفهارسه في نحوٍ من سبعمئة صفحة. وإنّه ليمثل بحق التحقيق المتقن البالغ حدّه في إتقان الصنعة وكمالها.

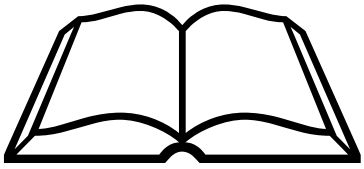

أمجد الطرابلسي في مرأى تلميذ قديم

١٩١٦ – ٢٠٠١

«الذكرى العاشرة لوفاته»

د. عمر الدقاق(*)

هو الأديب الشاعر والأستاذ الرائد في كلية الآداب بالجامعة السورية وعضو مجمع اللغة العربية بدمشق .

ولد أمجد حسني محمود الطرابلسي بدمشق في الثالث عشر من شهر أيار عام ١٩١٦ وتعلَّم في مكتب عنبر، ونال شهادة البكالوريا – قسم الفلسفة عام ١٩٣٤. وكان من أساتذته الشاعر محمد البزم (١٨٨٧ – ١٩٥٥).

أخذ ينظم الشعر في يفاعته، ويرفد صحافة دمشق والقاهرة بقصائده العاطفية والوطنية، ومن ذلك ما نشره في مجلة الرسالة لأحمد حسن الزيات التي كانت أشهر المجلات وأوسعها انتشارًا في ديار العرب.

(*) باحث في الأدب والنقد من سورية، وعضو مراسل في مجمع اللغة العربية بدمشق.

وفي بداياته عمل الطرابلسي مدرِّسًا في دمشق، ثم وقع عليه الاختيار مع صفوة من أقرانه، الذين أوفدوا إلى جامعة باريس وغيرها من جامعات المدن الأخرى في مونبلييه وليون، للحصول على المؤهلات العلمية العالية في اختصاصات متعددة مثل الأدب والفلسفة والجغرافية والزراعة وبعض العلوم الأخرى. وكان ذلك الإيفاد في العامين ١٩٣٧ – ١٩٣٨ حين كانت غيوم الحرب العالمية الثانية تتلبد في سماء العالم .

وجدير بالطرابلسي وبأمثاله الرُّواد في رحاب العلم والأدب والتربية والتدريس أن يُشاد بفضلهم وينوَّهَ بقدرهم، وهذا أقل ما يقتضيه الوفاء الجمُّ وما يجب على الجيل اللاحق تجاه أعلام جيلهم السابق، الذين بَنَوْا فأَعْلَوْا ثم مضَوْا محمودين مبجلين بعد أن أَدَّوا رسالتهم نحو أمتهم على خير وجه من الدأب والعطاء .

والحديث عن الأعلام الراحلين بطبيعته يثير في النفوس الشجن، كما يبعث فيضًا من المشاعر البهيجة والذكريات العذبة. وحين تتعدد في الإنسان الجوانب، أو عندما تتنوع لديه المواهب، يغدو الحديث عنه عسير المنال، وقلما يوفيّه حقه خطاب أو مقال. فالدكتور أمجد الطرابلسي أستاذ جليل، ومربٍّ كبير، ومؤلِّف قدير. وهو أيضًا شاعر مبدع، وكاتب بليغ، وناقد حصيف. وإلى جانب ذلك كان الفقيد ذا موقع رفيع على الصعيد الإداري والعلمي والسياسي، حين غدا عهدئذ في طليعة الهيئة التدريسية في كلية الآداب المحدثة في الجامعة السورية، وحين أصبح عميدًا لهذه الكلية، ومن بعد، وزيرًا للتربية والتعليم في الإقليم

السوري في مستهل عهد الوحدة، ومن ثم اكتسب عضوية مجمع اللغة العربية بدمشق سنة ١٩٦١.

لقد سعدت، كما سعد جيلي، بالتَّلْمَذة لهذا الأستاذ الكبير، وذلك في رحاب كلية الآداب في الجامعة السورية بدمشق طوال أربع سنوات، لعلها أجدى مرحلة من مراحل عمري، وأبعدها أثرًا في تكويني الأدبي والفكري. وكان إلى جانب أستاذنا الطرابلسي صفوة من الأساتذة الأجلاَّء منهم شفيق جبري وعز الدين التنوخي وبهجة البيطار وجميل صليبا وكامل عياد وسعيد الأفغاني وخلدون الكناني وحكمت هاشم وعادل العوا وعبد الكريم اليافي وجودت الركابي وعبد الله عبد الدايم وإبراهيم الكيلاني... الذين أرسَوْا دعائم الدراسات الأكاديمية في الجامعة السورية الناشئة، وكان فضلهم عميمًا في حقل التدريس الجامعي ومجال العلوم الإنسانية.

حين وضعت الحرب العالمية الثانية أوزارها، وانقشعت سحبها القاتمة، وانحسرت أهوالها المقيتة... منّ الله على أمجد الطرابلسي وسائر رفاقه الموفدين في ديار الغرب بنعمة الإياب إلى وطنهم الأثير سالمين غانمين. وكانوا كأنهم على موعد مع القدر، حين تحررت سورية العربية من حكم الأجنبي، وأزيح عن صدرها كابوس الاحتلال. وما كان أحلى عهدئذٍ، بل ما كان أروع أن تصير الثكنة العسكرية الرهيبة جامعة علمية عتيدة، وأن تغدو بؤرة القهر والذل ، موئلاً للمعرفة والعلم.

وإذا كانت ظاهرة الحب من النظرة الأولى صحيحة كما يقال، بدت لنا المحاضرة الأولى التي تلقيناها من أمجد الطرابلسي فتحًا جديدًا في مجال التدريس... أي سحر جاذب كان يكمن في شخصية هذا الرجل النحيل وعينيه البراقتين وأدائه الشائق، ماذا كان يخبئ لنا من زادٍ أدبي وثقافي هذا العائد إلينا من جامعة السوربون في فكره المتقد، وذوقه المرهف، ونظراته الثاقبة، ونبرات صوته العذبة؟.. لقد كان هذا أول الغيث...

وتوالت الأيام أيام الدراسة ، ونحن في كل حين ننتقل مع أستاذنا الأثير من حقل إلى حقل من الدراسات الجادة في مجال الأدب والنقد . هذه دراسة تحليلية أصيلة لشعر الوصف عند الشاعر زهير بن أبي سلمى في معلقته الميمية ومطولته الأخرى اللامية. وتلك أيضًا دراسة نقدية لشعر الرجز وعَلَمِهِ البارز رؤبة، بل لفن الرجز بمجمله ومدى تميزه عن القصيد المعهود... كذلك كان شأن تدارسنا قضايا التجديد في شعر أبي تمام وفنه التصويري، وما كان حوله من ضجيج وخصام لدى أنصاره ودعاة مذهبه، ولدى أنصار البحتري والمتمسكين بعمود الشعر العربي، ثم ما كان من أصداء هؤلاء وأولئك لدى الآمدي في كتابه النقدي النفيس «الموازنة بين الطائيين» . ومن هذا القبيل أيضًا بعد ذلك دراسة فنية لأشعار ابن خفاجة في وصف الطبيعة ومحاسن تلك الربوع الأندلسية ...

ثم انعطف بنا على هذا الصعيد أستاذنا الطرابلسي إلى دراسة اثنتين من أهم المقدمات النقدية في تراثنا الأدبي القديم الحافل، حين لم نكن نقيم في العادة وزنًا

لأية مقدمة تُعرض لنا في كتاب. كانت مقدمة ابن قتيبة لكتابه «الشعر والشعراء» موضع عناية أستاذنا في دراسة متأنية جادة، تناولت بالتحليل ما أثاره ابن قتيبة من قضايا نقدية كبرى في مجال المبنى والمعنى والمفاضلة بينهما، وأوجه الاتفاق والافتراق فيهما. ثم كانت الدراسة الأخرى في عامٍ تالٍ معالجة ما ورد في مقدمة ديوان اللزوميات لأبي العلاء من آراء نقدية تنم على ذائقة المعري، وتفصح عن مذهبه في الشعر ...وكانت مقاطع المقدمة على قدر من الصعوبة، فيما بدا لنا. ولكن الأستاذ الطرابلسي استطاع بحسن تَأَتِّيه، أن يسوِّغَها لنا ويمدَّ الجسور بينها وبيننا.

وما يقتضي التقدير والإشادة هو انعطاف الطرابلسي أحيانًا إلى دراسات نقدية مغايرة في الأدب الحديث، بعيدًا عن التراث الأدبي القديم، ليتناول فنًّا مستحدثًا طريفًا هو الشعر التمثيلي أو المسرحي، ويعمد إلى تحليل بعض مسرحيات شوقي، كمصرع كليوباترة، ليستخلص ما لها وما عليها، من حيث الشاعرية وملامح الشخصيات، ثم عناصر اللغة والحوار والقصِّ وما إلى ذلك...

ولعل الجديد الذي أدخلنا في عالمه أمجد الطرابلسي، هو الأدب الفرنسي ونقده، وذلك من خلال المادة المقررة «النصوص الأجنبية». وآنئذ عرفنا قدرًا، ولو يسيرًا، مما كنا نتوق إلى معرفته في مجال الاستشراق من جهود الأمم الأخرى المتحضرة في هذا الصدد. وبذلك أُتيح لنا أن نطَّلع على بعض ما كان أورده مثلاً المستشرق المعاصر بلاشير في كتابه عن المتنبي. كذلك رفدت ثقافتنا النقدية المتواضعة أفكارٌ نقدية أخرى أدلى بها أرسطو في كتابه «فن الشعر»، ثم قصائد

فرنسية طريفة في نقد الشعر، نظمها بوالو وتيوفيل غوتييه وهيريديا. وغير ذلك مما كان له مذاق خاص لدينا.

وكم يطول بنا الكلام على هذه المحطات الأدبية والنقدية، التي كان أستاذنا يقف بنا عندها بقدرٍ وافٍ من الرصانة والموضوعية والعمق. وما من ريب في أن كل هذا وسواه ينمُّ على تنوع غير معهود لدى الباحثين عادة في حقول الأدب والنقد ، إذ ليس من اليسير أن يعمد أستاذ ما إلى دراسة الشعر الجاهلي وفن الرجز العباسي ، ثم نقد ابن قتيبة والآمدي، وأن يتناول في الوقت نفسه مسرحيات شوقي وأن يعرفنا بالمذاهب الأدبية في فرنسا... إن مثل هذا الجمع بين المتباعدات لا يتأتَّى إلا لنبهاء العلم وأولي العزم.

وواضح مما تقدم أن المنحى النقدي التطبيقي كان هو الغالب على معظم ما كان يتناوله الطرابلسي في محاضراته. بل إن هذا المنحى ما هو إلا امتداد لبواكير اهتماماته، حين كان يافعًا في جامعة السوربون بباريس، وحين آثر لنيل درجة الدكتوراه آنئذ موضوعًا نقديًّا مهمًّا عنوانه «قضايا المعنى والمبنى في النقد العربي، في القرن الرابع الهجري».

ويبدو لي، وربما لكل دارس على يد أمجد الطرابلسي، أن هذا المعلم الفذ استطاع أن يدخل طلابه في جوٍّ علمي طريف لم يكن لهم بمثله سابق عهد، وبذلك استطاع أن يكوّن جيلاً قويمًا، ويترك فيه بصمات راسخة مدى الأيام..

* * *

وبعيدًا عن قاعات التدريس والجو الأكاديمي تعود بي الذكرى أيضًا إلى أواخر عقد الأربعينيات من القرن العشرين على الأقل، حين هرعنا إلى النادي العربي العريق بدمشق، لنستمع إلى محاضرة ثقافية عامة للدكتور أمجد الطرابلسي موضوعها «الحرية والعبودية في الأدب» وقد غصّ البهو يومذاك بالقادمين. كان الانتباه بالغًا والعيون شاخصة، والآذان مصغية. ولما أوفت المحاضرة على الانتهاء، بما انطوت عليه من فيض زاخر وأداء شائق، ختم المحاضر كلامه بنداء ينمُّ على الجرأة والأصالة وتعشق الحرية مستمدًا إياه من صيحة الخليفة عمر بن الخطاب ﷺ فقال: «أيها الأدباء، متى استعبدتم أنفسكم، وقد ولدتكم أمهاتكم أحرارًا ..» وكان على الأثر وقوف وإجلال، كما كان تصفيق وإعجاب .

ثم كانت المحاضرة العامة التالية التي سعدت بسماعها أيضًا لأستاذي الطرابلسي في حلب، مدينتي هذه المرة وذلك في ربيع ١٩٥٢. في تلك الحقبة نعمت الشهباء بمدير قدير لدار الكتب الوطنية هو الأديب الكبير سامي الكيالي صاحب مجلة (الحديث). فقد دأب في كل عام على استقدام نخبة من أعلام الفكر والأدب من لبنان ومصر ليحاضروا جمهور هذه المدينة العريقة. وكان أن لبَّى الطرابلسي دعوة صديقه الكيالي، فألقى محاضرة شائقة عنوانها: «الأدب العربي بين الأدب القومي والأدب الإنساني» . وقد نُشرت في إثر ذلك مع مثيلاتها لسائر المحاضرين كالمعتاد في ذلك الموسم الثقافي ضمن سلسلة منشورات دار الكتب الوطنية بحلب .

من فضل أمجد الطرابلسي عليّ، بعد فضل الله، أنني أحببت مادة دراسية كنت أتلقاها عنه حول «حركة التدوين عند العرب». وكان يروقني أن يَسْتصْحبَ إلى قاعة التدريس، قبيل كل محاضرة في هذا الصدد، عددًا من مجلدات جليلة القدر مختلفة الحجم من مكتبتنا التراثية الحافلة في اللغة والأدب والنقد والتراجم، فيضعها على المنبر، حيث نتملاها ونسعد برؤيتها وسماع بعض ما فيها. ولم نكن آنئذٍ ندري من أمرها شيئًا أكثر من أسمائها، ولعلها كانت الشرارات التي توهجت في نفسي بعد ذلك حين شببت وجنحت للتدريس الجامعي، فاخترت لنفسي أن أكون مدرِّس هذه المادة، متشبهًا بأستاذي أو مقتديًا به. فعلت بعدئذٍ ما فعله أيضًا، وجعلت مادته بين دفتي كتاب. وبين الكتابين عشرون عامًا، لعلها كانت مرحلة بين عهدين.

والفضل الآخر الذي ينمُّ على فضل أمجد الطرابلسي وأثره في مسيرتي العلمية أنني حين أُوفدت إلى مصر في مطلع عام ١٩٥٧ لمتابعة التخصص في معهد الدراسات العربية العالية بالقاهرة، أُتيح لي أن أطَّلع على جملة من منشورات هذا المعهد المتميز الذي أسسه ساطع الحصري، وهو تابع للأمانة العامة لجامعة الدول العربية، وقد تبدى لي يومئذٍ في عداد تلك المطبوعات كتاب لطيف الحجم كجسد مؤلِّفه أمجد الطرابلسي عنوانه (شعر الحماسة والعروبة في بلاد الشام) ومثل هذا الموضوع أو نحوه كان يستهويني ويستهوي أمثالي من شبان جيلي في إبَّان المد القومي، الذي كنا نعيش زخمه آنئذٍ في عقد الخمسينيّات،

والذي تمخض عن قيام الوحدة بين سورية ومصر. كما كنا في مدة الإيفاد نعيش أيضًا ذلك الحدث الكبير ونحن في قلب العاصمة الجديدة الكبرى للجمهورية العربية المتحدة، حين شهدنا عيانًا الزعيمين التاريخيين شكري القوتلي وجمال عبد الناصر يعلنان مولد أول دولة عربية موحدة في التاريخ الحديث.

وحين تناولت الكتاب وتصفحته باهتمام امتلأت نفسي بمحتواه وبأنفاس مؤلفه، الذي طالما تشبَّعت بفكره وأدبه في الجامعة السورية بدمشق. وكان أن قرَّ في ذهني بعد طول تفكر أن أختار (الاتجاه القومي في الشعر العربي المعاصر) موضوعًا في هذا الصدد أيضًا ليكون أطروحة للحصول على درجة الماجستير في الآداب في رحاب ذلك المعهد العالي. وقد ارتأيت أن أعرض الفكرة مع المخطط الأولي على العلامة الجليل ساطع الحصري، وهو رائد الدراسات القومية في فكرنا العربي الحديث. كانت زيارة في ذلك الحين لا أنساها لهذا الأستاذ الكبير في غرفته أو معتكفه بفندق فينواز العريق، كنت في تلك الزيارة في عداد أعضاء البعثة السورية من رفاقي في قسم الدراسات الأدبية وقسم الدراسات التاريخية، وهم توفيق برو ومحمد خير فارس رحمهما الله وعبد الكريم الأشتر أطال الله عمره. وكان أن أقرَّني يومئذٍ العلاَّمة الجليل فيما عزمت عليه، وأرشدني إلى بعض ما ارتآه في هذا الصدد منبهًا إياي إلى ضرورة تناول الموضوع تناولاً كليًّا من منطلق رؤية واسعة وضمن منظور جغرافي شامل، متجنبًا التناول القطري إلا ما تقتضيه المقارنات المنهجية ...

وهذا ما كان. فبعد زهاء عامين من الدأب أنجزت العمل على خير ما كنت أرجوه، إنه الاتجاه القومي في الشعر المعاصر. بِكر دراساتي وباكورة إنتاجي التي أعتز بها بطبيعة الحال. وحين اقترب موعد مناقشة الرسالة في ربيع عام ١٩٦٠ دعاني رئيس القسم في المعهد الدكتور المقدسي إسحاق موسى الحسيني إلى مكتبه وهو في الوقت نفسه أستاذي الذي أشرف عليّ أيضًا في مراحل إعدادي لهذه الدراسة، وكان الهدف ترشيح أسماء الأساتذة الذين سوف تُكوَّن منهم لجنة الحُكْم. وعندئذٍ تقدمت باقتراح حذر بأن يكون أستاذي الدكتور أمجد الطرابلسي مناقشًا أول لرسالتي، لأنه سبق أن كان أستاذًا زائرًا ومحاضرًا في معهد الدراسات نفسه، ولأنه فضلاً عن ذلك صاحب كتاب «شعر الحماسة والعروبة في بلاد الشام» الذي ضمَّ محاضراته السابقة في هذا المنبر. ومرَّت لحظة خلتها ساعة خيفة أن يتبادر إلى ذهن أستاذي المشرف أنني أفضِّل مناقشًا سوريًّا من بلدي قد يحابيني ساعة الامتحان، والمعهود أنه ليس من شأن الطالب أصلاً أن يختار ممتحنه. وسرعان ما ابتسم الدكتور الحسيني وأشار بكفه مستحسنًا ما كان من مبادرتي. وعلى التو كلفني بأن أنقل إلى الأستاذ الطرابلسي بدمشق رغبة المعهد في ذلك، ليصار في الخطوة التالية إلى إعداد كتاب التكليف أصولاً، ثم أردف الأستاذ الحسيني بقدر من الاستدراك مفاده أنه فكر مرة في هذا الاقتراح، ولكنه عدل عنه لأن أمجد الطرابلسي وزير، وليس بوسع من كان في مثل حاله في غمرة أعباء وزارة التربية والتعليم أن ينعطف للمناقشات والندوات وما إلى ذلك من نشاطات تربوية أو أدبية.

وقد أسعدني يومئذٍ ما تقدمت به من رأي مقدرًا ثقة أستاذي الحسيني بي، وذلك لأسباب عديدة قد تكون شخصية لديّ، فالأستاذ الطرابلسي يعرفني جيدًا بعد أن تَلْمذتُ له طوال أربع سنوات كاملات في رحاب الجامعة السورية، فهو أقدر من سواه على تقييمي، والسبب الآخر، وهو الأهم بطبيعة الحال، هو أنني بذلك أستبعد وقوع صدام معه ذي شأن في جلسة المناقشة الموعودة، لأن أرضيتنا ورؤانا واحدة تقريبًا على الصعيد القومي. على حين كانت تنتابني هواجس آناء الليل وأطراف النهار من احتمال نشوب خلاف بيني وبين الأستاذ الآخر المناقش، وهو في الغالب آتٍ من إحدى الجامعات المصرية، إذ قد يتصدى لي تجاه بعض القضايا الشائكة في سياق المقولات القومية التي تناولتها في أطروحتي، ولا سيما ما يتصل بالنزعات الإقليمية الضيقة لدى بعض دعاة الفرعونية والفينيقية وأمثالها في الشعر العربي ...

ومهما يكن من أمر سرعان ما طرت إلى دمشق وقصدت إلى أستاذي الوزير الدكتور أمجد في مكتبه حيث ضمتني معه جلسة قصيرة هادئة مساء يوم ربيعي بدمشق الفيحاء. لقد رحَّب بي واستفسر عن حالي. وعندئذٍ بادرت إلى إجمال ما أنا فيه بمصر ومعهدها، ونقلت إليه ما جئت من أجله. كانت دهشته جلية ولا ريب في أنه لم يتوقع مثل هذا الموضوع وهذه الدعوة، وهو في غمار الملفات واللجان وركام القضايا التي تنوء بها وزارة التربية والتعليم بطبيعة الحال. ولكنه فيما ظننت بدا مرتاحًا بل مسرورًا لهذه المبادرة، وقبل مشكورًا دعوة من المعهد العالي بمصر. أما أنا فكنت أشد ارتياحًا وسرورًا، إذ الأمور سائرة على النحو المنشود.

ولكن تلك الأمور لم تعد تجري كما تشتهي السفن، فبعد حين قصير تسلمت إدارة المعهد برقية من الدكتور الطرابلسي إلى الدكتور الحسيني يعرب فيها عن أسفه لعدم تمكنه من تلبية الدعوة الكريمة بسبب ما طرأ عليه من متطلبات العمل، مع وافر شكره وبالغ تقديره وطيب تمنياته.

وهذا ما كان من شأن أستاذي الطرابلسي الذي كان مصاحبي طوال تلك المرحلة الزمنية وأنا في مصر، إذ كان الحاضر الغائب معي منذ أن وضعت أول بذرة في اختيار أرضية أطروحتي حتى كتابة آخر كلمة يوم إنجازها...

* * *

وبعد أعوام قليلة تم توسيع جامعة حلب وتطوير التعليم العالي فيها بإحداث كليات جديدة، هي كلية الآداب وكلية العلوم وكلية الطب فضلاً عن كلية الهندسة الأم ثم كلية الزراعة... وقد أسندت إلي وإلى نخبة صغيرة من الأساتذة مهمة التدريس فيها. وكان أول ما بادرت إليه لدى تَوَزُّعنا المقرراتِ الدراسيةَ، اختياري مادة حركة التأليف عند العرب التي طالما أحببتها وهي التي تلقيتها طالبًا لدى أستاذنا الطرابلسي في مرحلة التحصيل الجامعي. وهكذا توليت تدريسها على هدي أستاذي ونهجه، مع تعديل ارتأيته تجاه ذلك وفق اجتهادي وما كان من مستجدات علمية في المدة التي مضت بين عهدي الكتابين. وكانت حصيلة محاضراتي تلك زهاء ثلاث سنوات انقضت على تدريسي المقرر، أن تبدَّى لي أوان نشرها في كتاب على غرار ما كان ذلك من قبل لدى أستاذي...

وكان أن وُلد كتابي باسم (مصادر التراث العربي) في اللغة والمعاجم والأدب والتراجم. ثم أتيح لي بعد حين أن أصدره ثانية في طبعته المنقحة المزيدة وأن أبعث به إلى أستاذي الطرابلسي وهو آنئذٍ في جامعة الرباط التي آثر الانتقال إليها. وقد حمل النسخة بإهداء لائق صديقي المرحوم الدكتور صالح الأشتر، وهو مثلي تلميذه السابق ثم زميله في الجامعة المغربية في وقت لاحق، آملاً أن يلمس أستاذي بعض ما قَدَّمه أحد تلاميذه من غراسه الطيبة.

على أن غصصًا كانت تعتريني أحيانًا، وتثير في نفسي نوازع الشوق إلى أستاذنا الأثير الذي شاء أن يبتعد عنا ابتعادًا بائنًا، وآثر الاستقرار في المغرب الأقصى دون أن يتاح له أن يرى غراسه المباركة كاملة من خلال جهود تلاميذه المحبين الكثر وهم ماضون في مسيرتهم وعطائهم، بعد أن تلقفوا الشعلة من بين يديه ويدي أمثاله من الأساتذة الرواد.

وفي هذا الصدد ثمة تساؤل قد يرد على البال، وهو لماذا نزح الدكتور أمجد الطرابلسي عن بلده وعن صحبه وعشيرته وآثر النأي عن وطنه وجامعته، مع أنه كان يومئذٍ في أوج عطائه ونضجه، حتى إنه لم يبلغ سن التقاعد المعهود في عمله الجامعي، حين كان في منتصف الأربعينيّات من عمره. قد يكمن الجواب أو بعض الجواب أن سنة هجرته كانت سنة ١٩٦٢ وجرح الوطن ندي إثر انفصام عروة الوحدة وانهيار الجمهورية العربية المتحدة وتبدد ذلك الحلم القومي العزيز...

وثمة أمر أخير كنت أتمناه مع أترابي، وهو أن نعايش أمجد الطرابلسي شاعرًا كما عايشناه أستاذًا وناقدًا ومؤلِّفًا، فهذا جانب إبداعي في شخصية الطرابلسي الأدبية كان جديرًا بأن يُعرف على نحو أفضل. وقد أتيح لي أن أقرأ بعض أشعاره السالفة وأن أستمتع بجمالها، وكان حريًا بها أن تزداد جمالاً وتألقًا بأدائه الشائق وإحساسه المرهف بنبرة الكلمة وجرس الحرف. ولأمر ما أعرض الشاعر الرقيق عن نظم القصائد، وعمد إلى تطليق ربة الشعر، لينصرف إلى عالم التدريس والبحث والتأليف، وذلك على غرار ما كان من أمر نظيره ومعاصره أيضًا خير الدين الزركلي صاحب «الأعلام». أهو الحرص على وقار العلماء، ورصانة الباحثين ؟

وعلى أية حال فالطرابلسي شاعر مُقِلٌّ بادر إلى نظم قصائده في عهد اليفاعة والشباب وأكثر أشعاره وجداني وقومي واجتماعي كما هو معهود في أدباء جبلة . ومن ذلك قصائده «ترنيمة، هياكل بعلبك، اليتيم، عرس في مأتم عاصفة في قلب»، ومن ذلك المقطعات التالية معللاً في بعضها سبب عزوفه عن النظم :

قالوا سكت عن الغناء وما دَرَوْا في مسمع الآفاق رجع غنائي
الكون لحني في الورى رتلته في موئل الإصباح والإمساء

ومن غزله الرقيق في عهد الشباب:

عذراء يا هبة السماء ونورها تيهي سنا من نشوة وفتون
يا رفة الطرف الجميل وخفقة القلب الجريح وبسمة المحزون
أنت التي أبدعتني وجعلتني ألقى الحياة بنظرة المفتون
ولكم جهلت حقيقتي ومقاصدي أيام غاصت في السراب جفوني

وقد سبق أن حزَّ في نفسي قبل بضعة أعوام أن يهتف لي الصديق الراحل الدكتور شاكر الفحام رئيس مجمع اللغة العربية رحمه الله، وكأنه يستنجد بي أن أوافيه بما لدي من معلومات وانطباعات عن الدكتور أمجد الطرابلسي، بعدما عرف أنني أحد تلاميذه السابقين، كما بيَّن لي أن مسعاه لم يوفق إلى العثور على من يستطيع ذلك في دمشق على النحو المنشود. وعندئذٍ لبيت رغبته في رسالة مصحوبة بمقالة قصيرة ضمن ما كان متاحًا لي في هذا الصدد. وقد نشرت تلك المقالة الموجزة في ذلك الحين مجلة الضاد الحلبية في عدد كانون الثاني سنة ٢٠٠٢. وقد تعزى قلة عارفي الدكتور أمجد الطرابلسي ولاسيما أصدقاؤه وطلابه السابقون إلى أن المدة التي قضاها في التدريس بجامعة دمشق اقتصرت على خمسة عشر عامًا، وهي مدة غير مديدة. يضاف إلى ذلك أن ابتعاد الراحل عن وطنه وعن مدينته دمشق كان ابتعادًا تامًّا وانقطاعًا بائنًا. فقد أمضى بقية عمره في الرِّباط ثم انتقل إلى باريس سنة ١٩٧٦ بعد أن بلغ السن القانونية للتقاعد وأقام فيها مع أسرته إلى أن وافته المنية سنة ٢٠٠١ وقد بلغ الخامسة والثمانين من عمره رحمه الله. كل ذلك يفسر سبب قلة الأخبار عنه أو ندرتها ، فأكثر الذين عرفوه أو عايشوه من أبناء جيله في دمشق قد غابوا عن الدنيا مع توالي الأيام.

* * *

ثم تبدت لي بعد حين أهمية تتبع حياة الطرابلسي في شطرها الآخر المغربي - الفرنسي بهدف سد الثغرة بل ردم الهوة في مجال معلوماتنا . إنها في واقع الأمر حقبة زمنية طويلة امتدت نحو أربعين سنة حتى وفاته سنة ٢٠٠١ أي ما يقارب نصف عمره المديد.

كانت جامعة محمد الخامس ما تزال في بداياتها وطور انطلاقتها، وبوسعنا القول: إن أمجد الطرابلسي كان أحد بناتها حين دأب على توطيد دعائمها وإغناء مسيرتها العلمية والإدارية بما لديه من خبرة واقتدار. وهذا ما أكسبه الحظوة والاحترام في الأوساط الإدارية والتعليمية. وقد تبدى فضله في تكوين نخبة من طلابه في مرحلة الدراسات العليا حين أصبح العديد منهم أساتذة في الجامعة نفسها، بل إن بعضهم كان من طلاب طلابه، شأنه في ذلك شأن الولد بل الحفيد. وقد غدا بحق أحد الرموز العلمية والثقافية في تلك الربوع القصية.

وكان من أنجب تلاميذ الطرابلسي من المغاربة محمد بنيس الذي كتب مرة في جريدة الحياة مقالة عنوانها (كوكب أتى من الشرق وتألق في سماء المغرب).

على أن صلة أمجد الطرابلسي بوطنه الأم لم تنقطع قط فالتراسل بينه وبين مجمعه مجمع اللغة العربية بدمشق كان يجري في بعض مجالات النشر في المجلة وفي مجال تحقيق المخطوطات. وقد بادر المجمع بدمشق إلى تكريمه بإقامة حفل استقبال له سنة ١٩٧٢ وهو العضو القديم فيه الذي جرى انتخابه سنة ١٩٦١.

كانت باكورة بحوث أمجد الطرابلسي في مجال التأليف هو أطروحة جامعية أعدها للحصول على درجة الدكتوراه في آداب اللغة العربية، وذلك في إثر إيفاده إلى جامعة السوربون بباريس. وعنوانها (نقد الشعر عند العرب حتى القرن الخامس)، وفيه تناول لقضايا المبنى والمعنى في النقد العربي. وقد أشرف عليه في هذا الصدد المستشرق ريجيس بلاشير. وقد ظلت هذه الأطروحة محفوظة بالفرنسية زمنًا طويلاً إلى أن عمد أحد تلامذته أو زملائه وهو إدريس بلمليح إلى ترجمتها إلى العربية، وكان أن صدرت بالدار البيضاء .

ثم كان من دراسات الطرابلسي المبكرة محاضرات بعنوان (النقد واللغة في رسالة الغفران) وقد ألقاها على طلابه بجامعة دمشق في الأعوام ١٩٤٩ – ١٩٥١.

وكتابه (نظرة تاريخية في حركة التأليف في اللغة والأدب) من أهم كتبه التي ألقى معظم محتواها على طلابه في جامعة دمشق طوال سنوات مديدة. وقد صدرت طبعته الأولى ضمن مطبوعات الجامعة السورية بدمشق سنة ١٩٥٦. ثم توالت طبعاته في دمشق ثم المغرب وكان آخرها بالرباط سنة ١٩٨٦.

وكتابه الآخر (شعر الحماسة والعروبة في بلاد الشام) صدر ضمن مطبوعات معهد البحوث والدراسات العالية بالقاهرة سنة ١٩٥٧، وهو مجمل المحاضرات التي ألقاها في القاهرة على طلاب ذلك المعهد.

وعلى صعيد آخر عُني أمجد الطرابلسي بالتحقيق في مجال التراث القديم فعمد إلى تحقيق مخطوط (الزاجر والنابح) لأبي العلاء المعري. وقد وجده في مكتبة المتحف البريطاني بلندن سنة ١٩٥٤. ثم وضع له مقدمة ضافية، وطُبع بالمطبعة الهاشمية ضمن إصدارات مجمع اللغة العربية بدمشق . وكتاب أبي العلاء الآخر هو (الصاهل والشاحج). وقد انصرف الطرابلسي إلى تحقيقه بالمغرب تلبية لرغبة مجمع اللغة العربية بدمشق، الذي زوَّده بمخطوطين ثمينين في إطار التعاون المثمر بينه وبين المجمع. غير أن ما حدث أن بنت الشاطئ طلعت على الملأ وعلى نحو مفاجئ بهذا الكتاب محققًا بالقاهرة، وقد تألم الدكتور أمجد في إثر ذلك، لأن الكثير من جهوده السالفة على هذا الصعيد قد ذهبت هباءً، وكان الدكتور أمجد قد نشر دراسة وافية حول ذلك المخطوط بلغت ثمانيَ وثلاثين صفحة ضمن مجلة المجمع الدمشقي سنة ١٩٦٤.

وأخيرًا فإن الجديد القديم من نتاج أمجد الطرابلسي هو ديوانه الذي حمل عنوان (كان شاعرًا). إنه ديوان صغير يضم قصائد ومقطعات من شعر الشباب كان قد زهد الشاعر في نشرها بعد أن عدَّى عن النظم وانعطف إلى التدريس والتأليف. وقد استجاب في نهاية المطاف لرغبة طلابه وأصدقائه في نشر ما تقدم من أشعاره. ومن طريف ما ذكره أمجد الطرابلسي بعد ذلك في هذا الصدد هو أن أحد محبيه كتب فوق مخطوطة شعره في أحد معارض الكتاب «كان شاعرًا» فاستحسن الدكتور أمجد هذه العبارة وارتضاها عنوانًا لديوانه الذي صدر سنة ١٩٩٣ ضمن مطبوعات المجلس القومي للثقافة العربية بالمغرب. وقد أهدى الشاعر ديوانه هذا إلى زوجته بالعبارات التالية :

«إلى رفيقة الدرب منذ خمسين عامًا...

إلى أم أولادي وجدة أحفادي...

مونيك الحبيبة زوجتي...

أمجد»

وصفوة القول أن أحدهم سأل الشيخ الإمام محمد عبده يومًا، وكان مقلاً في التأليف «لِمَ لم تؤلف؟» فأجاب: «كل تلميذ من تلاميذي مؤلّف» وهذا القول يسري أيضًا على أمجد الطرابلسي. فالطرابلسي لا يُثمَّن بما كَتب وما أَلَّف، على قيمته، ولكن بمقدار ما أنجب وعلَّم وربَّى وترك بصماته على طريق تكوين جيل طليعي في حياة أبناء الجامعة السورية وسائر الجامعات بالمغرب الأقصى.

وهكذا مضى أمجد الطرابلسي إلى حيث يمضي كل حيٍّ، تاركًا في قلوب محبيه لوعة وفي عيونهم دمعة.

قصة أول ترجمة للقرآن وطباعتها باللاتينية

د. نزيه كسيبي(*)

سنعرض في هذه العجالة الإشكالية التي طرحتها ترجمة القرآن لدى المسلمين الأوائل ولدى الغربيين، وما أثارته طباعة أوّل ترجمة باللاتينية لدى الباحثين الغربيين من نقاش حاد.

أوّلًا- بدايات ترجمة القرآن:

يذكر عدد من المؤرخين أن بعض أجزاء من القرآن بُدِئ بترجمتها إلى الفارسية منذ عهد الرسول، وقام بذلك الصحابي سلمان الفارسي. إذ يذكر الفقيه الحنفي المشهور السّرَخْسي، شمس الدين أبو بكر محمد بن سهل (ت. ٤٩٠ هـ ١٠٩٧م) في كتابه **المبسوط في الفقه**، في أثناء كلامه على جواز قراءة القرآن على المذهب الحنفي دون المذاهب الأخرى، بلغة أجنبية لمن لا يعرف العربية: «إذا قرأ في صلاته بالفارسية جاز عند أبي حنيفة رحمه الله ويُكْرَه... وعند الشافعي لا تجوز القراءة بحال... وأبو حنيفة استدلّ بما روى أن الفرس

(*) أستاذ في المعهد المتوسط التجاري - ستراسبورغ.

كتبوا إلى سلمان الفارسي ﷺ أن يكتب لهم الفاتحة بالفارسية، فكانوا يقرؤون ذلك في الصلاة حتى لانت ألسنهم للعربية...»[١] ويضيف صاحب **نهاية حاشية الهداية**[٢] أن الصحابي سلمان الفارسي استشار الرسول بشأن ترجمة معاني السورة الأولى من القرآن. ويشير الجاحظ (ت ٢٥٥هـ/ ٨٦٨ م) إلى أن موسى بن سيّار الأسواري كان يفسر القرآن لتلاميذه بالفارسية والعربية و «كانت فصاحته بالفارسية في وزن فصاحته بالعربية، كان يجلس في مجلسه المشهور به، فتقعد العرب عن يمينه، والفرس عن يساره، فيقرأ الآية من كتاب الله ويفسرها بالعربية، ثم يحوّل وجهَه إلى الفرس فيفسّرها بالفارسية، فلا يُدرَى بأيّ لسان أبين»[٣].

ويمكن القول إن هناك حوالي ثلاث مئة ترجمة للقرآن باللغة الأردية ومئة بالفارسية ومئة بالتركية منها حوالي ثلاثين بالأحرف اللاتينية[٤]. ولا يخفى على القارئ أن هذه الترجمات ذات هدف ديني إسلامي لتساعد المسلمين غير العرب على فهم معاني آيات القرآن.

---

(١) راجع بقية الخبر في كتاب المبسوط، السر خسي، جـ ١،ص ٣٧.

(٢) طبع الهند، ص٨٦، نقلا عن مقدمة ترجمة معاني القرآن، محمد حميد الله،ط ١٠، ص٥٣.

(٣) البيان والتبيين، الجاحظ، تح. محمد عبد السلام هارون،، ط٣، ج١،ص ٣٦٨.

(٤) راجع مقدمة ترجمة معاني القرآن، محمد حميد الله، ط ١٠، ص ٥٣، وراجع أيضًا.
Article « *AL-KUR'AN* »,J.D.PEARSON, in EI, ٢ème édition, vol.V, p.٤٣٢

ثانيًا- أول ترجمة إلى اللاتينية في العصور الوسطى وطباعتها في مطلع العصر الحديث:

أما في أوروبا، فقد ظهرت ترجمات عديدة للقرآن، وهذه الترجمات ليست حديثة العهد بل يرجع بعضها إلى العصور الوسطى، من خلال تأثير الأندلس على الغرب، فكان اكتشاف الغرب للقرآن بعد خمسة قرون من تاريخ الوحي...

-١-

ومن أوائل هذه الأعمال الترجمة اللاتينية التي حثّ على القيام بها رئيس دير كلوني في فرنسا، القس (١٠٩٢/١١٥٦ م) في أثناء زيارته لطليطلة حيث تعرف على مدرسة Pierre le Vénérable بطرس المحترم المترجمين من العربية إلى اللاتينية. ومن ثمّ أشرف على ترجمة القرآن وقام بها الإنكليزي روبرتوس روتنِنْسيس) روبِر الملقب باسم دو كيتن (والذي عرف في الفترة ١١٤١-١١٤٨م) Robertus Retenensis وهرمن الدلماشي Pierre de Tolède وهو من أهالي تشِستر الإنكليزية، بالتعاون مع بطرس الطُّليطلي (ت ١١٧٢م) الذي ساعد على التدوين باللاتينية، وراجع ترجمتها اللاتينية Hermann de Delmatie سكرتير بطرس المحترم. وقد انتهى العمل بهذه الترجمة في سنة ١١٤٣ أي قبل أربع سنوات من الحملة الصليبية الثانية (١١٤٧-١١٤٩م). وكانت بمثابة تلخيص لمعاني القرآن وُضِعت في متناول المبشرين واللاهوتيين لمجابهة الفكر الإسلامي ولإعانتهم في حملتهم الدعائية ضد الإسلام... وتمثل هذه الترجمة تمثيلًا واضحًا مقولة «الترجمة خيانة». وليس ذلك بمستغرب؛ فقد تمّت في فترة العداء بين المسلمين والفرنجة كما

كان يقول المؤرخون العرب وفي فترة الغزو الصليبي كما يقال في العصر الحديث، والتطاحن الذي عرفته المنطقة العربية الإسلامية في القرن الثاني عشر الميلادي. وهي كما يقول الدكتور عبد الرحمن بدوي: «لا تلتزم بالنص دقة وحرفية ولا تلتزم بترتيب الجملة في الأصل العربي وإنما تستخلص المعنى العام في أجزاء السورة الواحدة»(٥)، وكلمة المسلم تترجم بمعني المطيع والمستسلم.

قد أثارت طباعتها بعد قرون مشكلة كبيرة؛ فقد رفض الكاثوليك الغربيون في بادئ الأمرطباعتها. وجرى نقاش حاد لدى البروتستنتيين عن جواز طباعتها أو تحريم ذلك. إذ طُلِب من المجلس الاستشاري الكنسي في بال/ بازل في سويسرا السماح بطبع هذه النسخة المخطوطة اللاتينية فرُفِض Bibliander الطلب. وقد سعى ثيودوروس بيبلياندر (١٥٠٤؟-١٥٦٤ م) المولود في قرية بيشوفزل قرب مدينة زيوريخ السويسرية إلى طبعها سنة ١٥٤٣، فتعرّض بسبب ذلك إلى ضغوط كبيرة. وقد كان ملمّا إلماما كبيرًا بالعبرية، وله كتابات في قواعدها و شغف باللغات كما يذكر الأب روجيه فورليه، في محاضرة له عن فهرسة القرآن باللغة الفرنسية التي ألقاها في ستراسبورغ أمام مجموعة من الباحثين في اللاهوت والشريعة الإسلامية سنة ٢٠٠٠، وهذا الفهرس تفتقر إليه المكتبة الفرنسية ومازلنا ننتظر بفارغ الصبر نشره. وأصبح ثيودوروس بيبلياندر هذا أستاذًا في علم اللاهوت في زيوريخ وشارك في ترجمة العهد القديم من

(٥) موسوعة المستشرقين، د. عبد الرحمن بدوي، ص ٣٠٨.

العبرية إلى اللاتينية أيضا، وكان يُعد أبا علم التفسير اللاهوتي في سويسرا.وهو باحث في فقه اللغات ولم يكن أديبًا بل الهولندي Erasme كان نحويًّا. وكان من أصحاب الكنيسة الإصلاحية، من الإنسانيين المتسامحين أتباع إرازم (ت ١٥٣٦م)، والذي أقام في بال وكان يدافع عن فكرة الاختيار الحر. وقد سعى بيبلياندر لدى المصلحين الكنسيين ليعينوه على الحصول على الإذن من الإمبراطور على طبع القرآن باللاتينية فخرجت علينا «فتوى أو فتاوى» لمساعدته (١٤٨٣-١٥٤٦ م) والألزاسي المشهور جاك شتورم LUTHER أصدرها كل من الألماني مارتن لوتر (١١٨٩-١٥٣٣م) المولود في ستراسبورغ ومؤسس أهم مدرسة بروتستنتية في هذه المدينة Jacques sturm والتي مازالت قائمة إلى الآن. وقام هؤلاء مع بعض المفكرين اللاهوتيين الإصلاحيين الآخرين بتوقيع رسالة/ عريضة مشتركة - سابقين بذلك الإمبراطورية العثمانية التي ترددت قرنين قبل الإفتاء بطبع القرآن باللغة العربية- تسمح بطبع الترجمة اللاتينية للقرآن. وساقوا من أجل ذلك حججًا منها:

- إن قراءة العهد الجديد (الإنجيل) والقرآن تساعد على نقد القرآن ورفضه؛
- لابدّ من المعرفة الكلية للعلوم الدينية؛
- سمحت الكنيسة بتداول كتابات لفلاسفة ملحدين ولكتابات يهودية...ولا يمكن تجاهل القرآن الذي يمثّل فئة كبيرة من المسلمين.
- كلّما مُنِع الشيء زادت الرغبة في الاطلاع عليه وساعد على زيادة العنف.

– وأضاف بعضهم القرآن «خادع مكّار» وإن ماعدا ما يشبه الإنجيل ليس إلا هرطقة، فيجب تعريف الناس بذاك حتى لا يُخدعوا به...

-٢-

ثالثًا- محتويات الطبعة اللاتينية:

طبع الكتاب في ثلاثة أجزاء.

في الجزء الأول: مقدمات لتفنيد القرآن وعرضه. من ذلك رسالة بطرس المحترم إلى القسيس برنار دي كليرفو سنة ١١٤٣م والرد على السرازانيين [كان يقصد بهذه الكلمة العرب المسلمين] وبني إسماعيل و«هرطقتهم وشيطانيتهم» في ثماني صفحات. ويلي ذلك الترجمة اللاتينية التي تشمل الصفحات ٨ إلى ١٨٨. ويلي ذلك من الصفحة ١٨٩ إلى ٢٣٠ عقيدة محمد ﷺ ونشأته مع أخبار المسلمين.

أما الجزء الثاني الذي يقع في ١٧٨ صفحة فيعرض العقيدة المسيحية والعقيدة الإسلامية مقارنًا بينهما، في مقالات لعدة مؤلفين مكتوبة باللاتينية، وتُرجِم بعضها فيما بعد إلى الألمانية والإنكليزية، نحو مقال لنقولا دو كوزا وعنوانه: «غربلة القرآن وتفحصّه بدقة»، ففيه نقد مع محاولة فهم؛ أما الجزء الأخير الذي يقع في ١٦٣ صفحة ففيه مقالات لمارتان لوتر، وأخرى عديدة عن الأتراك ووضع المسيحيين في الأراضي التركية أي في ولايات الإمبراطورية العثمانية.

وكما ذكرنا سابقًا فقد طبعت هذه النسخة في مدينة بال/ بازل السويسرية سنة ١٥٤٣. وقد وجدتُ نسخة منها في مكتبة ستراسبورغ الوطنية والجامعية[٦]. ثم أعاد تيودوروس بيبلياندر طباعتها في بازل نفسها سنة ١٥٥٠مع بعض التعديلات حيث أضاف مثلا ترجمة أخرى لسورة الفاتحة يعزوها إلى غيوم بوستلGuillaume POSTEL. ويلاحظ في الترجمة المطبوعة أن كل ماله أصالة وتفرّد في القرآن لم يترجم، كما أن فيه إضافات ليست من القرآن في شيء. أضف إلى ذلك أن بعض القصص القرآنية ينظر إليها على أنها نصوص أسطورية لأنها ذات أصل تلمودي مثل سورة يوسف. والقرآن في نظر المترجمين والناشر ليس موحى من الله وإنما هو مجموعة قوانين تطبّق على المسلمين، وهو ليس بكتاب مقدس كريم، بل إن النبي نفسه ليس في رأيهم إلا خرافة! وكان لهذه الطبعة أثرها ا لسيّء في فهم الإسلام. وقد اعتمدت عليها أوروبا عدة قرون ترجمة إلى لغاتها وتعليقًا!

ومع هذه العيوب يعدّ وليم هوك هذه الترجمة «إنجازًا مهمًا» بوصفها أول ترجمة للقرآن[٧].

---

(٦) لمزيد من المعلومات عن هذه الترجمة راجع *موسوعة المستشرقين*، د. عبد الرحمن بدوي، ص ٣٠٦-٣٠٨.

(٧) لمزيد من الاطلاع على محتويات هذه المكتبة، راجع كتابنا: فهرس المخطوطات العربية في مكتبة ستراسبورغ الوطنية والجامعية، المقدمة ص ٧-٢٢.

هذه الطبعة إلى الإيطالية عام ١٥٤٧ والألمانية Arrivabene وقد ترجم أندريه أرّيفابيني (ط. نورنبرغ) عام ١٦١٦. كما صدرت طبعات لبعض السور القرآنية، نحو سورة الفاتحة والبقرة بالعربية واللاتينية، المدينة الجامعية الألمانية العريقة والتي درّس فبها فيخت وهيغل وشيلِر، وصدرت الطبعة Jenna نُشِرتا في بيناعام ١٦٩٢، وقد طبعت على نسق المخطوطات، فالعناوين بالخط الأحمر وسائر النص بالأسود. وقد راجعتُ بنفسي نسخة منها في مكتبة ستراسبورغ الوطنية والجامعية، وتبين لي أنها طبعة أنيقة معتنى بها.

(ت عام ١٦٦٠) André du Ryer وقام بأول ترجمة إلى الفرنسية أندريه دو ريير وكان يعمل في الحقل الدبلوماسي في القسطنطينة، ثم أصبح قنصل فرنسا في مصر عام ١٦٣٠، ثم مترجم الملك بعد رجوعه إلى فرنسا. وأصدر كتابًا في قواعد اللغة التركية. وصدرت ترجمته للقرآن عن النص اللاتيني المذكور وليس النص العربي، كما يقول مراشي، عام ١٦٤٧ بباريس تحت عنوان: **قرآن محمّد** ، أعيدت طباعتها خمس مرات، وتحتفظ أيضًا مكتبة ستراسبورغ بطبعة «L'Alcoran de Mahomet» صادرة بباريس سنة ١٦٧٢، ذات حجم صغير اتضح لنا بعد أن راجعناها شخصيًا أنها طبعة غير جميلة.

وكان آخر طبعة بالفرنسية لهذه الترجمة عام ١٧٧٠ طبعت بأمستردام، وترجمت هذه الطبعة الفرنسية إلى الإنكليزية عام ١٦٨٨، وإلى الألمانية بلا تاريخ، وإلى الهولندية عام ١٦٩٨، وكانت قد نشرت بهذه اللغة الأخيرة ترجمة

أخرى عام ١٦٤١ طُبعت بهامبورغ بالخط الغوطي، واستعمال هذا الخط في الطباعات الهولندية نادر. ثم ترجمها إلى عام ١٦٤٨. وأعيد طباعتها في الأعوام ١٦٤٩ و١٦٨٨و١٧١٩ . وطبعت A. ROSS الإنكليزية أ.روس

- ٣ -

عدة طبعات في الولايات المتحد الأميركية بدءًا من عام ١٨٠٦ إلى ١٨٥٩.

وتكرار طبعة هذه الترجمة مع ضعفها يدلّ على عظيم الاهتمام بالكتاب الكريم وبالإسلام على مدى العصور. بيد أن هذا الأصل اللاتيني المبتسر والمغرض الذي سيطر على اللغات الأوربية حتى القرن التاسع عشر ساعد مساعدة كبيرة على تشكيل المتخيل الغربي الخاطئ نحو المسلمين والإسلام خلال عدة قرون.

ترجمة أخرى باللاتينية عام ١٦٩٨ في مدينة بادوا Marracci ثم أصدر لويس مرّاشي الإيطالية، في طبعة أنيقة كبيرة الحجم مع النص العربي اطّلعتً على نسخة منها في مكتبة ستراسبورغ Padova المذكورة، مع مقدمة وتعليق ينتقد أو بالأحرى يتهجّم فيهما على العقيدة الإسلامية. ويصرح بموقفه عبر العنوان بالذات:

«تفنيد». ومع أن هدفها التفنيد والتهجّم، خصوصًا أنها موجّهة إلى القسيسين فإن نوعية الترجمة Refutatione يعتورها شيء من التحسن بالمقارنة مع الترجمات السابقة.

في القرن الثامن عشر بدأت تظهر في (Siècle des Lumières) ومع عصر النور والتنوير G. Sale أوروبا ترجمات خفّت فيها حدّة التوتّر والنقض على

الإسلام، على نحو ترجمة جورج سيل من العربية إلى الإنكليزية مباشرة، المطبوعة بلندن سنة ١٧٣٤، والتي سيصدر لها طبعات متكررة وترجمات عديدة إلى اللغات الأوروبية الأخرى. (ت ١٧٨٨) ترجمة جديدة عام ١٧٨٣ بعنوان Claude SAVARY ويُخرِج في فرنسا كلود سافاري ، مع مقدمة عن حياة الرسول ﷺ وأعيد طباعتها ثلاث عشرة مرة، وكان آخر طبعة لها Le Coran القرآن عام ١٩٧٠. ويبدو أن سافاري كان يتقن اللهجة المصرية في أثناء إقامته في مصر، ولا يعرف العربية الفصحى جيدًا، ولذا بدت ترجمته غير مخلصة للكتاب الكريم(٨).

ويذكر الدكتور عبد الرحمن بدوي أن أوّل ترجمة ألمانية عن النص العربي مباشرة هي ترجمة دافيد فربدريش Die Türkische Bibel بعنوان الكتاب المقدس التركي David Freiderich Megerlin ميكرلين طبع في فرانكفورت ١٧٧٢. ولا يندهشنّ القارئ بتعبير «تركي»؛ ففي هذه الفترة كان الأوروبيون يخلطون بين تركي ومسلم.

فيما بعد ترجمة مهلهلة بالألمانية عام ١٨٤٠ مع مقدمة لجايجرUlmann ويُصدر أولمان عن التشابه بين القرآن والعهد القديم (التوراة).وقد زخرت دراسات القرنين الثامن عشر والتاسع عشرGeiger بهذا النوع من الأعمال، وقام كثير من المستشرقين بنيل رسائل الدكتوراه عن القرآن ومقارنته بالكتب المقدسة الأخرى؛ (ت ١٨٣٢) في Goethe وفي هذا الباب وجدتُ في مكتبة ستراسبورغ

(٨) موسوعة المستشرقين، د. عبد الرحمن بدوي، ص ٣٠٨.

دراسة عن القرآن للشاعر الألماني غوته أثناء إقامته ودراسته في هذه المدينة بين عامي ١٧٧٠-١٧٧١، وقد كان لأستاذه يوحنا جوتفريد هِرْدِر (١٧٤٤-١٨٠٣) أثر كبير في هذا الاتجاه حيث نصحه بالاهتمام بالقرآن والشعر Joh. Gottfried Herder العربي. وسنجد فيما بعد عُظم تأثير الثقافة الإسلامية في شعره... و لا يخفى على القارئ أن هناك ترجمات أخرى لا يتاح لنا في هذه العجالة عرضها، وجدنا كثيرًا منها فيمكتبة ستراسبورغ الوطنية والجامعية الغنية بالمخطوطات بما في ذلك النسخ القرآنية المخطوطة والبرديات والنقود منذ العصر الأموي وبأمهات الكتب المطبوعة بمختلف لغات العالم قبل عام ١٩٢٠(٩).

-٤-

آمل أن يتاح لنا إنهاء مشروعنا لتحليل تفصيلي في كتاب منفرد للترجمات الفرنسية الحديثة ، خصوصا أن هذه الترجمات أصبح لها أهميتها القصوى في كلّ الدول التي يتكلم ساكنوها الفرنسية، فليست هذه الترجمات موجهة فقط إلى أصحاب الديانات الأخرى بقصد العرف على الإسلام وفهمه عبر الينابيع والأصول... بل موجهة إلى المسلمين الذين يفهمون الفرنسية دون العربية في أفريقيا مثلًا، وللجالية المسلمة المهاجرة والتي نسيت لغة الآباء وأهملت تعلمها، والتي يبلغ عددها في فرنسا فقط أكثر من خمسة ملايين. فكيف هي الترجمات التي طبعت بعد التخلي عن الترجمة اللاتينية ؟ ما لها وما عليها؟

(٩) مدخل إلى القرآن، ريجيس بلاشير ، ص ٢٦٤ وما بعدها.Introduction au coran

المصادر والمراجع

- **البيان والتبيين**: الجاحظ - تح: محمد هارون- القاهرة- مكتبة الخانجي- ط٣، ١٩٦٨.

-**فهرس المخطوطات العربية في مكتبة ستراسبورغ الوطنية والجامعية** - نزيه كسيبي- الكويت- منشورات معهد المخطوطات العربية، ١٩٨٥.

- **القرآن الكريم مع معانيه بالفرنسية**: محمد حميد الله - بيروت- مؤسسة الرسالة- ط١٠،١٩٨٠.

- **المبسوط**- شمس الدين أبو بكر محمد بن أبي سهل السرَخْسي، بيروت، ١٩٨٩.

- **المستشرقون**- نجيب العقيقي-القاهرة-دار المعارف- ط٣، ١٩٦٥.

- **موسوعة المستشرقين**: عبد الرحمن بدوي-بيروت- دار العلم للملايين،١٩٨٤.

-Blachère, R. Introduction au Coran, Maisonneuve et Lorose, Paris, ١٩٧٧.

-Id, Le Coran, traduit de l'arabe en français, Maisonneuve et Lorose, Paris, ١٩٨٠.

-Foehrlé, Roger, Conférence sur l'indexe du Coran en Français, GERI, Strasbourg, ٢٠٠٠.

-Euting, Julius, katalog der kaiserlichen universitäts- und Arabische Literatur, Ed. .-Landesbibliothek in Strasbourg K. Trübner, Strasbourg, ١٨٧٧.

-KUSSAIBI, Nazih, La Calligraphie arabe, en cassette vidéo, production du CRDP d'Alsace, avec un livret Pédagogique, Strasbourg, ١٩٩٤.

-Pearson, J.D.,art. "AL-KUR'ÂN",in Encyclopédie de l'Islam, ٢ème édition, ١٩٧٩, vol.V, p.٤٣٢.

قراءة في كتاب «قضايا ومواقف»
للدكتور إحسان النص

د. أحمد عبد القادر(*)

عقود من الزمن وسراج العطاء يزداد تألقًا وتوهُّجًا، ورياض الفِكر تتنوَّع ورودها وينتشر عبقها في فضاء الثقافة والعلم، إنها رحلة مباركة طيبة استقلَّ فيها الباحث الفاضل الدكتور النص مركبَ الفكر والمعرفة، ومضى في بحر الحياة عظيمَ الهمّة، قويَّ العزيمة، لا يعترف بوجود المستحيل، ولا يستجدي من الزمن لحظةَ راحةٍ أو أمان.

عرفناه مدرِّسًا في قسم اللغة العربية بجامعة دمشق، وعضوًا في مجمع اللغة العربية الذي يضمّ خيرة العلماء، ومحاضرًا في المراكز الثقافية، وباحثًا تألفه كتبُ التراث والثقافة، وعرفناه كاتبًا تنتشر مؤلَّفاته في المكتبات، ومقالاته في صفحات المجلاّت.

(*) باحث في الأدب والنقد من سورية.

والآن نقف مع أحدث مؤلفاته، وهو كتاب «**قضايا ومواقف: سيرة حياة ثقافية**»، الذي أصدرته الهيئة العامة السورية للكتاب في عام ٢٠١٠.

يقع الكتاب في (٦٧١) صفحة. ويتألَّف من بابَين رئيسيَّين: الأوَّل عنوانه: قضايا ومواقف، والثاني: من الجعبة مقالات ومحاضرات

وتأتي أهمية الكتاب من المادة العلمية التي يحتويها، إضافة إلى أنه يجمع آراء الباحث ومواقفَه على امتداد عدّة عقودٍ من الزمن. وفي مثل هذا النوع من المؤلَّفات تظهر ملامح الرحلة الفكرية للمؤلِّف، وما اتَّصفت به من انعطافات مُهمّة، وتطوُّر في طرح القضايا وأسلوب محاكمتها. وهي تجسِّد التأثير الواضح للمطالعة المستمرة والثقافة المتنامية في كتابات المؤلِّف.

وعن طريق مثل هذا الكتاب يستطيع الدارسُ أن يُحدِّد سُلَّم التطور الثقافي، والارتقاء الفكري للمؤلِّف، كما يُمكن أن تُتّخذ مثل هذه المؤلَّفات أساسًا للدراسات النفسية والفكرية، التي ترى أن المعلومات المكتسبة في مراحل العمر تؤثِّر في سلوك الإنسان وتكوينه الفكري وعالمه النفسي.

الباب الأول: قضايا ومواقف

عرض الباحث في هذا الباب ستَّ قضايا كلّية هي: قضايا حول الشعر والشعراء، وقضايا نقدية، وقضايا أدبية، وقضايا لغوية نحوية، وقضايا اجتماعية، وقضايا ثقافية.

وتندرج تحت كلٍّ من هذه القضايا الكلّية مجموعة من المسائل الجزئية، بحيث تؤلِّف كل مسألة بحثًا مستقلًا أو مقالة قائمةً بذاتها، كان المؤلِّف قد نشرها سابقًا في مجلاّت عربية، وخاصة مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق، الذي هو عضوٌ فيه.

أولًا- قضايا حول الشعر والشعراء:

تحدَّث تحت هذا العنوان عن:

١- **أوّلية الشعر الجاهلي**، فانتهى إلى أنه لا يمكن الأخذ بآراء بعض العلماء كابن سلام والجاحظ، التي تُرجع طفولة الشعر إلى عهد المهلهل أو امرئ القيس. وذهب إلى أن طفولة الشعر تعود إلى مرحلة قديمة، لا يمكن تحديدها بدقة لعدم وجود وثائق ونصوص، ولكنها على كل حال تمتدّ كثيرًا خلف الزمن الذي ظهر فيه المهلهل وامرؤ القيس.

٢- قضية الشعر المطبوع والشعر المصنوع:

بنى هذه القضية على قولٍ لابن رشيق في العمدة، ذهب فيه إلى أن الشعر المطبوع هو الذي يلقيه صاحبه دون تكلّف، ويضعُه بين أيدي الناس، أما الشعر المصنوع فهو الذي ينقِّحُه صاحبُه ويكرِّر نظرَهُ فيه، كما كان يفعل زهير ومن تأثَّر به من الشعراء. ومن المعروف أن مصطلح الشعر المصنوع في العصر العباسي أصبح يدلّ على المنظومات والمواعظ التي يكتبها من أتقنوا الأوزان، فصدروا عن علم وخبرة، ولم يصدروا عن موهبة وطبع.

٣- قضية رواية الشعر الجاهلي وانتحاله:

فيها مال الباحث إلى موقف عامة العلماء والدارسين أن الشعر الجاهلي لم يصل إلينا كلُّه، وأن بعض ما وصل إلينا لم تثبت صِحّتُه، على حين أن الكثير منه ثبتت صحته كالمفضَّليات والأصمعيات والمعلَّقات.

٤- قضية عمود الشعر:

تحدث فيها عن مفهوم «عمود الشعر» عند النقّاد العرب، فذكر أن الجاحظ قصد به موضوعات الشعر، وابن قتيبة أراد به مكوِّنات قصيدة المديح وهي: بكاء الديار والنسيب ووصف عَناء الرحلة ثم المديح، والمرزوقي أراد به المعايير الفنية والمعنوية واللفظية التي إن توفّرت في الشعر جعلته يرتقي في مدارج الجودة والحُسن.

٥- قضية المعلقات:

تحدث فيها عن جَمْع المعلقات، وروايتها وتدوينها وسبب تسميتها، وخبر تعليقها على جدران الكعبة. وانتهى إلى ما استقر عليه معظم الباحثين في الشعر الجاهلي، الذين ذهبوا إلى القول بصحتها، مع إقرارهم بأن بعض أبياتها قد يكون منحولًا، وذهبوا أيضًا إلى إنكار كتابتها بماء الذهب وتعليقها على أستار الكعبة، لأن الكتابة لم تكن مشهورة في الجاهلية، وأنها سُميت بالمعلقات لقيمتها ونفاستها، علمًا أن هذا الاسم لم يكن معروفًا قبل القرن الثالث الهجري.

٦- قضية بناء القصيدة الجاهلية:

ردّ فيها على الباحثين القائلين بأن القصيدة الجاهلية مفكَّكة الأوصال لتعدد أغراضها، وانتهى إلى أنها بنيت بناءً محكمًا وأن كل غرض فيها يرتبط بما قبله ويؤلف أساسًا لما بعده.

٧- قضية لغة الشعر الجاهلي:

قرر فيها أن اللغة التي قيل بها الشعر الجاهلي هي لغة أدبية موحَّدة تجاوزت خصوصية اللهجات، واستقرت لدى العرب نتيجة تواصلهم في الأسواق والبلاطات والحروب.

٨- قضية الرفض في الشعر الجاهلي:

تحدث فيها عن رفض بعض الشعراء الجاهليين سلطةَ القبيلة وتحكمها بأفرادها، مما دعاهم إلى الخروج عليها، واتخاذ الصعلكة أسلوبًا لحياتهم، ومن هؤلاء عروة بن الورد، والشنفرى، وهناك من رفض الذلَّ والهوان فثار في وجه الملوك والأمراء كعمرو بن كلثوم.

٩- قضية موقف الشاعر الجاهلي من المرأة:

فيها فرَّق بين مكانة المرأة في المجتمع الجاهلي، ومكانتها في الشعر الجاهلي. فانتهى إلى أن المرأة لم يكن لها شأن في المجتمع، على حين أنها كانت ذات مكانة في الشعر، فهي التي تُلهم الشاعر، وتفجر شجاعته، وتجعله يبكي على الديار حزنًا على فراقها، ويرهن حياته وشعره في ذِكر محاسنها وجمالها.

١٠- قضية موقف الشاعر الجاهلي من الموت:

عرض فيها مواقف مختلفة للشعراء، فبعضهم يرى الموت مدعاة للجزع، وبعضهم يُقبل عليه بروح التحدِّي واللامبالاة، والقليل منهم كان يعتقد بأن الموت هو مرحلة انتقال يعقبها خلود في العالم الآخر، وهؤلاء هم أتباع النصرانية والحنيفية. وفي المحصلة كان كل الشعراء يَرَون أن الموت يسلبهم المتعة والسعادة ويمثل نهاية مخيفة ومقلقة.

١١- محنة الشعر العربي المعاصر:

عرض هنا ثناءه على شعر السيّاب ونازك الملائكة، ورصد بعض مواطن التجديد في شعرهما، لكنه حين وصل إلى ما يسمّى بالشعر الحر، أو قصيدة النثر، رأى أن هذا النوع من الشعر دخل في محنة، وأصبح كلامًا لا معنى له ولا قيمة.

١٢ – قضية الشعر الخليلي والشعر المعاصر:

تحدَّث فيها عن اكتشاف الخليل بن أحمد الفراهيدي لأوزان الشعر العربي. وذكر أن الشعراء الذين جاؤوا بعد الخليل ساروا على نظام البحور الشعرية الذي رسمه لهم حتى عصرنا الحاضر.

وقد ظهرت بعض المحاولات القديمة للخروج على نظام البحور الشعرية، إلا أن المحاولات الجادّة قامت في العصر الحاضر على يد الشاعرة العراقية نازك الملائكة، التي ابتكرت الشعر المبني على نظام التفعيلة، وأوّل قصيدة لها من هذا النوع هي قصيدة (الكوليرا) التي منها:

طلَعَ الفَجرُ
أصْغِ إلى وَقْع خُطا الماشين
في صَمتِ الفَجرِ، أصغِ، انظُرْ رَكبَ الباكين
عشَرةُ أمواتٍ، عِشرونا
لا تُحصِ، أصغِ للباكينا

ثم ذكر أن للشاعر بدر شاكر السياب قصائد على شعر التفعيلة، وبعض النّقاد ذهب إلى أن السياب سَبق نازك الملائكة في اعتماد هذا اللون من الشعر، بقصيدته (هل كان حبًّا) التي منها:

هل يكون الحبُّ أنِّي
بِتُّ عَبدًا للتَّمنِّي
أم هو الحُبُّ اطِّراحُ الأمنِياتِ
والتِقاءُ الثَّغرِ بالثَّغرِ ونِسيانُ الحَياةِ

وبعد محاولات نازك والسَّياب انتشر شعر التفعيلة في مختلف الأقطار العربية، وأصبَح له أنصارٌ ومعجبون.

ورافق شيوعَ هذا اللون الشعري ظهورُ ضَرب جديد أُطلِق عليه مصطلح (قصيدة النثر) وهو كلام نثريّ ليس له وزنٌ ولا قافية، وقد أصبح مطيّةً لمن لا يملكون الموهبة الشعرية.

١٣- آفاق الإبداع في شعر أبي تمام:

تحدث هنا عن التجديد في شعر أبي تمام، فذهب إلى أن التجديد شمل:

المعاني ومطالع القصائد والصور، وأن مظاهر الإبداع عند هذا الشاعر تمثلت في اعتماده أسلوب الاستدلال بالتمثيل كقوله:

لا تُنكِرِي عَطَلَ الكريم من الغِنَى فالسَّيلُ حَربٌ للمكانِ العالي

وفي إيراد المتناقضات كقوله في وصف بعير:

رَعَتْهُ الفيافي بعدما كان حقبةً رعاها، وماءُ الرَّوضِ ينهلُّ ساكِبُهْ

وفي الإكثار من الحكم كقوله:

إذا جاريتَ في خلقٍ دنيئًا فأنتَ ومَن تُجاريهِ سَواءُ

١٤- آفاق الإبداع في شعر ابن زيدون

ذكر أن ابن زيدون هو أعظم شعراء الأندلس وأكثرهم إبداعًا وتجديدًا في شعره. وقد برز إبداعه في أربعة مجالات هي: وصف الطبيعة، والغزل، ووصف مجالس السَّمر والشراب، والاعتذار والاستعطاف.

ثم تحدث عن العوامل التي تقف وراء إبداع ابن زيدون وهي:

ثقافة الشاعر: التي تتَّسع لشتّى آفاق المعرفة.

الطبيعة الأندلسية: التي تتميَّز بسحرها وجمالها وامتزاجها بعواطف الشعراء.

المجتمع الأندلسي: الذي تكثر فيه مجالس اللهو والشراب ومجالسة النساء.

تجارب الشاعر: التي غذَّتها الهموم والآلام ومرارة السجون.

طبيعة الشاعر ومزاجه وما اتصف به من طموح إلى نيل المناصب العليا.

١٥ – شعراء قتلهم شعرهم:

ذكر تحت هذا العنوان اثني عشر شاعرًا، قُتِلوا بسبب شعرهم. ومن هؤلاء ابن الرومي الذي يُروى أن القاسم بن عبيد الله وزير المعتضد العباسي كان يخاف من هَجوه وفلتات لسانه، فأمر أن يُدَسّ له السُّمّ مع الطعام، ولما أكَلَ وأحسّ بالسّمّ قام ليذهب، فقال له الوزير: إلى أين تذهب؟ فأجابه إلى الموضع الذي بعثتني إليه. فقال له الوزير سَلِّمْ لي على والدي. فأجابه ابن الرومي: ما طريقي على جهنَّم. ثم مات بعد أيام.

ثانيًا: قضايا نقدية:

تحت هذا العنوان تحدَّث عن ثلاث قضايا هي:

١ – محنة النقد العربي المعاصر:

عرض فيها المشكلات التي يعاني منها النقد العربي قديمًا وحديثًا. ففي رأي المؤلِّف أن النقد القديم لم يسلم من التأثر بآراء فلاسفة اليونان ومنطق أرسطو،

وأن النقد الحديث أصبح أسيرَ المذاهب النقدية الغربية تتقاذَفُهُ في أوديتها ومتاهاتها. ودعا إلى وضع أسسٍ لمذهبٍ نقديّ عربيّ الجذور والأصول، يجمع بين التراث والمعاصرة.

٢- أثر الشعراء والنُّقاد الغربيين في شعرائنا في تحليل النص الأدبي:

توقَّف تحت هذا العنوان عند المذاهب النقدية المُحدثة في تحليل النّص الشعري، تلك المذاهب التي تسللت إلينا في رأيه من الغرب، ومنها: المنهج النفسي، والمنهج الاجتماعي، والمنهج البنيوي، والمنهج التفكيكي، والمنهج الرمزي، والمنهج الذي دعا إليه (ت.س. إليوت) القائم على دراسة النص الشعري بمعزل عن العوامل الخارجية.

وفي رأي المؤلف أن هذه المناهج لا تصلح للتطبيق على النصوص الأدبية، لأنها ذات نظرة جزئية، ولذلك دعا إلى اعتماد المنهج التكاملي، الذي سارَ عليه كثير من النُّقّاد، لأنه يحقق نظرة شاملة لعناصر النص، وينتهي بحكم متكامل يأخذ بعين الاعتبار العناصر الداخلية التي يتألف منها النص متمثلة باللغة والعواطف والفكر والصُّور، والعوامل الخارجية متمثّلةً بسيرة الشاعر، وظروف حياته، ومناسبة النص، وغير ذلك.

٣- قضية القديم والحديث:

تعرَّض هنا للجدل الذي ثار بين النقّاد القدامى حول تفضيل الشعر القديم على الشعر الذي يعاصرونه، فذكر أن كثيرًا من النقّاد وأغلبهم من العصر

العباسي، كانوا يفضّلون الشعر الجاهلي وشعر صدر الإسلام على الشعر العباسي، دون مسوِّغات فنية أو فكرية أو لغوية، أي أنهم يتعصَّبُون للقديم لِقِدَمِه فقط، وينتقصون الحديثَ لمعاصرته.

وقد أيَّد المؤلِّف مذهب ابن قتيبة الذي لم يفرِّق بين القديم والحديث من حيث الزمن، وإنما فرَّق بينهما من حيث معايير الجودة والحُسن.

ثالثًا: قضايا أدبية:

ناقش تحت هذا العنوان مجموعة من القضايا هي:

١ – رسالتان لعبد الحميد الكاتب وابن المقفع: تناولهما المؤلِّف بالتحليل والنقد.

– الرسالة الأولى وجَّهها عبد الحميد الكاتب إلى عبد الله بن مروان ولي عهد مروان بن محمد، آخر خلفاء بني أمية. وقد شرح فيها كيفية مواجهة العدوّ، والمكائد والخطط التي ينبغي إعدادُها، وأصول التعامل مع الجند، وختمها بالدعاء لولي العهد بالنصر والظَّفر على الأعداء.

– والرسالة الثانية هي رسالة الصحابة التي وجهها ابن المقفع إلى الخليفة العباسي المنصور، وفيها أثنى ابن المقفع على الخليفة ودعا له، ثم توجَّه إليه بالنصح والنقد لسياسته وحاشيته التي أطلق عليها لفظ الصحابة.

٢– مواقف لأبي حيان التوحيدي ونظراته الاجتماعية واللغوية:

حاول في هذه المقالة الغوصَ في نفسية أبي حيان، وتحليل سلوكه ومواقفه الفكرية، وانتهى إلى إثبات أنه عربي النسب، يعتزّ بعروبته وبتفوُّق العرب في النواحي الفكرية والحضارية.

٣- آفاق الإبداع في مقامات بديع الزمان الهمذاني:

تحدث هنا عن شهرة مقامات البديع، وثناء الأدباء والنقّاد عليها. ثم تناول بالتحليل والدراسة شخصياتِ المقامات وموضوعاتِها ولغتَها وأسلوبَها وأثرَها في الأدباء الذين احتذَوها ونسجوا على منوالها، كالحريري (٥١٦هـ) وغيره.

٤- إبداع الجاحظ في كتاب البخلاء:

في هذه المقالة تحدث المؤلِّف عن بلاغة الجاحظ، ودقّته في تصوير المواقف والشخصيات، وتمكّنه من فنون الكلِّم، وذكَر أن أهم ما تميّز به الجاحظ في كتاب البخلاء هو اتخاذُه البُخل، مادةً للتندُّر والفكاهة، وقدرته على تحليل طبائع البخلاء وحُججهم وأدلتهم وبراهينهم.

٥- المنزع العقلاني في الأدب الجاهلي:

ذكر تحت هذا العنوان أن سلوك الإنسان في الحياة ومواقفه تصدر عن أحد أمرين: إما الانفعال الآني الذي يرتبط بالطيش والتّسرع، ويقود إلى عواقب لا تحمد، وإما العقل الذي تغذِّيه التجارب والحكمة والتأمل ويقود إلى نتائج عظيمة الأثر، تبقى خالدة في أذهان الأجيال.

وذكر أن معظم الباحثين ذهبوا إلى أن الانفعال الآني هو الذي كان سائدًا في العصر الجاهلي، لكنه رأى أن الأدب الجاهلي يفيض بالآثار التي تُنبِئُنا أن العقلانية كانت تفرض ظلالها في هذا المجتمع، بدليل ما أُثر عن الجاهليين من أمثال وحكم وأقوال سائرة وخطب رفيعة لا تخلو من نظرات سديدة.

٦- المرأة في الأمثال العربية:

ذكر في هذه المقالة أن بعض النساء استطعْنَ في كثير من الأحيان إحرازَ مكانة مرموقة في الحياة الجاهلية، مع العلم أن المجتمع الجاهلي لم يكن يمنح المرأة أيَّ مكانة تُذكر، مستدلًا على ذلك بما ورد في الأمثال العربية من كلامٍ فيه تعظيم لدور المرأة من مثل قولهم: «رمتني بدائها وانسلَّت» وغيره.

٧- أغاليط في تاريخنا الأدبي:

نَبَّه في هذه المقالة إلى وجود روايات كثيرة في تاريخنا الأدبي غير مُقنِعة، وتحتاج إلى تمحيص وتأمُّل، ومنها مثلًا كتابة المعلَّقات بماء الذهب وتعليقها على جدران الكعبة الشريفة.

وذكر أن من الأغاليط خَبرَ أن الحارث بن حِلّزة ارتجل مُعلَّقتَه المشهورة كلها في مجلس عمرو بن هند، ومطلعها:

آذَنَتنا بِبَينِها أسماءُ رُبَّ ثاوٍ يُمَلُّ مِنهُ الثَّواءُ

وكذلك فعل عمرو بن كلثوم الذي ارتجَلَ في نفس المجلس معلَّقتَه المشهورة التي مطلعها:

ألا هُبِّي بِصَحنِكِ فاصبَحينا ولا تُبقِي خُمُور الأندَرِينا

ورأى أن مثل هذه الروايات - وهي كثيرة في تاريخنا الأدبي- لا يجوز التسليم بها، وخاصّةً أننا على أبواب الشروع بوضع معجم تاريخي للغة العربية.

٨- السخرية من الذات في أدبنا العربي القديم:

عرض في هذه المقالة مجموعة من الأدباء أدركوا ما ينطوون عليه من نقائص

خُلقِيّة وخَلْقِيّة، فأظهروها في أدبهم ساخرين من أنفسهم على أسلوب الدعابة، كقول أبي العلاء المعري:

لو كانَ كُلُّ بني حوَّاء يُشبِهُني فبِئس ما وَلدَت في الخَلْقِ حَوّاءُ

رابعًا: قضايا لغوية نحوية:

بدأ هذه القضايا بالحديث عمَّا تعانيه اللغة العربية من محَنٍ، تتجلَّى في: طُغيان العاميّة في وسائل الإعلام والصحافة، وحلقات الدراسة. يُضاف إلى ذلك أن كثيرًا من المثقَّفين ينفِّرون الناس من الفصحى مدَّعين أنها ذات قواعد معقّدة، ولا تصلح لمواكبة العلوم الحديثة، على حين أن الواقع يشهد بخلاف ذلك، إذ استطاعت العربية أن تستوعب كافة العلوم حين كان أجدادنا مخلصين للغتهم وعروبتهم في العصور السابقة.

ثم وضع بعض المقترحات الكفيلة بتسهيل تعلُّم اللغة العربية، كتبسيط قواعدها وتخليصها من النظرات المنطقية والفلسفية، والارتقاء بأسلوب التدريس، مع مراعاة الضبط اللغوي في المناهج، بحسب المستويات، ومساعدة الطلاّب على اكتساب المهارات اللغوية بتحفيظهم نصوصًا من القرآن الكريم والشعر.

ثم عرض بعض الأخطاء الشائعة على ألسنة الكُتّاب وبيَّن الوجه الفصيح فيها، وأظهر إعجابه باللغة العربية واتّساعها.

ثم تحدث عن أسباب انحدار اللغة العربية، لكنه عاد ليُظهر تفاؤلَهُ بأن المستقبل سوف يكون لها، داعيًا إلى الاهتمام بالنصوص اللغوية ونشر التعليم وإحياء التراث.

ثم عرض رأيًا له في تيسير مبحث الممنوع من الصرف، وهذا الرأي هو عبارة عن تلخيص موجز لما ورد في كتب النحو حول هذا الموضوع. وانتقل بعد ذلك إلى الحديث عن المعاجم المتخصصة كمعجم النبات، ومعجم الحيوان، ومعجم الألفاظ المعرَّبة، ومعجم السلاح، وغيرها. فرأى أن لهذه المعاجم أهمية كبيرة، وهي في رأيه المعاجمُ التي سيُعوَّل عليها في المستقبل.

وبعد ذلك تناول كتاب «**لغة الجرائد**» للشيخ إبراهيم اليازجي، بالتعريف والدراسة، فتحدث عن السيرة العلمية للمؤلف، ثم عرض بعض موادّ الكتاب، الذي يضمُّ كثيرًا من الأساليب والاستعمالات اللغوية الخاطئة، التي احتوت عليها الجرائد في زمن المؤلِّف (١٨٤٧- ١٩٠٦م).

وأشارَ الدكتور النص إلى أن تخطئة مثل هذه الأساليب تحتاج إلى اطّلاع واسع في الكتب الأدبية واللغوية، وأما الاقتصار على ما ورد في المعاجم فلا يكفي. وذكر أن الأستاذ سليم الجندي وقف على كتاب «لغة الجرائد» فكتب مقالات كثيرة، بيَّن فيها الأخطاء التي وقع فيها الشيخ اليازجي.

وبعد أن انتهى من التعريف بكتاب الشيخ اليازجي، انتقل في مقالة جديدة إلى الحديث عن الشيخ أحمد رضا العاملي، وجهوده في اللغة، وخصَّ بالتعريف معجمه المشهور «**متن اللغة**» فتحدث عن مصادره، وعن أهم ما يتميَّز به.

ثم انتقل في مقالة جديدة إلى التعريف بكتاب «**ردّ العامي إلى الفصيح**» للعلامة أحمد رضا أيضًا. وهذا الكتاب يضم كثيرًا من الألفاظ التي تستعملها العامة، ويمكن إعادتها إلى أصول فصيحة.

ثم ختم مبحث القضايا اللغوية بخمس مقالات تحدث فيها عن المعجم التاريخي للغة العربية، فرأى أن هذا المعجم ضروري جدًّا لمعرفة المعاني الدلالية التي اكتسبتها الألفاظ عبر الزمن، ولمعرفة الألفاظ والاستعمالات اللغوية التي وُلدت في عصور مختلفة، ولم تكن موجودةً من قبل.

وقد تحدث عن ظهور فكرة المعجم التاريخي، فذكر أن المستشرق الألماني أوغست فيشر، بدأ بوضع معجم تاريخي للغة العربية ولم يُكمِلْه، ثم ضاع عمله حين انتقل مجمع القاهرة إلى مقره الجديد. ثم طُرِحَت المسألة في اتحاد المجامع العربية فلاقت قبولًا، أثمَرَ عن اتخاذِ الاتحادِ قرارًا بالشروع في وضع معجم تاريخي للغة العربية، وأُعلن البدء بمسيرة المشروع.

ثم عرض الدكتور النص مجموعة من المقترحات والتصورات التي يراها ضرورية لإتمام المعجم، وانتهى إلى عرض النظام الأساسي لهيئة المعجم التاريخي، الذي أقرَّه اتحاد المجامع في عام «٢٠٠١».

خامسًا: قضايا اجتماعية:

في هذا الموضع عرض كثيرًا من التقاليد الاجتماعية التي كانت سائدة في المجتمع الجاهلي كالعصبية والثأر والأحلاف والوأد، وذكر أن القبيلة كانت النواة الأساسية لذلك المجتمع قبل الإسلام، والرابطة بين أبناء القبيلة تقوم على النَّسب، إذ ينحدر أفرادها من أب واحدٍ. ويوجد في مجتمع القبيلة الواحدة ثلاث طبقات هي: الصُّرَحاء والموالي والعبيد.

وتنتشر في المجتمع الجاهلي ظاهرة العصبية القبليّة، التي تفرض على الأفراد تقديم الولاء المطلق لقبيلتهم، والوقوف في وجه أعدائها، بغض النظر عن منطق الحقّ والمبادئ الإنسانية.

وذكر أنه كانت بين القبائل العربية صلاتُ عداوة وقتال، وصلاتُ موادعةٍ ومسالَمة. وكانت تنتشر ظاهرة الغزو وما تجرُّه من سَلبٍ للأموال، وقَتلٍ للرِّجال، وسَبيٍ للنِّساء، ثم الدخول في دروب الثأر التي لا تنتهي.

وتحدَّث عن دور الأسواق في حياة الجاهليِّين. فذكرَ أنها كانت مُلتقى القَبائل والوفود والشعراء، وفيها كانت تُعقَد الأحلاف، وتحصل المصالحاتُ، ويُسقَط الثأر، وتُدفع الدِّيات، وغير ذلك.

وكان لهذه الأسواق قدسيّة في عُرف الجاهليِّين، فلا يجوز فيها القتل أو الأخذ بالثأر، فإذا انقضت عاد الناس إلى حياتهم المعتادة، بما تعجُّ به من ألوان ومواقف وتناقضات.

فالجاهليُّون كانت لهم أمكنة مقدَّسة يسود فيها الأمان، أهمها البيت الحرام والأسواق، وكانت لهم أزمنة مقدَّسة أيضًا هي الأشهر الحرم. فالحياة الجاهلية، مع ما عرفته من فوضى واضطراب، كانت تشهد سلامًا وطمأنينةً في تلك الأمكنة والأزمنة، إلى درجة أن الرجل كان إذا رأى قاتلَ أبيه لا يَمسّه بسوء.

ثم تحدَّث بعد ذلك عن مكانة المرأة في المجتمع الجاهلي، فذكر أن المرأة لم يكن لها شأن يُذكر، باستثناء حالات فرديّة، إذ استطاعت بعض النساء أن تصل إلى مراتب الرجال، فشاركت في الحروب والغزوات والحياة الفكرية، وخاصة الشعر.

ثم ختم هذا الجزء بالحديث عن بعض القيم التي كان يحترمها الجاهليُّون كالكرم وحماية الجار، كما تطرَّق إلى بعض الظواهر التي كان يعرفها المجتمع الجاهلي، كالصعلكة وشريعة الثأر والأحلاف القبلية وظاهرة وَأد البنات مخافة العار.

سادسًا- قضايا ثقافية:

تحدَّث في هذا الموضع عن قضية واحدة هي: أزمة المثقَّف العربي في عصر العَولمة. فذكر أن العرب كانوا قادة الفِكر في العصور الوسطى، يدلّ على ذلك الازدهارُ العلمي والأدبي والثقافي الذي عرفه العالَم العربي، لا سيّما في الأندلس، حيث كانت أوروبة تنهل من معين الثقافة العربية. ثم انقلبَت الموازين فأصبح العرب عالةً على الغَرب في كافة مجالات العلوم، ولا سيّما العلوم الإنسانية، إذ تركت الثقافة الغربية تأثيرًا واضحًا لدى العرب في الشعر والنثر والنقد الأدبي. وهذا أدَّى إلى تشعُّب المذاهب الأدبية والمدارس النقدية، وضياع النظرة العربية الأصيلة إلى الفنّ، إضافة إلى التشويش على الذوق الفني العربي.

ورأى أن الثقافة العربية تواجه اليوم تحدِّيًا صعبًا في ظل العَولمة، التي انتشرت مبادئُها في كل البلدان، فأصبح المفكِّر العربي أسيرَ البحث عن الهوية، بدلَ أن يكون باحثًا عن الإبداع.

ولذلك دعا المفكِّرين العرب إلى مواجهة العولمة عن طريق التمسُّك بالتراث والفِكر الأصيل، كما دعا الهيئات العلمية، ومنها المجامع اللغوية، إلى حماية اللغة العربية، والحِفاظ على الهوية الثقافية.

الباب الثاني: من الجعبة مقالات ومحاضرات

بدأ هذا البابَ بالحديث عن أصدقاء له، غيَّبهم الموتُ، بعد أن كانوا نجومًا في سماء الفكر والثقافة، وهم: بديع حقي، وعبد الوهاب حومد، وأحمد راتب النفاخ، ومحمود محمد شاكر، ونازك الملائكة، وعادل العوا.

ثم انتقل بعد ذلك إلى الحديث عن الفوضى التي تعمّ المصطلحات. فدعا إلى إقرار منهجيّة موحَّدة لوضع المصطلح العلمي، والعمل على توحيده وإشاعته، كما دعا إلى منح اتحاد المجامع العربية سلطةَ التشريع اللغوي لتحقيق ذلك.

وعرض بعد ذلك الآثار السلبية والإيجابية للفضائيّات العربية، فرأى أن أخطر آثارها السلبية هو العبث بسلامة اللغة العربية، وإشاعة الألفاظ واللَّهجات والأساليب العاميّة، وهذا يؤدِّي إلى فساد الذوق اللغوي الجمالي لدى الناشئة.

ثم تعرّض إلى قضية الغِناء، فذكر أن الساحة الفنّية قد أصبحت شبه خالية من الغناء العربي الأصيل، وفتحت أبوابها لأغنيات هابطة، تسودها الموسيقا الصاخبة، والأضواء الباهرة الخادعة، والمطربون أصبحوا يستغنون عن الحناجر الشادية بحركات الأجساد العارية، كل ذلك أدّى إلى فساد الطرب والغناء والذوق الأصيل.

ثم عرض رأيَه في هذا العالَم، فرأى أنه ينجرف نحو الهاوية، مستدلًا على ذلك بانتشار الفساد في البرّ والبحر، والانحراف الخلقي والنفسي والاجتماعي. ودعا إلى توحيد الجهود لإنقاذ العالَم من خطر كارثةٍ قادمة.

وتحدَّث عن الذوق الجمالي، فرأى أنه قد انحرف وتغيَّر، لأنه في رأيه يستمدّ مقوِّماته ممّا ألفته الحواس، وفي هذا العصر أصبح الاتجاه العام يميل إلى مباينة المألوف في جميع مناحي الحياة الفنية والفكرية وفي السلوك الإنساني، مما أدّى إلى فساد الذوق الجمالي.

وانتقل بعد ذلك إلى رصد إنجازات المجامع العربية. فتحدَّث عن مجمع دمشق، ومجمع القاهرة، والمجمع العراقي، والمجمع الأردني، واتّحاد المجامع العربية، وختمَ حديثه بتوصيات واقتراحات تصبّ في تنشيط المجامع وتطوير عملها.

ثم تحدَّث في مقالة مختصرة عن «الحقيقة الضائعة» فذكر أن الكشف عن الحقيقة كان هدف كثير من الفلاسفة والمفكرين وعامة الناس. ولكن العثور عليها قد يبدو مستحيلًا أحيانًا، وقد يجيء بعد فوات الأوان. ثم ذكر أن غياب الحقائق عنّا قد يكون بسبب الجهل بها وعدم القدرة على إدراكها، وقد يكون بسبب تعمُّد إخفائها حرصًا على بنيان المجتمع وسلامته، واستشهد على ذلك بقولٍ لغراهام غرين: «الحقيقةُ هي رمزٌ يسعى وراءَه علماء الرياضيات والفلسفة، أما في العلاقات الإنسانية فالطِّيبةُ والأكاذيب أفضل من ألف حقيقة».

وانتقل بعد ذلك إلى الحديث عن الأساطير التي ورد ذِكرها في الشعر القديم، وأهمها: أسطورة الهامة، وملخَّصها أن روح القتيل تصير طائرًا عظيمًا يسمَّى «الهامة»، يظلّ يزقو عند رأسه ويُقلِقُه حتى يُؤخَذ بثأره. وأسطورة العَنقاء، وهو طائر ضخمٌ يفترس الطيور، وينقضُّ على الصِّبيان فيَذهب بهم. وأسطورة الجنّ والشياطين، التي تؤذي بعض الناس، وتُقيم تحالفًا وصُحبةً مع آخرين.

وبعد رحلة الأساطير انتقل المؤلِّف إلى التعريف بالحسن بن أحمد الهمداني (ت نحو٣٦٠هـ) وكتابه الإكليل. وهو كتابٌ جمع فيه مؤلِّفُه أنسابَ اليَمن، وتحدَّث عن ملوكها وقبائلها وأبطالها.

ثم عرض بعد ذلك سياسة الدولة الأموية إزاء القبائل العربية، فذكر أولًا المواطِن الأصلية لتلك القبائل في شبه الجزيرة العربية. ثم ذكر أن خلفاء بني أميّة دأبوا على كسب تأييد القبائل، لتقوية الدولة وتوطيد أركانها، ولم تكن سياستهم تجاه القبائل واحدة، بل كانت تتنوَّع بين اللِّين والمُهادنة والولاء والمصاهرة، وبين البطش والتأديب والتهديد.

وانتقل بعد ذلك إلى الحديث عن المكتبة الظاهرية بدمشق، فقدَّم نبذةً عن تاريخها ومراحل بنائها وترميمها، وعرضَ وصفًا لأجزائها ومكوِّناتها، وتحدَّث عن مهامها ونشاطاتها في ظل إلحاقها بمجمع اللغة العربية.

وبعد ذلك استعرض كلمتَه التي ألقاها في حفل استقباله عضوًا في مجمع اللغة العربية. وفيها تحدَّث عن سلفه الراحل الأستاذ المجمعي عارف النكدي، وما بذله من جهود في خدمة العلم. ثم عرض بعدها كلمتَه التي ألقاها في حفل تكريمه في قسم اللغة العربية بجامعة دمشق.

وأخيرًا ختمَ كتابَه بأربع مقالات أدبية هي: عقدة الذنب، والنملة والصرصور، والعالم تقوده النُّخبة، وستّ وصايا + وصية أخيرة.

وقد عبَّر في وصاياه الستّ عمّا يجول في قلب كل إنسان من ضيق وألم، حين يرى هذا العالَمَ البائس تتقاذفه الأطماع، وتتشوَّه فيه المبادئ والمفاهيم والقِيَم، ويسود فيه الغدر والخيانة والانتهازية.

وأما الوصية الأخيرة فهي تَجبر الوصايا السابقة، وفيها يعود الكاتب إلى التأكيد على وجوب أن يسلك الإنسانُ دروبَ الخير والحَق، وإن رأى أن الشرّ هو الذي يستولي على العالَم، لأن الشرّ لا بدّ أن يُهزَم أمام الخير، وأن الحقّ لا بدّ أن يظهر ويرفعَ صوتَه مهما حُجِب خلفَ أستار الباطل، وأن الزَّبَد سيذهبُ جُفاء، ولن يمكث في الأرض إلاّ ما ينفع الناسَ

*****

كان ذلك عرضًا لما تضمَّنَه كتاب «**قضايا مواقف**» للدكتور إحسان النص. وأهم ما يُلاحظه القارئ ما يلي:

١- ضمَّ الكتابُ مقالاتٍ وبحوثًا تُعبِّر عن آراء الكاتب ومواقفه على امتداد خمسة عقود من الزمن، فهو يُعبِّر بحق عن سيرة حياة ثقافية.

٢- يستنتج القارئ أن المؤلِّف لم يكن يضع في حُسبانه أن تخرج هذه البحوث والمقالات في كتاب مستقلّ، لذلك نجدها تمسّ معظم جوانب الفكر الإنساني، ولا تقتصر على اختصاص محدَّد.

٣- كان الكاتب ميّالًا إلى التَّبسيط والبُعد عن التكلُّف، ولذلك لم يتوغَّل في المذاهب الأدبية الحديثة وتعقيداتها الفلسفية، بل كان يتناول النصوصَ والشواهد تناولًا لطيفًا، ويُعلِّق عليها تعليقًا خفيفًا مُبَسّطًا، يستطيع القارئ استيعابه دون مشقّة أو عناء.

٤- يُلاحظ القارئ أن المؤلِّف يميل إلى الثقافة العربية الأصيلة، ويلتزمها إلى درجة الحبّ والإعجاب، ولم يكن يُغادرها إلى الثقافة المعاصرة إلا في حدود الضرورة وخدمةِ الفكرة التي يُناقشها.

٥- اعتمد المؤلف في هذا الكتاب على المصادر الأدبية واللغوية، لكنه لم يستَعِنْ بالمراجع إلا نادرًا، وهذا يعني أنه يكتب ويتعامل مع المادة المدروسة بحسب ثقافته ورؤيته ومحفوظاته، وليس بحسب فهم الآخرين وأحكامهم.

٦- يتَّسم أسلوب المؤلِّف بالسهولة والوضوح والسلاسة، إذ يشعر القارئ بأن الفكرة تتدفَّق إلى عقله دون جهد أو مشقّة، ويُحسُّ بأنه ينجذب إلى أسلوب المؤلِّف فلا يتوقَّف عن القراءة إلا بعد يُنهي البحث أو المقالة التي يقرؤها.

وقد جاءت كلماتُ المؤلِّف وأفكاره خفيفةً على القارئ وأشبه بحكايات المجالس، يتقبلها القارئ ويفهمها بيُسر دون أن يحسَّ بوجود مسافة فكريّة بينه وبين المؤلِّف. وهذه السِّمة تدل على الثقة بالنفس والإخلاص للعلم والتواضع الفكري، وهي نادرة في كثير من الكتابات المعاصرة، لأن الشائع الآن هو أسلوب التعقيد، وحشد المراجع العربية والأجنبية في المتن والحواشي، وكثرة التفريع والتقسيم والتّعداد، والانتقال غير المنظَّم بين الأفكار. وأسلوب المؤلِّف ناصع لطيف وبريء من كل هذه العيوب.

ويُسعدني أخيرًا أن أتوجَّه بالشكر الجزيل إلى المؤلِّف الفاضل على هذا الجهد المبارك والعطاء العظيم، علمًا أن كتاب «قضايا ومواقف» ليس إلا واحدًا من الإنجازات الكثيرة للمؤلِّف، في رحلته العلمية المباركة.

أنباء مجمعية وثقافية

الكتب والمجلات المهداة

إلى مكتبة مجمع اللغة العربية

في الربع الأول من عام (٢٠١١)

أ - الكتب العربية

أ. ماجد الفندي(*)

- **أجدادنا في ثرى بيت المقدس**: د. كامل جميل العسلي، مؤسسة آل البيت، ١٩٨١م.
- **الأعمال الكاملة للأديب الأستاذ أحمد السباعي**: جدة، ١٤٣١هـ- ٢٠١٠م.
- **بهجت التلهوني ودوره في القضايا الأردنية بين ١٩٥٤- ١٩٧٠، غازي العطفة**، عمان، ٢٠٠٨م.
- **تاريخ الأردن السياسي المعاصر**، د. حازم نسيبة، عمان، ١٩٩٠م.
- **التاريخ السياسي للعلاقات الأردنية السعودية**، د. فتحي محمد دراوكة، عمان، ٢٠٠٩م.

(*) إجازة في المكتبات من جامعة دمشق.

- **جنوبي بلاد الشام تاريخه وآثاره**، خير نمر ياسين، عمان، ١٩٩١م.
- **الاجتهاد في الإسلام**، ندوة وباحثون، سلطنة عمان، ١٩٩٨م.
- **الرواية في الأردن**، د. إبراهيم السعافين، عمان، ١٩٩٤م.
- **الشعر في الأردن**، د. سمير قطامي، عمان، ١٩٩٣م.
- **الصحة في الأردن، د. عادل زيادات، الأردن، عمان، ١٩٩٤م.**
- **العمل التطوعي ورعاية المعوقين**، د. عبد الله الخطيب، الأردن، عمان، ١٩٩٣م.
- **العمل والعمال في الأردن**، د. منصور العتوم، الأردن، عمان، ١٩٩٣م.
- **الغربال**، حسين عاتق الغريبي، جدة، ٢٠٠٨م.
- **الفقه وأصوله**، مجموعة باحثين، عمان، مؤسسة آل البيت، ١٩٩٩م.
- **القضاء الشرعي في الأردن**، محمد محمود محيلان، الأردن، عمان، ١٩٩٤م.
- **القضاء العشائري في الأردن**، د. محمد أبو حسان، عمان.
- **كتاب المؤتمر السياسي المعاصر**، د. حازم نسيبة، عمان، الأردن، ١٩٩٠م.
- **كتاب المؤتمر السنوي الثاني والخامس والثامن**، مجموعة باحثين، ١٩٨٣م.
- **مستقبل الإسلام**، أبحاث الدورة الثانية عشرة لعام ٢٠٠٤م.
- **المسرح في الأردن، د. مفيد حوامدة، عمان، ١٩٩٣م.**
- **مشواري على البلاط**، عبد الله الجفري، جدة، ١٤٣١هـ.
- **مصادر ومراجع عن الثورة العربية الكبرى**، د. محمد علي الصويركي الكردي، عمان، ١٩٩٤م.

- **معاملة غير المسلمين في الإسلام، مجموعة باحثين، عمّان، ١٩٨٩م.**
- **المنتديات والأندية الأدبية في السعودية**، عبد المقصود خوجة، جدة، ٢٠٠٩م.
- **الموجز في الإدارة المالية في الإسلام، مجموعة باحثين، مؤسسة آل البيت، عمّان، ١٩٩٤م.**
- **الموجز في الحقوق في الإسلام**، د. ناصر الدين الأسد، عمان، ١٩٩٥م.
- **الموجز في معاملة غير المسلمين في الإسلام**، باحثون، مؤسسة آل البيت، عمّان، ١٩٩٤م.
- **النظام الإداري في الأردن**، خالد سمارة الزغبي، عمّان، ١٩٩٤م.
- **وأمرهم شورى بينهم**، د. عبد العزيز الخياط، عمّان، ١٩٩٣م.

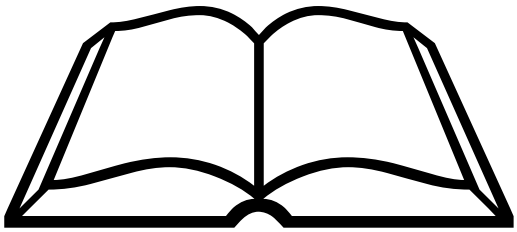

ب- المجلات العربية

أ.ماجد الفندي(*)

اسم المجلة	العدد	سنة الإصدار	المصدر
- الأسبوع الأدبي	١١٦٦، ١١٦٧، ١١٦٨، ١١٦٩، ١١٧٠، ١١٧١، ١١٧٢، ١١٧٣، ١١٧٤،	٢٠٠٩	سورية
- البطريركية	السنة / ٤٧/ الأعداد / ٢٨٤، ٢٨٥، ٢٨٦	٢٠٠٩م	سورية
- التراث العربي	١١٣	٢٠٠٩م	سورية
- دراسات تاريخية	١٠٣، ١٠٤، ١٠٥، ١٠٦	٢٠٠٩م	سورية
- صوت فلسطين	٥٠٠، ٥٠١	٢٠٠٩	سورية
- الضاد	السنة / ٧٩/ العدد/ ٧، ٨	٢٠٠٩	سورية
- عالم الذرة	١٢٢، ١٢٣	٢٠٠٩	سورية
- مجلة جامعة البعث (علوم إنسانية)	٤، ١٠، ١٥	٢٠٠٨م	سورية
- مجلة جامعة دمشق للعلوم الهندسية	العدد / ٢/ مجلد / ٢٤/	٢٠٠٨	سورية
- مجلة جامعة دمشق للعلوم التربوية	(١+٢) مجلد / ٢٥/	٢٠٠٩م	سورية
- مجلة جامعة دمشق للعلوم الزراعية	العدد / ٢/ مجلد / ٢٥/	٢٠٠٩	سورية

(*) إجازة في المكتبات من جامعة دمشق.

اسم المجلة	العدد	سنة الإصدار	المصدر
- مجلة جامعة دمشق للآداب والعلوم الإنسانية	٣+٤ مجلد / ٢٤/	٢٠٠٨	سورية
- المعلم العربي	السنة / ٦٢/ العدد / ٢/	٢٠٠٩	سورية
- المهندس العربي	١٦١	٢٠٠٩	سورية
- الموقف الأدبي	٤٥٩، ٤٦٠، ٤٦١، ٤٦٢	٢٠٠٩	سورية
- دراسات (علوم إنسانية واجتماعية)	العدد / ٢/ المجلد / ٣٦/	٢٠٠٩	الأردن
- المجلة الأردنية في إدارة الأعمال	العدد / ٣/ المجلد / ٥/	٢٠٠٩	الأردن
- مجلة مجمع اللغة العربية الأردني	السنة / ٣٣/ العدد / ٧٦/	٢٠٠٩	الأردن
- فكر وفن	السنة / ٤٨/ العدد / ٩١/	٢٠٠٩	ألمانيا
- الأدب الإسلامي	العدد / ٦٤/	٢٠٠٩	السعودية
- الحج والعمرة	السنة / ٦٤/ العدد / ١٠ - ١١/	٢٠٠٩	السعودية
- الفيصل	٣٩٩، ٤٠٠	٢٠٠٩	السعودية
- المجلة العربية	٣٩٤	٢٠٠٩	السعودية
- البيان	٤٦٩، ٤٧١، ٤٧٢	٢٠٠٩	الكويت
- العربي	٦٠٥، ٦٠٨، ٦٠٩، ٦١١	٢٠٠٩	الكويت
- الدراسات الفلسطينية	٧٨	٢٠٠٩	لبنان
- الفهرست	٢٤، ٢٥	٢٠٠٩	مصر
- الداعي	السنة / ٣٣/ العدد/ ٨، ٩، ١٠، ١١	٢٠٠٩	الهند
- صوت الأمة	٩، ١٠، ١١ المجلد / ٤١/	٢٠٠٩	الهند

النشرة الاجنبية

ربى معدني(*)

Periodicals:

- Awraq: estudios sobre el mundo àrabee islamico contemporanéa, Vol.25 (2008).
- AL-Qantara, Vol.29, N.2, (2008).
- Ajames, N.24- 2 (2007).
- Resistance, N.1- 2- 3(2008).
- Acta Orientalia, Vol.61, N.3- 4 (2008).
- Deutschland, N.1- 2 (2009).
- East Asian Review, Vol.20, N. 4 (2008).
- Journal of Asian and African Studies, N. 76 (2008).
- Le Muséon: Revue d'Études Oriantales, Tome 121, Fasc.3- 4 (2008).
- Orient, Vol.XLIV (2009).
- Hamadard Islamicus, Vol. 31, N. 3 (2008).
- Korea Focus, Vol. 17, N. 1 (2009).

(*) إجازة في الأدب الفرنسي من جامعة دمشق.